



*the further
adventures of*

شِيرلوك هولمز إرث حاك الاستفسار

ديفيد ستيفارت ديفيز

ترجمة: كارلس عاطف
تحرير أدبي: أحمد المهدي

T



شیرلوك هولمز
إرث جاك السفاح

T t.me/tea_sugar

ديفيز، ديفيد ستيفورث، المغامرات الجديدة لشيرلوك هولمز / إرث جاك السفاح.

رواية / ديفيد ستيفورث ديفيز.

ترجمة: كيرلس عاطف.

تحرير أدبي: أحمد المهدي

القاهرة: كيان للنشر والتوزيع، 2023.

328 صفحة، 20 سم.

تدمك: 978-977-820-122-2

أ- القصة الأمريكية

أ- عاطف، كيرلس (مترجم)

ب- العنوان: 823

رقم الإيداع: 2021 / 2820

الطبعة الأولى: يناير 2023.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

This translation of THE FURTHER ADVENTURES OF
SHERLOCK HOLMES: THE RIPPER LEGACY, first published
in 2023, is published by arrangement with Titan Publishing

.Group Ltd

David Stuart Davies 2023 ©

ع ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

□ إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين.

T t.me/tea_sugar

المغامرات الجديدة لشيرلوك هولمز

إرث جاك السفاح

ديفيد ستيوارت ديفيز

ترجمة

كيرلس عاطف

تحرير أدبي:

أحمد المهدي

عن الكاتب

(ديفيد ستيوارت ديفيز) كاتب بريطاني كان يعمل معلمًا للغة الإنجليزية قبل أن يتفرغ للكتابة.

قام بتأليف العديد من الروايات عن شخصية (شيرلوك هولمز) أبرزها التابعة لسلسلة المغامرات المستقبلية لـ (شيرلوك هولمز):

- وعد الشيطان.
- المحقق المثلث.
- لفافة الموتى.

وقام بتأليف عدة مسرحيات منها:

- الفعل الأخير: التي عرضت في الكثير من الدول وحازت على جوائز عدة.
 - الموت والحياة، التي تم تحويلها إلى دراما صوتية.
- عمل محررًا للعديد من المقالات الصحفية بمجلة المحقق،
أهمهم:
- أفضل ما في شيرلوك هولمز.
 - ظلال شيرلوك هولمز.
 - قصص من القرن التاسع عشر.

الفصل الأول

من مذكرات د. (واطسون)

لم أنعم بالأطفال. كانت هذه واحدة من أعظم مآسي حياتي، فقد قرر القدر ألا أصير أباً على الإطلاق. عندما تزوجت حبيبتي (ماري) اعتقد كلانا أنه في الوقت المناسب سيكون لدينا طفل. في الواقع، لقد أردت فتى وفتاة. ستمتلك الفتاة كل صفات زوجتي الذكية والجميلة، وسيحمل الصبي اسم (واطسون) الذي أمل أن يجلب له التميز والشرف، ولكن هذا لن يحدث.

ظننت أنا و(ماري) في السنوات القليلة الأولى من حياتنا الزوجية أننا يجب أن نكرس حياتنا لبعضنا بعضاً، معتقدين أنه سيكون هناك متسع من الوقت لإدخال القليل من الغرباء إلى حياتنا في وقت لاحق. ولكن في السنة الرابعة من زواجنا وقعت (ماري) ضحية لسلسلة من الأمراض التي لم تكن منفردة لتهدد حياتها، ولكنها أدت مجتمعة إلى إضعاف بنيتها بشكل خطير. عندما أصيبت بالدفتريريا في شتاء 1892 الملعون لم يكن

لديها طاقة كافية لمكافحته. كانت شجاعة حتى النهاية، لكن لم يكن هناك شيء يمكنني أنا أو زملائي الأطباء فعله لمنعها من الاستسلام. قرب النهاية رأيتها تتلاشى تدريجيًا أمام عيني، تتحول ببطء إلى شبح.

ماتت (ماري) بين ذراعي.

لم أفقد زوجتي فقط في ذلك اليوم الرهيب ولكنني فقدت الكثير من أحلامي معها، وإذا كنت صادقًا فأنا أعتقد أنني لم أعد مطلقًا نفس الرجل الذي كنت عليه من قبل.

عندما ماتت (ماري) كنت أعاني بالفعل من خسارة، لكن ثبت أن ذلك لم يكن دائمًا. في عام 1891 اختفى من حياتي صديقي (شيرلوك هولمز)، أفضل رجل عرفته في حياتي وأكثرهم حكمة. اعتقدت أنه سقط في سيل شلالات (ريتشيناخ)، في صراع مميت مع البروفيسور (جيمس موريارتي). علمت لاحقًا أن هذا لم يكن ما حدث. مات (موريارتي)، لكن (هولمز) نجا من نفس المصير وغاب عن الحياة العامة بإرادته خلال السنوات الثلاثة التالية. لم أكن أعلم شيئًا عن هروبه المذهل، وعندما عاد في النهاية إلى لندن بعد فترة من السفر في قارة أوروبا وخارجها عاد إلى حياته المنعزلة. شعرت بسعادة غامرة لرؤيته، لدرجة أن أي استياء اشتعل في صدري بسبب خداعه لي تبخر في فرحة لم الشمل.

في غضون فترة قصيرة من ظهوره مرة أخرى عدت برفقته إلى شقتنا في شارع بيكر، وخاصة لموقعي على كرسيّ ذي المساند بجوار نار المدفأة مقابلاً لصديقي.

«إنها مثل الأيام الخوالي»، قالها (هولمز) في إحدى الأمسيات بعد فترة وجيزة من عودتي إلى مستقري، بينما كان يعزف على أوتار كمانه.

أومأت برأسي وابتسمت له ابتسامة قصيرة. لكن في الحقيقة لم يكن الأمر قط مثل الأيام الخوالي. لقد تعرض كلانا لأضرار طفيفة، أصبحنا رجلين مختلفين عن هذين الزميلين الشابين اللذين تشاركا الشقة منذ عدة سنوات. من المؤكد أن الحياة أثرت عليّ. لقد أحببت وخسرت. سيكون هناك دائماً ركن مظلم فارغ في حياتي من الآن فصاعداً. في لحظات الشرود التي تصيبني على حين غرة أجد عقلي يستعيد أيامي مع (ماري)؛ مغازلاتنا، زواجنا، وتلك الأمسيات الهادئة معاً. كل هذا انتهى دون رجعة.

في كثير من الأحيان حين أرى أي سيدة في الشارع مع أطفالها أشعر بألم جسدي من الأسف والشوق. بالطبع لن أكشف أبداً عن هذه المشاعر لـ(شيرلوك هولمز). كان لديه القليل من الوقت للعاطفة، أما بالنسبة لعالم السعادة الأسرية فكان غريباً عنه ولم يهتم إلا بالعقلانيات والمنطق.

كانت هذه أفكارى ومشاعري السرية، لأنني واثق من أن (هولمز) كان لديه أفكاره ومشاعره الخاصة. لقد عانى صديقي أيضًا من سهام الحظ وأمواجه المتقلبة، كما أن نجاته الأخيرة من الموت بأعجوبة قد أعطته فكرة أن فناءه قد يكون وشيكًا، وهذا بسبب عمله. كان لا يزال هو الصديق الغامض الذي قابلته لأول مرة، المفكر والمحقق اللامع، لكنه من ناحية ما كان أيضًا رجلًا حزينًا... مثل الأيام الخوالي؟ من نواح كثيرة، نعم. المظهر الخارجي يوحي بهذا على الأقل. لكن من نواحٍ خفية أخرى، لا. لقد أخذتنا الحياة.

لقد قاومت منذ فترة طويلة سرد التفاصيل المظلمة والدرامية لقضية اختطاف (تيمبل) لأسباب عديدة. بعضها سياسي، لكن بشكل رئيسي لأنه ينطوي على خسارة طفل، وهو أمر كان له تأثير قوي عليّ عاطفيًا. يجب أن أعترف أنني لست واثقًا من أنني أعرف لماذا قررت البوح بذلك الآن، إلا إذا كان لتخفيف القلق الذي أشعر به عندما أتذكر هذا التحقيق، وأن وضع التفاصيل على الورق سيكون نوعًا من الراحة. من يستطيع الجزم؟

كان يومًا غزير المطر في شهر مارس من عام 1895، وقد هطلت الأمطار العاصفة. مع اقتراب المساء لم تعطِ السماء الرمادية أي بشرى عن توقف العاصفة في أي وقت قريب. كنت قد عدت إلى شارع بيكر بعد أن أمضيت فترة ما بعد الظهر في عملي. كنت أنوي لعب البلياردو مع شريكي المعتاد (ثورستون)، لكنه لم يكن متواجدًا هذا اليوم. بعد تناول وجبة غداء خفيفة عدت إلى غرفة القراءة لأتصفح أوراق العمل، مما سمح للملل بالسيطرة على تفكيري. كنت سأعود إلى المنزل لولا المطر الذي استوقفني، لذلك لجأت بدلًا من انتظار هدوء العاصفة إلى الراحة والهدوء التي ستوفرها عربة أجرة.

عندما دخلت غرفة الجلوس خلعت معطفي المبلل بماء المطر، ورأيت أن (هولمز) كان لديه زائر، شاب بملابس داكنة، يجلس أمام صديقي على كرسي بمسندين. كان يميل إلى الأمام تقريبًا في حالة تضرع، واندهشت حين بدا وكأنه يبكي. كانت عيناه مترقرقتين بالدموع وخداه محتقنان بالدماء. مع دخولي إلى الغرفة، واقتحامي لها، أشاح بوجهه بعيدًا عني.

قال (هولمز) بخفة: «ها هو صديقي وشريكي الدكتور (واطسون). أرى أنه قد عاد من عمله مبكرًا دون الاستمتاع بلعبة البلياردو المعتادة».

T t.me/tea_sugar

« كيف عر... ». توقفت عن نطق جملي وابتسمت ساخرًا. لقد اعتدت مع الوقت على هذا النوع من الدقة العجيبة في كلامه، لكن ذلك لم يمنعني من أن أتفاجأ بدقة استنتاج (هولمز) من حين لآخر.

« لا أثر لطباشير البلياردو على كمك كما هو معتاد، ولا توجد علامات بالقلم الرصاص على كُمِّك المنثيين حيث تجري حساباتك بالنتيجة ». قالها (هولمز) وهو يجيب على سؤالي المبتور، ثم أشار لزائرنا وهو يقول: « اسمح لي أن أعرفك على السيد (رونالد تيمبل)، الذي أحضر لغزًا صغيرًا إلى بابنا لكي نحله ». يبدو أن (هولمز) لم يتأثر بمحنة الضيف، فقد التفت إليه بابتسامة باردة وهو يكمل: « الدكتور (واطسون) يساعدي بشكل لا يقدر بثمن في تحقيقاتي. أود أن يسمع قصتك أيضًا. أعتقد أنه لا مشكلة في هذا ».

لم يبدُ (رونالد تيمبل) قادرًا على الرد، فأومأ برأسه فحسب دون أن ينطق. نظر إليَّ (هولمز)، وكشف تعبير وجهه أنه أدرك كم كان فظًا وعمليًا أكثر من اللازم في معاملته لعمليتنا. « أعتقد أن السيد (تيمبل) قد يتمكن من إعادة سرد قصته الحزينة مرة أخرى مع بعض من شراب الـ(براندي). هلا تفضلت بهذا يا (واطسون)؟ ». «

دون كلمة واحدة صبيت البراندي للسيد (تيمبل) ووضعت الكوب بين أصابعه المتوترة. لقد أدهشتني كم كانت شاحبة اللون وباردة الملمس. في الواقع كان هذا الرجل جمادًا وغير مستجيب لأي عامل خارجي، لدرجة أنه بدا في حالة من الغيبوبة. كان طويل القامة، حسن المظهر، في منتصف الثلاثينيات من عمره، يتمتع بملامح قوية وذكية. كان شعره الأشقر الأنيق مدهونًا بمرهم عطري، يلمع في ضوء نار المدفأة مثل الهالة الاصطناعية. كانت ملابسه، على الرغم من تجعدها إلى حد ما، أنيقة التصميم وباهظة الثمن. كشفت الهالات السوداء تحت عينيه عن عدة ليالٍ بلا نوم. مهما كانت المشكلة التي جلبها إلى باب (شيرلوك هولمز) فإن ملامحه تعكس الألم الغارق فيه.

قال (هولمز): «احتسِ مشروبك، سوف يساعد على تخفيف توترك».

فعل السيد (تيمبل) ما قيل له كطفلٍ مطيع. جلست أنا على كرسي وانتظرت.

قال (هولمز) بلطف: «الآن، هلا سردت حكايتك مرة أخرى يا سيد (تيمبل)».

انتظرنا بضع لحظات حتى يستجيب زائرنا لطلب (هولمز). بدا مشتتًا ومثقلًا بعبء روعي جاثم على صدره، لكنه تحدث

أخيراً. خرجت الكلمات من بين شفثيه على هيئة همس أجش،
لا يحتوي على أيّ مشاعر أو عاطفة، على نقيض وجهه التعس.
«لقد سلب منا. (ويليام). لقد اختطف. سرق منا».
قال صديقي بلطف: «و(ويليام) هو...».
«ابني (ويليام). يبلغ من العمر ثماني سنوات. لقد اختطف.
سلب مني».

سألته أنا بلطف: «الشرطة لديها علم بهذا؟».
أوما برأسه ولأول مرة يلتفت إليّ - كما لو أنه قد أدرك وجودي
للتو - وهو يكمل: «لم يعثروا على شيء. إنهم تائهون. تماماً
مثلنا».

انحنى (هولمز) إلى الأمام وخاطب (تيمبل) بطريقة هادئة:
«من فضلك يا سيد (تيمبل)، أطلعنا على ملابس الأمر
وكن دقيقاً فيما يتعلق بالتفاصيل. نحتاج إلى معرفة قصتك
بالكامل قبل أن نتمكن من تقييم الوضع».

أخذ (تيمبل) رشفة من البراندي وبدأ يسرد الحكاية:
«أنا سمسار للأوراق المالية في المدينة، لا أعلم إن كان لي
الحق في قول هذا عن نفسي لكنني ناجح للغاية في مهنتي. ونتيجة
لذلك أعيش حياة مرفهة للغاية مع منزل لطيف في (كريكل
وود). أنا متزوج من حبيبة طفولتي (شارلوت) ونعمنا بأسعد
الزيجات. زادت سعادتنا عندما وُلد ابنا (ويليام) قبل ثماني

سنوات. إنه صبي ذكي ومتفوق و...». توقف (تيمبل) مؤقتًا حين بلغ هذا الجزء من الحكاية، وصوته يتهدج، ثم أطرق بنظره. بقيت أنا و(هولمز) صامتين وانتظرنا أن يستعيد رباطة جأشه، وهذا ما فعله بعد رشفة أخرى من البراندي.

«منذ ستة أيام، سافر إلى المدينة مع زوجتي ومربيته السيدة (سوزان جوردون)، وهي سيدة أرملة عملت بهذه الوظيفة منذ أن كان (ويليام) رضيعًا. لقد زاروا متحف التاريخ الطبيعي - ف(ويليام) مفتون حاليًا بالديناصورات - ثم ذهبوا في نزهة إلى حدائق (كينسينغتون). ساروا بمحاذاة البحيرة، واندفع (ويليام) إلى الأمام كما يفعل الأولاد الصغار. للحظة وجيزة غاب عن ناظرِي (شارلوت) والسيدة (جوردون) وسط الحشد.. في البداية لم تكونا قلقتين. ف(ويليام) فتى مهذب وكاننا نعرفان أنه سيعود إليهما في الوقت المناسب. وبعد ذلك... وبعد ذلك...». هز (تيمبل) رأسه كما لو كان في حالة إنكار لما حدث، ولا يرغب في الكشف عن الجزء التالي من روايته.

«وبعد ذلك، رأيتا (ويليام) بصحبة رجلين، يمسكانه بقوة من ذراعيه، ويسحبانه بعيدًا عن البحيرة باتجاه مدخل الحديقة. بدا (ويليام) خائفًا وبدا أنه يكافح من أجل التحرر من قبضتيهما، لكن دون جدوى، فقد كان المتوحشان يحكمان قبضتيهما عليه. كانت زوجتي والسيدة (جوردون) متجمدتين للحظات من

الصدمة والرعب مما رأيتاه، وبعد ذلك عندما استعادتا إدراكهما لما يحدث حولهما، أسرعتا بالمطاردة... لقد أعاقتهما الحشود عن اللحاق بالرجلين، حتى اصطدمت امرأة تدفع عربة تجول بـ(شارلوت)، فهوت أرضاً متعثرة. عندما نهضت من سقطتها لتستأنف المطاردة، كان (ويليام) والرجلان... قد اختفوا... تبخروا... لم يكن هناك أي أثر لهم في أي مكان. لقد اختطفوا الصبي المسكين منا».

بعد أن نطق كلماته الأخيرة تراجع إلى الخلف في كرسيه، كان لذكرى هذا الحادث المؤلم أثر واضح على ملامحه الشاحبة. بعد صمت طويل قال (هولمز): «ماذا حدث بعد ذلك؟».

«اتصلنا بالشرطة وشرعوا في البحث عن الصبي، لكن لم يعثروا على شيء».

يبدو أنهم في حيرة من أمرهم فيما يجب عليهم فعله في مثل هذا الموقف، غير الانتظار لمعرفة ما إذا كان الصبي سيظهر مرة أخرى أم لا. ولكن هذا الأمر غير محتمل.

سألته: «هل كانت هناك مطالبة بفدية؟».

هز (تيمبل) رأسه وقال: «لم نسمع بأي شيء».

طرق (هولمز) أصابعه وحدق مباشرة إلى (تيمبل) سائلاً: «هل يمكنك التفكير في أي سبب لاختطاف ابنك؟».

«على الإطلاق... إنه مجرد طفل صغير عادي. أنا في وضع مريح اجتماعيًا لكنني لست ثريًا».

«ماذا عن الرجلين اللذين اختطفا (ويليام)؟ هل يمكن أن تصفهما زوجتك؟».

«بعبارات مبهمة فحسب. لم تبصر وجهيهما قط، فهي لم ترهما سوى من الجانب. كانا رجلين طويلي القامة، مفتولي العضلات، ربما في منتصف العمر، ويرتديان ملابس داكنة.. نحن ضائعون يا سيد (هولمز). لقد جئت إليك في حالة يأس مطلق... هل يمكنك أن تجد ولدي؟ هل تستطيع إعادته إلينا؟».

بدت ملامح (هولمز) - المضاءة بالنار - متجهمة حين أجاب: «لا أعرف، سيكون خطأً مني أن أعطيك أملاً كاذبًا، فلا يوجد الكثير من المعلومات في هذه القضية؛ غريبان قد اختطفا ابنك قبل أن يختفيا. يبدو لي أنه لا يوجد دافع سوى أن يكون هناك طفلٌ بحوذتهم».

«ها نحن ضائعون، ضائعون مرة أخرى».

مرر (تيمبل) أصابعه على جبينه بطريقة مشتتة، وعيناه تترقرقان بالدموع من جديد.

قال (هولمز): «ليس تمامًا، على ما أظن. في الواقع، الأمل هو كل ما يمكنني تقديمه لك في الوقت الحاضر. لكن احذر، فهو مجرد أمل ضئيل. أنا لا أحتاج سوى خيط رفيع في القضية

حتى أتمكن من حلها. ولكن يجب أن يوجد هذا الخيط أولاً. سوف أنظر في قضيتك وأرى ما يمكنني فعله».

تهللت أسارير زائرنا لسماع هذا، وظهر على ملامحه لفترة وجيزة شبح ابتسامة وهو يتمتم: «بارك الله فيك يا سيدي. بارك الله فيك».

«من فضلك تذكر أنني لا أستطيع أن أعدك بمعجزات. لا يمكن للمرء أن يصنع الطوب بدون الطين. من الضروري أن أحصل على أكبر قدر ممكن من المعلومات حول حادث الاختطاف. لذلك فإن أول شيء يجب أن نفعله هو مرافقتك إلى منزلك حتى أتمكن من التحدث مع زوجتك والمربية السيدة (جوردون)، نظرًا لأنهما كانتا الشاهديتين الرئيسيتين على هذه المأساة، فإن ما ستقولانه قد يكون ذا فائدة كبيرة لي».

كان الصمت يخيم على رحلتنا إلى (كريكل وود) في عربة الأجرة التي تجرها الخيول، كل واحد منا كان شاردًا في أفكاره الخاصة. لا شك أن (هولمز) كان يوازن الأدلة الضئيلة في ذهنه ويفكر في السيناريوهات المختلفة التي يمكن أن تنتج عن تلك الأدلة. كان عاقداً حاجبيه وعيناه الفولاذيتان شاردتان بعيداً في الأفق، لكنه كان يضم شفثيه الرفيعتين وقد مط شفثه السفلى

بعض الشيء، مما أوضح لي عدم ارتياحه بشكل عام. كان (تيمبل) على النقيض منه، فقد كان وجهه خاليًا من المشاعر. من الواضح أنه كان مرهقًا وأن التوتر الناتج عن تذكره للأحداث قد استنزف كل مشاعره وفكره في الوقت الحالي.

كانت (سيدار لودج) عبارة عن فيلا جورجية أنيقة تقع في أراضيها الخاصة، أوقف السائق العربية بمحاذاة رصيف تظله الأشجار. فتحت لنا الباب امرأة أرسقراطية طويلة القامة ذات ملامح قوية، بدا بوضوح أن شعرها المصبوغ بلون القش مسحوب إلى الراء على هيئة كعكة منظمة. استقبلت المرأة (تيمبل) بقبلة مهذبة على خده.

«هذه شقيقة زوجتي، (هيلدا بينيت). أقدم لك السيد (هولمز) والدكتور (واطسون)».

تصافحنا وتبادلنا الإيماءات الصامتة.

قالت الأنسة (بينيت): «(شارلوت) تستريح في غرفة قصيرة، سأخبرها بأنك عدت».

أوماً (تيمبل) برأسه قائلاً: «افعلي هذا من فضلك، فالسيد (هولمز) يود التحدث معها».

أومات إيماءة قصيرة، ثم سمعنا حفيف تنورتها وهي تختفي في ثنايا المنزل. اصطحبنا (تيمبل) إلى غرفة كبيرة وأنيقة الأثاث، بها نوافذ فرنسية تطل على العشب والشجيرات. ثم أشعل النيران في المدفأة.

قال (تيمبل): «من فضلكما اعتبرا المكان بيتكما أيها السيدان، سأعد بعض الشاي».

ثم تركنا بدون أن يضيف كلمة أخرى. كانت هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها أنا و(هولمز) بمفردنا منذ أن سمعنا قصة (تيمبل) المأساوية.

فقلت بهدوء: «حسنًا يا (هولمز)، ما رأيك في القضية؟». هز رأسه بحزن وهو يجيب: «إنها ميؤوس منها يا (واطسون)، ميؤوس منها للغاية».

الفصل الثاني

«الصغير المسكين. إنه لا يأكل على الإطلاق. سوف تتدهور حالته إذا استمر لفترة أطول على هذا الوضع».

مسحت المرأة أنفها بظهر يدها وهي تلقي الطبق في المغسلة. تردد صدى صوتها في جميع أنحاء الغرفة المتهالكة.

صاح زوجها بنوع من الغضب: «مهلاً، أيتها البقرة السخيفة، كان بإمكانني أكل هذا».

«لا يهم، فالجو بارد الآن».

قال الزوج: «هل لا يزال ...؟»، فأجابته الزوجة بإيماءة بالإيجاب قبل أن يكمل سؤاله.

سحب كرسيًا خشبيًا عن الطاولة ليقربه من النار، ثم قال وهو يجلس عليه: «سيتعود الشاب مع الوقت. خلال يومين آخرين أو ثلاثة سيكون جاهزًا لأكل فأر ميت، لا تنسي كلمتي هذه».

ضحكت المرأة ضحكة صاخبة وهي تقول ساخرة: «أود أن أراك تحاول إطعامه معي».

ابتسم الرجل مجيبًا: «ولم أحاول والجرذان متواجدة بكثرة؟». ثم ضحك بصوت مرتفع.

«يا لك من شيطان يا (بيرسي)». ابتسمت المرأة، وكشفت عن فم فقد معظم أسنانه.

«ربما أنا كذلك. لكن بالتأكيد أنا أفضل القيام ببعض الأعمال الشيطانية بدلاً من التحول إلى خادمة في الحضانة». «لن يستمر هذا الوضع لفترة أطول. على الأقل هذا ما قاله». «نعم، ربما». تفحص أنامله في شرود، عثر على سطحها على العديد من الزوائد اللحمية، المتسخة فوق يد ضخمة. شدهم بقبضته بعنف ولكم الهواء. ثم قال في قرارة نفسه «اشتقت للحلبة».

«أنت كبير في السن وبطيء للغاية بالنسبة لتلك اللعبة الآن». زفر في انزعاج من تهكمها. كان يعلم أنها على حق وهذا ما جعل الوضع أكثر إيلاماً. فرك جانب رأسه بشراسة فقد كانت كلماتها بمثابة قوة ألف لكمة على أذنه، ثم قال: «أحتاج لبعض البيرة». قبل أن ينهض من الكرسي ويتجه صوب الباب. «لا تتأخر ولا تعد في حالة سكر، لدينا مسؤوليات عدة يا (بيرسي) قد تلقينا مبلغاً سخياً من أجل إتمامها».

قال وهو ينتزع معطفه من موضعه: «حسناً، حسناً، سأكون ولدًا صالحًا». ثم قهقهه بمرح وهو يغادر.

جلست المرأة (آني غرايمز) لبعض الوقت بالقرب من المدفأة وهي تحدد إلى اللهب، وعقلها خالٍ من أي فكر، ثم تنهدت وهي

تنهض لهدف ما. حملت شمعدان مشتعلًا بين أناملها وهي تشق طريقها صعودًا على السلم المتهالك إلى الغرفة الأولى. فتحت الباب ونظرت بالداخل. كان هناك صبي متكوم على نفسه في المقعد الخشبي الذي كان بمثابة سريره، وبدا أنه نائم.

سألته (آني): «ألم تشعر بالجوع بعد؟».

لم يكن هناك رد.

فقال بنفاد صبر: «كما تشاء»، ثم أغلقت الباب وأحكمت قفله.

الفصل الثالث

من مذكرات د. (واطسون)

كانت (شارلوت تيمبل) امرأة في غاية الجمال في أوائل الثلاثينيات من عمرها. كانت أقصر من أختها وأكثر أنوثة منها وملاحظتها أكثر نعومة ولطفًا. كان من الواضح أنها وضعت بعض مساحيق التجميل لإخفاء الهالات السوداء تحت عينيها وويلات الليالي الطوال التي شوهدت جمالها. صافحتنا بلطف، وبدت حذرة بعض الشيء منا، ثم انضمت إلى زوجها على الأريكة. جلست أختها (هيلدا) منتصبة الظهر على كرسي بجانب نافذة غرفة المعيشة.

قال (هولمز) بتعاطف: «أعلم مدى صعوبة الوضع بالنسبة لك، لكنني لا أطلب منك أكثر من سرد أحداث اليوم الذي اختفى فيه ابنك بشكل تفصيلي. أي معلومة تافهة - من وجهة نظرك - قد تعطيني إرشادات ذات أهمية حيوية في قضيتنا. علينا أن نحاول». حين يرغب (هولمز) عادة في السعي وراء أدلة في

قضية ما يمكن أن تتحول شخصيته للود والإقناع بشكل ملحوظ مع الجنس الآخر. لقد كانت موهبة مكتسبة وليست أمرًا فطريًا. تملمت (شارلوت تيمبل) في جلستها على الأريكة كما لو كانت متوترة، لكنها ردت بوضوح وصراحة: «أنا أكثر من سعيدة لمراجعة الأحداث مرة أخرى إذا كانت هنالك فرصة - ولو متناهية الصغر - لمعرفة مكان ابني الصغير».

قال (هولمز) مبتسمًا: «حسنًا إذن، هذه الرحلة إلى لندن؛ هل تم التخطيط لها منذ فترة قبل موعدها؟».

«لقد كانت حفلة عيد ميلاده ولكن متأخرة، أصيب (ويليام) بنزلة برد شديدة في يوم عيد ميلاده، لذا كانت الاحتفالات صامتة إلى حد ما. لقد وعدته بهذه الرحلة عندما يشعر بتحسن. سافرنا نحن إلى المدينة في الصباح ثم...».

«من تقصدين بـ(نحن)؟».

«(ويليام)، وزوجي، والسيدة (جوردون) المربية. ذهب زوجي إلى عمله وزرنا نحن متحف التاريخ الطبيعي. كانت أوقاتًا مريحة وسعيدة للغاية».

«هل شعرت أن هناك من يتبعك، أو ربما رأيت أفرادًا معينين أكثر من مرة في مواقع مختلفة؟».

هزت (شارلوت تيمبل) رأسها مجيبة دون تردد: «لا، لا شيء من هذا القبيل».

«هل حدث أي شيء غير معتادٍ على أي نحو أثناء وجودك في المتحف؟»

«لا، لا يمكنني التذكر...».

«أي شيء مهمما كان بسيطاً؟».

فكرت السيدة (تيمبل) بعمق لبعض اللحظات قبل أن تجيب: «حسناً، لقد كدت أهوي على الأرض بسبب رجل مندفع لمغادرة المبنى. لقد اصطدم بي عندما كان يندفع في عجلة من أمره، وأزاحني جانباً بعنف. للحظة كنت أخشى أن أفقد توازني لكنني حافظت على جسدي مستقيماً دون أن أسقط. تمتم الرجل معتذراً عن عنفه دون توقف وهو يغادر.»

«هل يمكنك وصفه؟»

أغمضت عينيها كأنها تحاول استحضار صورة هذا الرجل في ذهنها، ثم تابعت: «حدث كل هذا بسرعة كبيرة ولم أشغل بالي بتذكر الأمر. كان شاباً، ذا شعر داكن وطويل. أوه تذكرت شيئاً، كان يحمل عصا فضية الرأس.»

أوماً (هولمز) برأسه قائلاً: «أشكرك على سعة صدرك. ماذا حدث بعد زيارتك للمتحف؟».

«مشينا إلى حدائق (كينسينغتون). كانت خطتنا لليوم هي التنزه قليلاً على ضوء الشمس، ومشاهدة القوارب الصغيرة في بحيرة (روند بوند)، ثم اصطحاب (ويليام) لتناول غداء متأخر

في مطعم بالقرب من مكان عمل زوجي، الذي كان من المقرر أن ينضم إلينا هناك».

«الرجلان اللذان رأيتهما وهما يختطفان (ويليام) ويرحلان به بعيداً، هل لاحظتهما قبل الاختطاف؟ هل كانا يتسكعان في مكان قريب ربما؟».

«هذا سؤال يلح عليّ باستمرار يا سيد (هولمز). لا أستطيع أن أكون واثقة من إجابتي. أحياناً يقول عقلي إنني رأيتهما بالفعل، وفي أحيانٍ أخرى، أعتقد أنني أخدع نفسي وأتوهم ليس أكثر». «فهمت. الآن من فضلك صفي لي بالتفصيل الدقيق ما حدث عند اختطاف (ويليام)».

شبكت (شارلوت تيمبل) يدها بيد زوجها بقوة ثم أخذت نفساً عميقاً قبل أن ترد: «كان (ويليام) مفتوناً بأحد القوارب الموجودة في البركة، وهو مركب شراعي صغير أبيض الصواري. اندفع المركب على طول ضفة الماء، ونتيجة لذلك، دفعه حماسه لأن يسبقني أنا والسيدة (جوردون) ليتتبع المركب ثم... بعد ذلك...». تعثرت الكلمات في حلقها للحظات، لكنها استأنفت روايتها: «اختفى عن أعيننا، تائهاً في الزحام على ضفة البركة. في البداية لم نشعر بأي ذعر من أي نوع، ولكن عندما أسرعنا للحاق به أدركنا أننا لا نستطيع رؤيته أيضاً، ولم يكن لدينا أي فكرة عن مكانه. كانت هناك حشود هائلة في ذلك اليوم وكان من السهل

حقًا أن تضيع وسط الزحام. بدأنا ننادي باسمه، وبعد ذلك عندما اخترقنا حشدًا من الناس، رأينا من بعيد رجلين يأخذان (ويليام) معهما. كانا يجرانه قسرًا بسرعة مغادرين الحديقة».

«كيف كانا يبدوان هذان الرجلان؟».

«مرة أخرى، ليس بوسعي إلا منحكم أبسط التفاصيل. كل ما بمقدوري الجزم به هو أنهما كانا طويلين وعنيفين، ليسا من السادة المحترمين، هذا كل شيء، أنا حقًا خائفة».

«ماذا حدث بعد ذلك؟».

«هرولنا وراء هذين الرجلين، ننادي ونصيح، لكن الحشد لم يبالِ بصرخاتنا، بل أعاقونا عن التقدم أكثر فأكثر، ثم ظهرت تلك المرأة بعربة الأطفال فجأة كما لو أنها نبتت من العدم، وعرقلتي، فهويت على الأرض لفترة وجيزة».

«هذه المرأة، كيف كانت تبدو هي الأخرى؟».

«حسنًا، أفترض أنها لم تكن والدة الطفل بالعربة لأنها بدت كبيرة السن على الإنجاب، لا بد أنها المريية أو شيء من هذا القبيل. امرأة خشنة المظهر، ترتدي ملابس رثة إلى حد ما. بالتأكيد لن أرغب في تعيين امرأة بهذا المظهر لكي تكون مسئولة عن أي طفل لي».

«هل رأيت الطفل بالعربة؟».

بدت (شارلوت تيمبل) مندهشة من هذا السؤال، وقد عقدت حاجبيها من أثر المفاجأة.

«حسنًا، لا أظن هذا، فقد كان غطاء عربة الأطفال مرفوعًا. هل يعقل أنها كانت تدفع عربة فارغة؟».

تابع (هولمز): «هذا احتمال وارد إلى حد كبير. ماذا قالت هذه المرأة بعد الحادث؟ هل اعتذرت؟».

«لا، لم تفعل. قالت لي إن عليَّ أن أنتبه لخطواتي وأن أبتعد عن طريقها».

«يا لها من امرأة مهذبة».

«لم ألاحظ سوء أخلاقها حينها. كنت شاردة في أمر اللحاق بالرجلين اللذين اختطفا ابني، ولكن حين استأنفنا مطاردتنا، كان الأوان قد فات. لقد اختفيا».

أخذت السيدة (تيمبل) نفسا عميقًا، وهي تخفض رأسها كما لو أن إعادة سرد هذه التفاصيل المروعة سلبها كل طاقتها. كان قلبي متعاطفًا مع تلك الروح المسكينة المنكوبة.

«لماذا اختطفاه يا سيد (هولمز)، أي سبب قد يكون دافعهما؟». كان هذا السؤال نابغًا من (هيلدا بينيت).

«هناك عدة أسباب محتملة، ولكن من غير المجدي مناقشتها بالتفصيل الآن حتى نحصل على المزيد من المعلومات حول

الحادث. ومع ذلك يبدو أن طلب الفدية لإطلاق سراح الطفل ليس سببًا منها. ألم يكن هناك اتصال من الخاطفين؟».

هزت السيدة (تيمبل) رأسها بالنفي في صمت.

«هل لديك صورة لابنك؟ سوف يساعدنا هذا كثيرًا في تحقيقنا».

أومأت السيدة (تيمبل) بالإيجاب وهي تقول: «سأحضر واحدة لك. ربما يجب أن تعرف أيضًا أن (ويليام) لديه وحة على كتفه». أشارت إلى موقع معين على جسدها وهي تستطرد: «إنه على شكل مثلث أو هرم. إنه مميز للغاية على أي حال».

دوّن (هولمز) هذا في دفتر ملاحظاته مجيبًا: «ممتاز. إنها معلومة مفيدة بحق، والآن هل يمكنني التحدث مع السيدة (جوردون)؟».

قال السيد (تيمبل) هذه المرة بصوت هس مليء بالإحباط والإرهاق معًا: «لن تخبرك بأكثر مما قالته زوجتي دون أن تضيف شيئًا».

أجاب (هولمز) بلطف: «معدرةً لكنني مصرٌّ على هذا».

كانت السيدة (سوزان جوردون) تحمل طابع سيدات المنزل المخلصات وأخلاقهن. سيدة في أوائل الستينيات من عمرها - على ما أظن - تعطي انطباعاً بالراحة في التعامل وأنها شخص مسؤول. لقد قابلناها بمفردها في غرفتها الخاصة، وقد ذكرت بالفعل نفس الرواية عن الاختطاف مثل السيدة (تيمبل) دون أي جديد، لكن (هولمز) أصر على استجوابها أكثر.

قال بشيء من الحماس: «هذه العينات الرائعة من الأعمال المطرزة التي أراها حولي، هي صناعتك على ما أظن». ابتسمت السيدة، مجيبة على مجاملة (هولمز): «نعم، بالفعل هي كذلك».

«إنها رائعة. لديك عيان حادثا النظر لصناعة الملابس بمثل هذه التفاصيل الدقيقة».

أجابت بتواضع: «أعتقد ذلك». «أريدك الآن أن تستحضري لي هاتين العينين الثابنتين، لوصف الرجلين اللذين اختطفا السيد (ويليام) الصغير». «رباه، لقد حدث الأمر بسرعة كبيرة، ولم أجد فرصة لملاحظة الكثير من التفاصيل».

«لا أريد الكثير، أريد منك أي شيء قد تتذكرينه». ترددت للحظة وهي تعقد حاجبها علامة على محاولة التذكر، ثم قالت: «أعتقد أنه يمكنني تذكر شيء ما».

«عودي بذاكرتك إلى ليلة الحادث، شكلي الصورة في عقلك كما لو أنك تشاهدينها للمرة الأولى، اعتصري ذهنك، لقد عدت إلى حدائق (كينسينغتون)؛ هناك أناس في كل مكان من حولك، (ويليام) ترينه أمامك، يركض بجانب حافة البحيرة...»

أجابت السيدة (جوردون) بلهفة «أجل... أجل، أتذكر». كان جسم المرأة منتصبًا ونظراتها شاخصة، شاردة عنا.

فأكمل (هولمز)، وهو يميل نحو المرأة: «الآن، ترين الرجلين، طويلي القامة و...».

«كان أحدهما أطول من الآخر. الأقصر كان بدينًا بعض الشيء ولديه شعر ناعم يبرز من أسفل قبعته الرياضية».

«قبعة رياضية وليست رسمية؟».

«أجل، قبعة رياضية مستديرة، بدت كما لو أنها قشرة الجلد التي تعلقو فطيرة لحم الضأن».

«حسنًا، ماذا تتذكرين أيضًا؟ ماذا عن ملامحه؟».

«رأيت من جانبه فقط، ليس وجهًا لوجه. لم يكن هناك الكثير لأميزه».

«وجه حليق على سبيل المثال؟».

ترددت السيدة (جوردون) لوهلة، ثم قالت: «تذكرت، كان لديه شارب كبير، من النوع الضخم الذي يتدلى فوق الشفة. ماذا نسمة يا ترى؟».

«شارب كث».

«هذا هو».

«كم عمر هذا الرجل من وجهة نظرك؟».

«من الصعب الجزم. كان ذا شعر رمادي، ربما في مطلع الأربعينيات من عمره، أو في أواخرها».

«وماذا عن ملابسه؟».

فكرت السيدة (جوردون) للحظة، ثم ابتسمت مجيبة: «لقد تذكرت الآن، أعتقد أنه كان يرتدي بنطالاً كاروهات».

صوب لي (هولمز) نظرة راضية كما لو أنه سعيد بهذا الكم الذي خرج به من المعلومات: «وماذا عن رفيقه؟ الشخص الأطول قامة».

«رباه، لقد كان همجياً قبيحاً؛ ملامحه غليظة، وأنفه كبير أشبه بالبصلة، وجلده مجعد، وإحدى أذنيه في جانب رأسه قد بدت مشوهة بطريقة ما». ارتجفت المرأة من الفكرة بعدما أنهت عبارتها.

صفق (هولمز) بسرور وقال: «ممتاز».

ابتسمت السيدة (جوردون) بلطف متابعة: «لم أكن أعتقد أنني سأتذكر الكثير، أو أن هذه المعلومات مفيدة من الأساس».

«العقل يستوعب الكثير من البيانات لا شعوريًا، كل ما في الأمر أننا بحاجة إلى مزيد من العوامل المحفزة لاستعادتها، لقد أبليتِ حسنًا».

«هل سيساعدك ما قلته لك؟»

«آمل ذلك. آمل ذلك حقًا».

بعد حوالي عشر دقائق كنا نستقل عربتنا، مبتعدين عن منزل السيد والسيدة (تيمبل). حصل (هولمز) على صورة للصبي المفقود وأكد لهما أنه سيبدل أقصى ما بوسعه لاكتشاف مكان اختطاف ابنهما.

في رحلة العودة إلى شارع بيكر، لم يتفوه (هولمز) إلا بكلمات قليلة. جلس مسترخيًا وهو يسند ظهره إلى مقعد العربة وذقنه مسترخيًا على صدره. كنت أعني أنه - في لحظات كتلك - ليس هناك جدوى من محاولة إشراك صديقي في أي نوع من المحادثات. أدرك أنه يفكر بعمق في القضية وأنه لا يكاد يعي ما يدور حوله، ولم يكن لدي أي نية لمقاطعة استغراقه في التفكير. لم يكن الوقت قد تأخر بعد هذا المساء حين جلسنا بجانب المدفأة بعد عودتنا للمنزل، ونحن نحتسي كأسًا ليليًا أخيرًا، فرحت أسأله عن القضية البائسة التي استدعوه لحلها الليلة.

«هل كونت أي فرضيات بخصوص القضية؟». سألته بطريقة ودية قدر الإمكان تحاشيًا لقطع تركيزه.

ابتسم (هولمز) بسخرية مجيبيًا: «أنا محقق ولست ساحرًا. لا يمكنني استحضار حل من فراغ. أحتاج إلى معلومات، ملابس، أدلة. عندها فقط يمكنني أن أكون عمليًا أكثر».

«ألم يكن هنالك أي معلومة مفيدة خرجت بها اليوم؟».

ضم (هولمز) شفثيه، مجيبيًا: «القليل فحسب. لا شك أن الخاطفين من نوعية الشباب الرياضيين. فالقبة الرياضية المستديرة والسراويل الكاروهات أدلة لا يستهان بها، أما الرجل الوحشي ذو الأنف المنتفخ والأذن المشوهة هو ملاكم على الأرجح، أو ربما كان ملاكمًا سابقًا، حيث يستأجره البعض الآن في أنشطة سائنة مثل الاختطاف. وأنا أعني كل حرف من كلمة (يستأجره) تلك، لأنه من الواضح لي أن هناك من استأجر هذين الرجلين من أجل تلك المهمة. هذان الرجلان ليسا محترفين في جرائم مثل الاختطاف، بل هما مجرد تابعين ينفذان الأوامر، ويقودهما شخص ما. هناك شيء مظلم وخطير في هذه القضية، أنا موقن من هذا. إن الأمر أكبر بكثير من مجرد عملية اختطاف، وهذا ما يزعجني». حدق (هولمز) إلى النيران المحترقة بالمدفأة وتهد خاتمًا الحوار.

نزلت لتناول الإفطار في الصباح التالي في وقت مبكر من اليوم، لكن (هولمز) كان مستيقظًا بالفعل ووجدته على الطاولة يفحص صورة الشاب الصغير (ويليام تيمبل) التي أعطتها لنا والدته. بمجرد أن جلست بجانب صديقي على الطاولة، نقل نظره إليّ سائلًا: «هل لاحظت أي شيء غريب في هذه الصورة؟».

لقد نظرت إليها في الأمس ولم ألحظ شيئًا يمكن اعتباره غريبًا. من الواضح أنها قد التقطت في استوديو احترافي، ويظهر في الصورة صبي صغير يجلس على مقعد صغير يحدق ببساطة إلى الكاميرا. بدا وكأنه صبي لطيف بشعر مجعد داكن وعينين بريئتين واسعتين. لقد أمعنت النظر فيها مرة أخرى لبعض اللحظات، لكنني لم أستطع رؤية أي شيء قد يشير اهتمام (هولمز). أعدت إليه الصورة وأنا أهرز رأسي نافيًا.

قلت وأنا أمد يدي لقدح القهوة على الطاولة: «أخبرني أنت ما الغريب بها».

«ماذا لو أعطيتك تلميحًا؟». تلالأت عيناه بشكل عجيب. ابتسمت مجاملًا وأنا أجيب: «امتحان في هذا الوقت المبكر من الصباح! حسنًا، لا بأس، أطلعني على التلميح».

قال وهو يرفع الصورة لأعلى صوب نظري: «الشعر والأنف». نظرت مرة أخرى.

قلت: «ما زلت لا أرى شيئًا غريبًا».

«ارجع بذهنك لليلة الأمس بعض الشيء، خاصة وجوه كل من ذويه، تذكر ملامحهم النبيلة الأصيلة. يمتلك كل من الأم والأب أنفًا رفيعةً وذقنًا بارزًا وشعرًا خفيفًا مستقيمًا بلون القش تقريبًا. انظر الآن إلى الصبي، لديه ملامح وجه مستديرة وأنف سمين عريض وشعر مجعد داكن وعينان واسعتان. يجب أن يشبه الصبي أحد الوالدين على الأقل طبقًا لعلم الوراثة.»

«ماذا تقصد بحق السماء...؟». بالطبع كنت أعرف ما كان يعنيه صديقي، لكنني كنت أريد أن يؤكد ظنوني بكلماته.

«الصبي ليس ابنهما البيولوجي.»

نظرت مرة أخرى إلى الصورة. استطعت أن أرى ما يعنيه (هولمز)، إن الصبي بالفعل لا يشبه والديه في شيء على الإطلاق، لم يخطر هذا ببالي، لكن بعد أن أشار إليه (هولمز)، بدا الأمر واضحًا للغاية.

سألته: «ماذا يعني هذا بحق السماء؟».

«هذا يعني أنهم لم يخبرونا بالحقيقة كاملة، القصة لا تزال ناقصة. هناك الكثير مما لم يُكشف لنا بعد.»

هزرت رأسي سائلًا: «لماذا يفعلون ذلك؟ نحن هنا للمساعدة، فلم يبخلون علينا بالمعلومات؟».

«هذا ما أنوي اكتشافه.» ثم نهض ودفع كرسيه للخلف مكملًا: «أسرع في احتساء قهوتك يا (واطسون)، سنغادر إلى فيلا (سيدار لودج) في غضون خمس دقائق.»

الفصل الرابع

قال الرجل الطويل ذو القبعة الكبيرة اللامعة والعصا ذات المقبض الفضي، بينما كان يتكئ على إطار الباب: «إنك ترفض الأكل يا سيدي الصغير، أليس كذلك؟».

«أريد العودة إلى بيتي، أريد أن أرى والديّ»، قالها الصبي بصوت هادئ، لم يشوبه أي نوع من الخوف، لكن الرجل يكاد يجزم أنه قريب من البكاء رغم هذا الادعاء.

«أخشى أن هذا لن يكون ممكناً، ليس في الوقت الحالي على الأقل، لكن يجب عليك أن تحافظ على قوتك إذا كنت تريد رؤيتهما مرة أخرى. أنا واثق من أن والدتك لن تمنى لك أن تموت جوعاً بسبب عنادك هذا».

«فلتطلق سراحي».

قالت (آني غرايمز)، التي ظهرت من وراء الرجل الأنيق طويل القامة، كما لو أنها تخلي مسؤوليتها عن الأمر: «كما ترى يا سيدي، هذا الشقي الصغير لا ينصاع لأي أمر».

«آلام الجوع ستجبره على الطاعة يا سيدة (غرايمز). إذا أوشك على الموت فحينها قد نضطر إلى إطعامه بالقوة. لن

يعجبك ذلك يا فتى؟ فكر في الأمر وابدأ في الأكل بإرادتك». ابتسم الرجل بخبث وضحك.

بيطء أغلق الرجل الباب، ليغرق الصبي في الظلمة الرمادية للغرفة الخالية من النوافذ. كان يحرق بقلق إلى طبق اللحم المفروم البارد على الطاولة. على الرغم من أنه كان مغرباً نوعاً ما، لكن في ذات الوقت كان اللحم مثيراً للاشمئزاز بسبب مظهره المتجمد. قرر (ويليام) ألا يستسلم. كأنما يحاول أن يثبت ذلك لنفسه أكثر من آسريه، رفع الطبق وألقاه على الأرض، حتى لا يكون هنالك رجعة عن قراره.

وضع الرجل الطويل ذو العصا الفضية عملتين ذهبيتين بين أصابع (آني غرايمز) التي تشبه المخلب، وهو يتمتم: «لن يمر الكثير من الوقت حتى نأخذ الصبي بعيداً، أنا أنتظر أمر سيدي فحسب».

بالكاد سمعت السيدة (غرايمز) هذه الكلمات وهي تحرق بانبهار إلى العملتين الذهبيتين. قالت له وهي تضع المال في جيب مريلتها: «طوع أمرك يا سيدي».

الفصل الخامس

من مذكرات د. (واطسون)

بدأت (شارلوت تيمبل) في غاية الدهشة لرؤيتنا بعد وقت قصير من زيارتنا الأخيرة. صرخت بحماس وهي تركض صوب صديقي حين دلفنا لغرفة المعيشة: «هل لديك أخبار؟». هز (هولمز) رأسه بالنفي مجيباً: «للأسف لا، لن تحدث تطورات بهذه السرعة، لكنني أعتقد أن هناك ما يجب أن تقوله لي».

ارتفع حاجبا السيدة (تيمبل) بشكل مفاجئ وهي تجيب: «أخشى أنني لا أفهم مقصدك يا سيد (هولمز)». تنهد صديقي: «لا أريد أن أكون فظاً، لكنك لم تخبرينا بالحقيقة المطلقة ليلة أمس. قد تظنين أنها ليست معلومة مهمة لكنها تمثل لي جزءاً حيوياً من الأدلة. الصبي (ويليام) ليس ابنك الطبيعي، أليس كذلك؟».

شجبت ملامح (شارلوت تيمبل) وسقطت على الأريكة. بدت لبضع لحظات ضائعة بسبب الكلمات، في حيرة من أمرها، ثم نطقت أخيراً: «لا أفهم ماذا تقصد».

«أعتقد أنك تفهمين جيداً. لن أناقشك في سبب إخفاء هذه المعلومة عني، وبالطبع أنا لم أكن لأتطرق لها لو لم تكن ذات أهمية قصوى في قضيتنا. أعتقد أنه سيكون من الحكمة أن نخبرينا بالحقيقة كاملة هذه المرة».

«الحقيقة؟ آه من الحقيقة!» ثم أخرجت منديل دانتييل من كم ثوبها وراحت تجفف عينيها اللتين سالت الدموع منهما، ثم تابعت: «نحن لم نفكر في هذه الحقيقة أو نتحدث عنها لسنوات».

«حسناً، ربما قد آن أوان القيام بذلك الآن. بوسع تلك الحقيقة أن تنقذ حياة ابنك».

اتسعت عيون السيدة (تيمبل) وهي تسأل: «ماذا تقصد؟». «أفضل عدم مناقشة الفرضيات غير الكاملة في الوقت الحاضر. ليس قبل أن يكون بحوزتي الحقائق الكاملة عن القضية. والآن إن كنتِ لا تمانعين...».

تنهدت باستسلام، وهي تقول: «حسناً، أنت محق، (ويليام) ليس ابنا الحقيقي. لا أستطيع إنجاب أطفال من الأساس. لقد اكتشفنا هذا للأسف منذ عشر سنوات. لقد كانت صدمة هائلة

عليّ أنا وزوجي وكادت أن تدمر زواجنا. لقد كانت أوقات عصيبة مررنا بها، ثم علم (رونالد) بأن هناك مؤسسة في مكان ما يمكننا تبني طفل منها».

قال (هولمز) دون أن يحاول إخفاء نبرة النفور من صوته: «ملجأ المشردين!».

أومات السيدة (تيمبل) مجيبة: «ملجأ المشردين بالفعل. أعرف ما تفكر فيه؛ إن تلك الأماكن سيئة السمعة والمعاملة.»
«هذا أقل ما يقال عنها».

كان صديقي محققًا، فملجأ المشردين عبارة عن مؤسسات يأوون فيها الأطفال المنبوذين وغير الشرعيين. غالبًا ما تسيء هذه الأماكن معاملة الأطفال الرضع - أو حتى قتلهم في أحيانٍ أخرى - حين يُدْفَع لهم المال لفعل هذا. وأخيرًا يعرضون على الأزواج التعساء - الذين لم يتمكنوا من إنجاب أطفال بنفسهم - تبني بعض الأطفال. لكن الأمر بالكامل كان دنيئًا وغير قانوني.
«عندما يكون المرء يائسًا يا سيد (هولمز) يتشبث بأول قشة أمل يعثر عليها في طريقه، ونحن كنا بحاجة ماسة لإنجاب طفل، وكان أمامنا فرصة لإكمال عائلتنا الصغيرة».

«ليس من عملي أن أحكم عليك في هذا الأمر يا سيدتي، لهذا أعفيك من حرج التبرير».

ومضت عيناها بالغضب، فقالت وجسدها يتشنج: «أنت لست كذلك بالتأكيد يا سيدي. لكنك تفعل هذا في قرارة نفسك. لا يمكنك تقدير اليأس الذي يشعر به المرء عندما يتمنى طفلاً ولا يقدر على إنجابه. الأمر يقلب حياتك رأساً على عقب، فقد شعرنا أن أسرتنا غير مكتملة بدون طفل صغير نعتني به، وعندما تتاح لك الفرصة لتحقيق هذا الطموح، مهما كانت ملتوية وغير تقليدية، فكل ما تفعله هو أن تشكر حظك الجيد وتغتتم الفرصة. في الواقع، لقد أنقذنا صبيًا صغيرًا من مصير رهيب وأعطيناه منزلاً جيداً مليئاً بالمودة والرعاية. من يدري هل كان سينجو في الملجأ بدون مساعدتنا أم لا؟ في نظرنا، (ويليام) هو ابننا الحقيقي. رابطة المحبة بيننا قوية كالفلولاذ كما لو كنا والديه بالدم».

كانت (شارلوت تيمبل) تتحدث بشغف وعفوية حتى أن صديقي بدا متفاجئاً إلى حد ما من رد فعلها. أحنى رأسه في حرج متمماً: «أعتذر لأنني بدوت غير متفهم لمحتك. فالدكتور (واطسون) يمكنه أن يشهد على مناسبات عديدة فشلت فيها في التجاوب بشكل ملائم مع مواقف الآخرين. أفهم وأقدر كل ما قلته لي. أستمحك عذراً».

أومات السيدة (تيمبل) برأسها بإيجاز في دلالة على أنها قد
سامحته، فسألها (هولمز) بعد صمت قصير: «هل يعلم (ويليام)
أنه ابنكما بالتبني؟»

«لا، أخشى أنني وزوجي تحاشينا إخباره. في الحقيقة كنا
ممزقين بين الرغبة في إخباره بالحقيقة وبين كتمان الأمر، فقد
كان ابنا حقاً بشكل كامل دون أي مشاعر متشككة».

«سأحتاج إلى تفاصيل عن هذه المؤسسة، ملجأ المشردين
هذا».

«يا إلهي! لماذا؟»

«إنه المكان الذي بدأ فيه كل شيء وقد يقودنا إلى حيث
ينتهي كل شيء كذلك. أؤكد لك أن هذا الطلب ليس عبثياً».

للحظات لم تستجب السيدة (تيمبل) لطلب (هولمز)، ثم
نهضت من الأريكة بحركة سريعة في نهاية المطاف وهي تقول:
«كما تريد، إذا كنت تعتقد أن هذا مهم».

«هذا ما أعتقده».

«من فضلكما انتظرا هنا». بدون كلمة أخرى، غادرت الغرفة،
وتركتنا وحدنا.

استدار (هولمز) نحوي ووضع إصبعه على شفثيه علامة
على الصمت وهو يقول: «لا حاجة لأي لوم يا (واطسون).

أعلم أنني كنت... قاسياً بعض الشيء على المرأة، لكنني تداركت الموقف».

لم أقل شيئاً، لكنني أبعدت نظري عنه في إشارة إلى أن اعتذاره لم يكن كافياً. عادت السيدة (تيمبل) بعد بضع دقائق بورقة سلمتها لـ(هولمز) وهي تقول: «هذا هو عنوان المؤسسة. كانت السيدة (تشاندرلر) هي المسؤولة عن المكان، (جيرترود تشاندرلر)، لكن بالطبع كان ذلك قبل ثماني سنوات فلا أعلم إن كانت لا تزال بمنصبها أم تركته».

قال (هولمز) وهو يطوي الورقة ويضعها في جيبه: «شكراً لك».

«هيا بنا يا (واطسون)، انتهى عملنا هنا. لدينا عمل آخر لنقوم به. سأكون على اتصال في الوقت المناسب يا سيدة (تيمبل)، آمل حينها أن يكون لدينا أخبار سارة لك».

الفصل السادس

من مذكرات د. (واطسون)

T t.me/tea_sugar

عند عودتنا لعربة الأجرة، أعطى (هولمز) للسائق عنواناً في (كامبرويل). افترضت أنه عنوان ملجأ المشردين، فسألته بينما كنا نتأرجح داخل العربة: «ماذا تتوقع أن تعرف من هناك؟». أجاب (هولمز) في تعجرف: «الأمر واضح بالفعل». «ألا وهو؟»

«اسم الوالدين الحقيقيين للصبي أو على الأرجح اسم والدته فقط، فمن المحتمل أن يكون الصبي قد ولد خارج إطار الزواج، وأن الأم قد تخلت عنه بمجرد أن عرف الأب أنها تحمل في أحشائها طفلاً منه. هذا هو السيناريو الشائع والمتوقع.»

لقد كان تحليلاً كثيباً للأمر ولكنه واقعي. على الرغم من أنني لم أواجه مثل هذه الحالات أثناء مزاويتي الرصينة لمهنة الطب، فقد سمعت من العديد من الزملاء العاملين في مستشفى (سانت بارتس) ومستشفى (سانت توماس) بأن بعض النساء قد هجرهن

رجالهن حرصًا منهم على عدم تكوين أسرة. هنالك فكرة شائعة بين الناس تفترض أن الطفل عبء مالي غير ضروري يمكن الاستغناء عنه، فيضع هذا القرار الأم أمام معضلة رهيبية. تسعى بعضهن لإنهاء الحمل عن طريق التدخل الطبي؛ في حين تحاول بعض النساء الشجاعات تربية الطفل رغمًا عن أنوف الرجال وتلجأ بكل أسف إلى الدعارة لتأمين المصاريف الكافية لتربيته، والبعض يتملكهن حالة من اليأس القاتم، فيقتلن الرضيع بمجرد ولادته. وأخيرًا هنالك من تودع طفلها في مثل هذا النوع من المؤسسات التي كنا على وشك زيارتها. دارت هذه الأفكار في ذهني ونحن في طريقنا إلى (كامبرويل) وألقت بظلالها الكثيرة على روحي.

سافرنا جنوب النهر وفي النهاية توقفت عربة الأجرة خارج منطقة مملوكة لأحدهم في شارع (جون روسكين) قبالة طريق (والورث). بلغنا منزلًا كبيرًا تقليديًا في كل شيء، أعتقد أنه قد شهد أيامًا أفضل من هذه في الماضي حين كان مميزًا. كان مقامًا بعيدًا بعض الشيء عن الطريق، وكانت الحديقة الصغيرة في مقدمته مجرد شجيرات مليئة بالنباتات المهترئة والبالية، وقد تساقط الطلاء من على الأبواب والنوافذ الخارجية فما بالك بالداخلية، ويخيم على الأرجاء رائحة من البؤس والإهمال.

أمر (هولمز) سائق عربة الأجرة أن ينتظرنا حتى ننتهي من تلك الزيارة. تقدمنا صوب باب الملجأ، وقرعنا الباب باستخدام المطرقة الصداة المعلقة على حافته، للإعلان عن وجودنا. بعد لحظات، فتحت الباب فتاة رثة الهيئة، ترتدي ملابس بالية تمثل زي عاملة منزل. انحنت بطريقة آلية خرقاء وهي تسأل: «كيف يمكنني مساعدتكما أيها السيدان؟».

ابتسم (هولمز) بطريقة غير مألوفة، وهو يقول: «لدينا موعد عمل مع السيدة (تشاندرلر). من فضلك أبلغها بوصولنا». ثم تقدم (هولمز) متخطياً عتبة الدار، مما دفع الفتاة للتراجع إلى الردهة، بعد أن شعرت بالهيبة من صراحته وحضوره العفوي. تنحت الفتاة مرة أخرى جانباً وهي تهول عبر القاعة حتى ابتلعها الظلام. أصدر (هولمز) ضحكة مكتومة، وهو يتمتم: «إنها مجرد طفلة أخرى، لقد خافت من أدائي المفتعل».

بعد دقائق من الانتظار، ظهرت أمامنا امرأة نحيفة وطويلة، نحيلة الوجه، بعينين زرقاوين ثاقبتين كما لم أرَ من قبل، تعقد شعرها على هيئة كعكة صغيرة تؤكد على مكانتها العالية بهذا المكان. بدت لي في منتصف الأربعينيات من عمرها، لكنها قد تكون أكبر سنًا، وكانت ترتدي فستانًا طويلًا من الحرير الكهرماني، أعتقد أنه أكثر ملاءمة للأمسية، وليس للنهار الذي نحن به الآن.

«أنا السيدة (تشاندرلر). هل هناك عمل بيننا أيها السيدان؟». سألتنا المرأة بنبرة لطيفة ورسمية. ورغم أن كلامها لم يكن به أي إزعاج، إلا أنه من المستحيل عليّ أن أشعر بالاطمئنان لصاحبة هاتين العينين.

أجابها (هولمز): «نعم لدينا».

«إذن من الأفضل أن تفضلنا إلى مكنتي». وبدون كلمة أخرى، استدارت وعادت أدراجها من حيث ظهرت، بحفيف من فستانها، وهي تصطحبنا إلى باب بأسفل القاعة.

قالت وهي تفتح الباب مرحبة بنا: «تفضلنا أيها السيدان».

كانت الغرفة صغيرة وغير مرتبة. كان هناك مكتب، وطاولة صغيرة بها دورق فارغ وبعض الأكواب، وعدة كراسي ومزهرية ضخمة في الزاوية. طلبت منا أن نجلس بينما هي تقف خلف المكتب المليء بالأوراق، ثم سألتنا وهي متكئة على كرسيها: «هل لديكما طفل؟».

قال (هولمز) بحدة: «لا ليس لدينا».

رفعت حاجبيها في مفاجأة وقالت: «هل تريدان طفلاً؟».

هز (هولمز) رأسه مغيرًا الموضوع: «نحن هنا لنوع مختلف من العمل».

رمقتنا السيدة (تشاندرلر) بعينين متوترتين ومنزعجتين، فأكمل (هولمز): «اسمي (شيرلوك هولمز). أنا محقق خاص».

اتسعت عيناها وهي تكرر: «(شيرلوك هولمز)؟». كان من الواضح أنها سمعت عنه من قبل. ثم قالت متجهمّة: «ما الذي يمكن أن يريده محقق خاص مني بحق السماء؟». «من فضلك يا سيدتي، فلنتخلّ عن ادعاء السذاجة هذا مؤقتًا».

انزعجت السيدة (تشاندرلر) من عبارة صديقي الأخيرة، فانتصبت واقفة ثم انحنت للأمام قليلاً، وقالت بعينين شرستين صارمتين: «من فضلك حدد مرادك مني أيها السيد، فليس لدي وقت لأهدره».

«أنا هنا لمعرفة مكان واسم والدة طفل كان تحت رعايتك منذ حوالي ثماني سنوات، الطفل الذي تبناه كلٌّ من (رونالد) و(شارلوت تيمبل)».

«مستحيل». خرجت الكلمة من المرأة بشكل حاد كصفع باب بقوة في وجهينا.

«لا أريد شيئاً منك سوى هذه المعلومات التي أثق في قدرتك على تقديمها لنا. ومع ذلك، إذا راوغتِ أو ادعيتِ أن هنالك ما يمنعك من إخبارنا فيمكنني بسهولة تعريضك لطائلة القانون وتعريض... مؤسستك غير القانونية هذه. أوكد لك أن هذا ليس تهديداً من أي نوع، بل وسيلة لبلوغ مرادي ويسهل عليّ تنفيذه».

بمجرد أن انتهى (هولمز) من التلفظ بكلماته الحادة الحاسمة، حتى بدأت يدا السيدة (تشاندر) في الارتجاف وقد بدت مذهولة.

أكملت بعد أن استعادت رباطة جأشها على الفور: «لا أستطيع مساعدتك، فنحن لا نحتفظ بمثل هذه السجلات، وهذا لسبب بسيط، ألا وهو أن معظم النساء اللاتي يأتين إلينا لا يمنحننا أسماءهن الحقيقية أو أي تفاصيل أخرى عن حياتهن. إنهن لا يرغبن في أن يقتفي أحدٌ أثرهن بأي شكل وفي أي وقت».

«أنا واثق من أنك ستذكرين هذه الحالة بالذات. لقد أطلقت عائلة (تيمبل) اسم (ويليام) على الصبي الصغير، ولديه وحة تشبه الهرم».

بدا لي أن عيني المرأة قد لمعتا كما لو أنها تعرف ما نبحت عنه، لكنها قالت: «ثمانى سنوات وقت طويل. نحن نتولى مسؤولية العديد من الأطفال الذين يحملون مختلف أنواع الوحات والعلامات على أكتافهم ووجوههم وكل مكان بأجسامهم. حين تعمل بهذا المجال ستتعلم مع الوقت أن الأطفال جميعًا واحد بالنسبة لي أو أي شخص آخر». كانت ثقتها تتزايد وهي تتابع: «أخشى أنك تطارد مجهولًا يا سيد (هولمز)، وأنا غير قادرة على الاشتراك معك».

«غير قادرة أم غير راغبة؟».

«أنا مضطرة لأن أطلب منكما المغادرة الآن أيها السيدان،
فأنا منشغلة للغاية».

تحركت بخفة نحو الباب وفتحته. غادرنا بدون كلمة، ثم قال
(هولمز) بمجرد خروجنا من المبنى: «إنها تكذب».
«هذا هو رأيي أيضًا».

«هذا ليس رأي بل استنتاج، لقد أشارت المرأة بنفسها إلى أن
الوحمة على الكتف رغم أنني لم أذكر الكتف من الأساس، ثم
أضافت أن الوحمة قد تتواجد على الوجه أيضًا في محاولة منها
للتغطية على ذلة لسانها. ألم تلاحظ الخزانات في أسفل الرواق؟».
«أعترف أنني لم ألاحظها».

«عدة خزانات خشبية. وليست أي خزائن بل هي خزائن
ملفات، أراهن على هذا بحياتي. وما الذي يوجد عادةً في خزائن
الملفات؟ وثائق، معلومات، سجلات. لا شك أن إحدى هذه
الخزانات تحتوي على المعلومات التي نحتاجها، لكنني أشك في
أن السيدة (تشاندر) بحاجة للبحث فيها. أنا على يقين من أن
كل شيء موجود هنا». أشار بسبابته إلى جانب رأسه وقال: «من
الواضح أنها تذكرت الصبي ووحمته».

«ماذا سنفعل الآن؟». سألته وأنا أركب عربة الأجرة التي
تنتظرنا.

«سنعود إلى شارع بيكر ونستريح قليلاً من عملنا. نحن بحاجة
إلى بعض الشاي والنوم، فلدينا عمل مهم يجب القيام به الليلة».

الفصل السابع

بعد خمس دقائق من خروج زائري السيدة (تشاندر) من
المبنى أسرع لإجراء مكالمة هاتفية.

«مرحبًا؟».

«أنا السيدة (تشاندر)».

«ثم؟».

«هناك مشكلة».

«أكملي».

«لقد تلقيت زيارة من (شيرلوك هولمز)».

«هل هو معك الآن؟».

«لا. لقد سألتني عن الصبي. لا شك أنه كان هنا للتحقيق في

قضية ما».

«هذا نذير شؤم. بم أخبرته؟»

«لا شيء. ما الذي يمكنني أن أخبره به على أي حال؟ لكنه

لن يكتفي بادعائي الجهل. أظن أنه لم يصدقني».

«بالطبع لا. من المؤسف أنه قد أقحم نفسه في هذا الأمر. لا شك أن عائلة (تيمبل) قد استعانت بخدماته للعثور على الطفل. حسنًا، سنتعامل نحن مع السيد (هولمز). يجب أن نتخذ موقفًا». «نتخذ موقفًا؟».

«يجب أن نتخلص منه».

«وفي أقرب وقت ممكن، إن كنت تريد نصيحتي».

«أعتقد أنني أستطيع العيش بدون نصيحتك يا سيدة (تشاندرلر)، لكن بالتأكيد يجب عليّ التصرف بسرعة. أنا أدرك جيدًا أن السيد (هولمز) قوة عقلية لا يستهان بها. كلما أسرعت في إخراجه من الصورة كان ذلك أفضل. اترك الأمر لي».

انقطع الخط، فوضعت السيدة (تشاندرلر) سماعة الأذن ببطء في موضعها. كانت عيناها الزرقاوان تلمعان بشرود قلق. كانت تأمل أن تكون هذه هي نهاية الأمر، لكن شيئًا ما بداخلها أخبرها أنها لن تكون النهاية.

أما بالنسبة لمتلقي مكالمة السيدة (تشاندرلر) الهاتفية، فقد نهض من خلف مكتبه ليقف عند النافذة. كان يحدق إلى سريان نهر الـ(تايمز) الغامض، الذي كان يتلألأ بشكل متقطع في ضوء الشمس الخافت. ومع ذلك، لم يكن يتأمل المنظر الذي يطل عليه؛ بل كان عقله شاردًا في مكان آخر. كان يبتكر وسيلة لإنهاء مسيرة (شيرلوك هولمز) بشكل نهائي.

الفصل الثامن

من مذكرات د. (واطسون)

كان النشاط الذي خطط له (شيرلوك هولمز) من أجلنا هذا المساء عبارة عن اقتحام مكانٍ لسرقته. أعتقد أن لديه شغفًا سرّيًا حول أمور السرقة هذه، ولم تكن هذه بالتأكيد المرة الأولى التي يصطحبني فيها معه لاقتحام مبنى ما في وقت متأخر من الليل. بدا الأمر كما لو أن روحه الأخلاقية المستقيمة تستمتع بهذا النشاط الشائن، وتزيح عن عاتقه الحرج بحجة أنه يفعل هذا لهدف عادل وقانوني بالنهاية. غالبًا ما أفكر في أنه لو لم يختر صف الخير في القتال، لعدا مجرمًا ناجحًا وخطيرًا للغاية.

«بما أن السيدة (تشاندرلر) قد رفضت تزويدنا بالمعلومات التي نحتاجها، فيجب علينا إذن أن نأخذها بأنفسنا رغمًا عنها. نحن بحاجة إلى الوصول إلى تلك الخزانات». أكد لي أنه قد وضع خطة محكمة لاقتحام المكان والخروج منه بما نريده دون أن يمسك بنا أحد. صمت فجأة ونظر إليّ بجديّة قائلاً: «المعذرة

يا صديقي العزيز، أخشى أنني اعتبرت مشاركتك في الاقتحام أمرًا مفروغًا منه، فقد افترضت أنك تريد مرافقتي الليلة. لم يكن لدي الحق في أخذ القرار بالنيابة عنك قبل أن أسألك أولاً». ثم ابتسم بخبث وهو يتابع: «أنت لست ملزمًا بأي شيء». «أنت تعلم أن لدي تحفظات على مثل هذه الأفعال الشائنة، ولكن مع ذلك... لن أفوت هذا الحدث المهم للقراء حول العالم».

ابتسم قائلاً: «يا لك من صديق صالح، كنت واثقًا حقًا من أن صديقي العزيز (واطسون) لن يتخلى عني. سنغادر شارع بيكر قبل منتصف الليل بقليل. لدي كل الأدوات المناسبة لتسهيل الاقتحام، لكن الوضع ما زال خطرًا. المبنى مزدحم بالأطفال بالطبع، ولا شك أن هناك من سيحتاج لرعاية ليلية بسبب مرضه أو شيء من هذا القبيل. ولكن لحسن الحظ أنني لاحظت - أثناء زيارتنا للملجأ اليوم - أن غرف التمريض ليست في أي مكان بالقرب من مكتب السيدة (تشاندر) والممر الذي يضم تلك الخزائن الثمينة. نحتاج إلى تحديد الأوراق المتعلقة بعام 1887 وبعدها لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للظفر بالمعلومات التي نحتاجها».

أومأت برأسي علامة على الفهم، لكنني لم أقل شيئًا. كان (هولمز) أكثر تفاعلاً مني بخصوص نجاح مهمتنا. كان يمتلك

قدرة رائعة على كبح جماح خياله في مثل هذه المناسبات والتركيز فقط على المهمة التي نسعى لإنجازها. من ناحيتي فقد ابتكر عقلي العديد من العقبات والمشكلات، والسيناريوهات الدرامية التي من شأنها أن تعرقل أو حتى تحبط جهودنا وتفضحها، ولكنني احتفظت بهذه الأفكار لنفسي بالطبع.

في الساعة المحددة، غادرنا موقعنا وسرنا على طول شارع بيكر قبل أن نركب عربة أجرة. طلبنا من السائق أن يقلنا إلى وجهتنا ولكن ينزلنا قبلها بنصف ميل، ثم قطعنا بقية المسافة إلى مؤسسة (تشاندر) سيرًا على الأقدام.

كانت ليلة هادئة ولكنها باردة، بالإضافة إلى رطوبة الأرصفة واستحمامي قبل نزولنا مما زاد من شعوري بالبرد. مشينا في صمت، وصوت قرع أقدامنا على الأرض يتردد صداه، حيث كان له دوي مرتفع بسبب خلو الشوارع.

قال (هولمز) بهمس: «لاحظت - أثناء زيارتنا هذا الصباح - وجود نافذة صغيرة على جانب الدار من شأنها أن تتيح لنا الدخول بسهولة». كنا مختبئين بالظلال في الشارع على الناحية الأخرى من الدار. بدا المبنى وكأنه غارق في ظلام دامس. لم يكن هنالك أي بصيص ضوء نابع من أي من نوافذ المبنى، وكأنه ينتصب بين المباني المجاورة له ككتلة من الطوب المعتم، كما لو أنه يحاكي سواد سماء منتصف الليل. لحسن الحظ، كان

الطريق مضاءً بشكل خافت بسبب أعمدة الإنارة، ولم يكن هناك سوى قطعة صغيرة من الهلال في السماء، تختفي من وقتٍ لآخر خلف قطع من السحب المتناثرة. تسللنا خلسة عبر الشارع صوب الجانب السفلي من المبنى.

قال (هولمز) مشيرًا إلى نافذة صغيرة، على بعد خمسة أقدام من الأرض: «هذه هي». ثم جثا على ركبتيه وفتح كيسًا قماشياً يحتوي على أدوات عملية الاقتحام، أخرج منها إزميلًا كبيرًا وهو يتابع: «سأرى إذا ما كان بإمكانني فتحها أو معالجة قفلها؛ تحطيم الزجاج سيكون صاخبًا أكثر من اللازم».

أومأت بالموافقة وأنا أجيبه ساخرًا: «أعتقد أنني سأكتسب المزيد من الهيبة إذا كنت بنفس ارتفاع النافذة».

«لذا اسمح لي أن أستعين بك لاكتساب تلك الهيبة يا صديقي القديم». ويتجهم وثب (هولمز) وتسلق على ظهري حتى يبلغ ارتفاع النافذة.

«هذا كافٍ، ممتاز للغاية». قالها وهو يرفع نفسه في وضعية القرفصاء على ظهري المسكين، ثم سمعته يخدش قفل النافذة بالإزميل. على الرغم من أنني واثق أن (هولمز) محترف فيما يفعله، وأنه قد فعله عدة مرات من قبل، لكن الأصوات التي يصدرها والتي تشق سكون الليل، بدت عالية للغاية بالنسبة لي، بل كافية لإيقاظ الشارع بأكمله.

قال بشيء من الإحباط: «يا له من شيطان مراوغ».

(هولمز) نحيف للغاية فهو الأخف وزناً بيننا، ومع ذلك فقد شعرت - بعد بضع دقائق - أن قوة ظهري تخور تحت وطأة ثقله، خاصة مع الوقت والمجهود الذي كان يبذله لإجبار النافذة على الفتح. كنت على وشك أن أطلب منه أن يمنحني قسطاً من الراحة وإلا فقد أهوي أرضاً في أي لحظة، لكنه استوقفني حين تنهد في ارتياح، وتلا هذا صوت تصدع قصير يوحى بتشقق الخشب. «تحمل يا (واطسون)، بضع ثوانٍ أخرى فقط». سمعته يقول هذه الكلمات وهو يسحب النافذة لأعلى. تم ضغط بقوة أكبر على ظهري وهو يرفع نفسه على حافة النافذة. شعرت بتحرر مبهج حين رفع وزنه عن كاهلي وتمكنت من الوقوف منتصباً مرة أخرى. نظرت لأعلى لأرى وجه (هولمز) يحدق إلى وجهي من خلال النافذة المفتوحة.

«اكتملت المرحلة الأولى. تخلص الآن من الحقيبة وبعد ذلك سأمد لك يدي لسحبك لأعلى».

في غضون ثوانٍ، كنت أقف بجانب (هولمز) في الدار المظلمة. انتظرنا لبعض الوقت في مكاننا، ونحن نرهف السمع بآذاننا لالتقاط أي صوت أو حركة بالأرجاء، وباستثناء صوت دقات الساعة القادم من غرفة مجاورة كان الصمت يخيم على المكان.

أخرج (هولمز) مصباحًا زيتيًا داكنًا من حقيبته وضبط درجة النار في فوهته، ثم همس في أذني وهو يشير صوب اليمين: «حسب علمي المحدودة بالدار، فإن الممر بتلك الجهة، ثم الهبوط للأسفل، ثم الانعطاف يمينًا ثم يسارًا».

أومأت بالموافقة، كنت راضيًا بالاعتماد على حكمته في مثل تلك المواقف، فلم يكن لدي أي فكرة عما يجب أن أفعله في هذا الظلام.

بخطوات بطيئة متحفظة لكيلا تصدر أي صوت، تحركنا في الاتجاه الذي اقترحه (هولمز). عندما انعطفنا يمينًا في نهاية الممر تعرفت على تمثال نصفي صغير قد رأيتَه في زيارتنا هذا الصباح فأدركت أننا بالفعل على الطريق الصحيح، وفي غضون ثوانٍ كنا قد دلفنا إلى الممر الضيق الذي كان يضم ثلاث خزانات خشبية كبيرة لحفظ الملفات. انحنى (هولمز) على الأولى مركزًا شعاع المصباح الزيتي على الأدراج وهو يهمس: «ليس هناك ما يشير إلى محتويات الخزائن».

«هل هي مغلقة؟».

«سأكتشف ذلك حالاً».

ناولني المصباح وحاول أن يسحب الدرج العلوي من مستقره، لكنه لم يتحرك! حاول من جديد باستخدام الإزميل، فتمكن من جعل الأمر أسهل. سحب الدرج للخارج بعد أن كسر قفله،

فأريت أنه مكتظ بالأوراق عن آخره. انتزع (هولمز) حزمة منها وتفحصها.

سألته بعد لحظات قليلة من انتظاره: «هل بها شيء يفيدنا؟». «هذه هي أنواع السجلات التي نحتاجها، لكنه العام الخطأ، فهو يسبق العام الذي نريده. سأجرب المجموعة التي تليها على أمل أن يكونوا مرتبين حسب التسلسل الزمني».

كرر العملية مع الخزانة الثانية، وانكسر القفل بسهولة كسابقه. مرة أخرى تفحص حزمة من الأوراق، وهو يقول: «آها، هذه تخص عام 1886. نحن ندنو من مرادنا».

طلب مني أن أقرب منه بالمصباح بعض الشيء حتى يتمكن من تفحص المزيد من الملفات، كانت أنامله تفحص الأوراق في عجلة قبل أن تتباطأ، حيث كان يسحب وثيقة بعد الأخرى لفحصها. ثم أخرج زفيرًا حادًا من رثيته وهو يقول: «ها نحن ذا يا (واطسون).. السيد والسيدة (تيمبل) في أكتوبر عام 1887».

بعد أن قرأ اسم الوثيقة انتزعها من الملف ودسها في جيب معطفه وهو ينظر إليّ مبتسمًا في زهو. وفي تلك الأثناء، دوى صوت انفجار وومض ضوء في أقصى نهاية الممر. حسب خبرتي فأنا واثق من أنها كانت رصاصة!

ما زالت اللحظات القليلة التي تلت هذا الموقف مشوشة في ذهني وأنا أحاول أن أرسم كل ما حدث بهذه السرعة والتخبط.

كادت صدمة إطلاق النار أن تجبرني على إسقاط المصباح من بين أصابعي، لكن لحسن الحظ كان لدي ما يكفي من التركيز للتشبث به، بل وتحديد الجهة التي انطلقت منها الرصاصة، حيث أدى الوميض المصاحب لها لارتجاف قلبي بين ضلوعي.

على بعد اثني عشر قدمًا تقريبًا من موقعنا كان هنالك عملاق، شبيه بالمخلوقات الخرافية في حكايات (الأخوين جريم) الخيالية. على ضوء المصباح المتذبذب ظهرت ملامحه القاسية، بدا أن ارتفاعه يبلغ أكثر من ستة أقدام ويخور كالثور. كان وجهه مستديرًا ومحمّرًا بشكل ملحوظ ومغطى بكتل من الشعر الجامح ولحية ضخمة، كأنما قد خرج للتو من كهف ما من عصور ما قبل التاريخ. ومع ذلك، كان الأمر الأكثر إثارة للقلق من حجمه الضخم والقسمات الشرسة لوجهه القبيح المخيف، هو أنه كان يحمل مسدسًا كبيرًا للغاية في يده وكان يصوبه ناحيتي! لا أزمع أن خطوتي التالية كانت محسوبة أو أنني حتى قد فكرت فيها قبل الإقدام عليها. لقد حدثت غريزيًا، مجرد رد فعل ارتجالي. تقدمت خطوة للأمام وصويت شعاع ضوء المصباح مباشرة في وجهه. أغلق عينيه وتأوه في انزعاج حيث أعماه الضوء تقريبًا، ولكن المهم هو أن فوهة سلاحه قد اتجهت بعيدًا عني.

بزئير نابع من حنجرته تقدم صوبنا. اندفع (هولمز) للتصدي له في حركة سريعة، لدرجة أن هذا الغول لم يكن لديه الوقت

لتصويب المسدس نحونا، قبل أن يطعنه صديقي بالإزميل في صدره. لقد زمجر الوحش بصوت خافت غير إنساني تقريبًا، مزيج غريب من المفاجأة والغضب في وقتٍ واحد. بينما كان الغول مشتتًا تمكن (هولمز) من انتزاع المسدس من يده قبل أن يعاود استخدامه. ظل الإزميل عالقًا في صدر الرجل، وبقعة داكنة من الدماء تنتشر حوله. بزئير آخر انتزع الإزميل من موضعه وألقاه على الأرض، ثم تحرك بتثاقل نحونا.

صرخ (هولمز): «اركض»، وهو يطلق رصاصة تحذيرية في الهواء. لم أكن بحاجة إلى مزيد من الحث على الهروب، فهرعت أقطع الردهة و(هولمز) يلحق بي. ترددت أصداء الأصوات العالية من كل حذب وصوب بالمنزل. عندما وصلنا إلى النافذة التي دلفنا منها، كانت هناك أشكال غامضة تظهر من جميع الاتجاهات كما لو أنها ظهرت من العدم، بعضها يحمل مصابيح زيتية، وظلالها تتمايل في الخلفية.

سمعت صوت المزيد من الطلقات، بينما كنت أتسلق حافة النافذة للخارج هذه المرة، ثم رأيت مهاجمنا العملاق يمسك بـ(هولمز)، قبل أن يجره على الأرض وهو يجره كما لو كان دمية بلا حول أو قوة. ثم كان هناك صوت طلقة أخرى فصرخ المخلوق من الألم مرةً أخرى وأرخی قبضته الممسكة بصديقي على الفور. كان الرجلان منهارين على الأرض، لكن (هولمز)

سرعان ما وقف على قدميه مرة أخرى وتبعني إلى النافذة، ثم قفزنا لنهبط بعنفٍ على الأرض.

صرخ أحدهم في الظلام: «توقفا، أيها اللعينان». وأُطلِقت رصاصتان أخريان. بمجرد أن خرجنا من المبنى، ركضنا بأسرع ما بوسعنا بين الشوارع المتداخلة. واصلنا الركض دون انقطاع لمدة عشر دقائق تقريبًا حتى انقطعت أنفاسي تمامًا، وتوسلتُ إلى (هولمز) أن نتوقف لبعض الوقت، لكي ألتقط أنفاسي.

وقفنا نلهث عند مدخل متجر لبيع السجائر. اعتقدت أن (هولمز) بدا صاخبًا بشكل خاص، حتى أدركت أنه كان يضحك بطريقة الغريبة.

«لقد انتقلنا من الميلودراما إلى مسرحية هزلية، أليس كذلك يا (واطسون)؟ كل ما كان ينقصنا بجانب السيدة (جيلبرت) ووحش (سوليفان)⁽¹⁾ خاصتها هذا هو إعداد بعض الموسيقى، وسيكون لدينا أوبرا هزلية رائعة».

«لقد كنا على وشك الموت». أجبته بصرامة وقد ارتفع صوتي بعض الشيء، بعدما فشلت في رؤية الجانب الفكاهي في الأمر.

(1) يشير جيلبرت وسوليفان إلى الشراكة المسرحية في العصر الفيكتوري بين الكاتب المسرحي ويليام إيثونك جيلبرت (1836-1911) والمؤلف الموسيقي آرثر سوليفان (1842-1900) وإلى الأعمال التي أنتجها معًا. تعاون الرجلان في أربع عشرة أوبرا كوميدية بين عامي 1871 و1896.

«مثل هذه الأحداث المثيرة تضيف دائماً القليل من التوابل إلى التحقيق. من الواضح أن أحدهم كان في انتظارنا. السيدة (تشاندر)، أو على الأرجح سيدها التي تعمل لديه، كانا على علم بأنني لن أترك تلك الوثائق أبداً وأني مضطر لاقتحام المبنى، وعلى هذا المبدأ وضع الحارس الليلي، هذا الإنسان البدائي، مسلحاً بمسدس - وهو ليس نموذجاً للمربي المعتاد في حضارة الأطفال - بجانب هؤلاء الآخرين الذين أتوا لمساعدته. كان المكان مليئاً بالمشحونين الذين ينتظروننا.»

«كان مخلوقاً مخيفاً. لقد بدا وكأنه شيء من عروض (جانبي) للسيرك. هل مات؟»

«أخشى ذلك. كانت هناك طريقة واحدة فقط للهروب من برائته عندما أمسك بي وهي إطلاق النار عليه. لو لم أضغط على الزناد في الوقت المناسب، لكسر رقبتني بلا شك. قضية الاختطاف هذه تكتسب طابعاً قاتماً للغاية مع الوقت، وأعتقد أنها ستزداد عتمة قبل أن نصل إلى حقيقة الأمر يا (واطسون).»

الفصل التاسع

كان ضوء الفجر الرمادي يكافح لبلوغ غرفة العلية القذرة. بدا أن كل شيء في هذه الحجرة قد غلفه لون باهت قديم. حتى الصبي - المتكوم على نفسه فوق فراشه الجديد - كان مغطى بملاءة رمادية، كافية لستر نصف جسده فحسب. كانت عيناه مغمضتين. رفع أحدهم جسده الصغير برفق وهو نائم، ثم أسقطه مرة أخرى.

«هل هو مخدر؟». كانت هذه هي أولى الكلمات التي نطقها الرجل الطويل وهو يدخل الغرفة، بعدما رأى أنه ما من ضرورة لإلقاء أي تحية.

كانت الأيدي التي لمست الصبي هي أيدي هؤلاء المستأجرين لحمله، في ظروف أخرى لم يكن يسمح لأحدهم بالاقتراب منه ولو على بعد عشرة أقدام. لقد تلقوا ثمن خدماتهم، وكان المال هو كل ما يحتاجونه.

نهضت (آني غرايمز) بشكل محرج وهي تقول: «إنه مخدر بالفعل يا سيدي، لكنها لم تكن مهمة سهلة. لم يتناول طعامه على الإطلاق؛ إنه صعب المراس رغم صغر سنه. كان علينا أن نفكر في

وسيلة أخرى لإجباره على أخذ الجرعة المخدرة، لهذا دسناها في قدر من الحليب الساخن، ورغم هذا حاول الفتى جاهداً أن يبصقها، ولكن...». ابتمت بخبث ثم تابعت: «ولكننا ثابرتنا وكنا له بالمرصاد». أومأت نحو الطفل مكملة: «إنه غائب تماماً عن الوعي الآن.. أليس كذلك يا (بيرسي)؟».

تقدم (بيرسي) حين ذُكر اسمه ناحية ملتقى الحديث الذي كان يحوم في الظلال، وقال مشاركاً: «إنه غائب تماماً عن الوعي بالطبع. أنا جاهز للرحلة يا سيدي».

أوماً الرجل الغارق في الظلال إيماة قصيرة، مردفاً: «هناك عربة تنتظر بالخارج، أنزل الصبي إليها». بعد ثوانٍ معدودة، حمل (بيرسي غرايمز) الفتى المخدر، بعد أن لفه في بطانية صوفية خشنة، إلى العربة المنتظرة برفقة الرجل الطويل.

قال الرجل الطويل وهو يفتح باب العربة: «مدده على المقعد الخلفي بداخل العربة، وأنا سأراقبه خلال الرحلة». فرد (غرايمز): «سمعاً وطاعة»، وهو ينفذ الأوامر بالحرف. تململ الصبي وارتعش جفناه للحظات كما لو أنه موشك على اليقظة، ولكن بمجرد أن استقر رأسه على مقعد العربة الخلفي غرق مرة أخرى في سبات عميق.

قال الرجل الطويل: «هذا هو كل ما أحجاجة منك الآن». ألقى بعملة ذهبية ناحية (غرايمز) الذي هرع يلتقطها في لهفة، ثم أضاف: «سأصل بك حين أحجاجة لخدماتك مرة أخرى».

أجاب (غرايمز) وهو يتحسس العملة بشوق: «ممتن للغاية يا سيدي». هذه الكلمات المنمقة المحترمة ليست من طبيعته، لكنه كان يعلم أنه لو لعب دور الخادم المتواضع والمطيع فقد يكسبه هذا الادعاء المزيد من المهام، وكما علقت (آني): «الرجل الطويل يدفع بسخاء لمن يستأجرهم».

أمر الرجل الطويل السائق بالحركة ثم أغلق باب العربة فتمايلت العربة وهي تتحرك إلى الأمام ببطء قليلاً، ثم ازدادت سرعتها تدريجياً.

ظل (غرايمز) يحدق إلى العربة لبضع لحظات حتى تأكد أنها اختفت عن ناظره ثم بصق أرضاً في غيظ.

الفصل العاشر

من مذكرات د. (واطسون)

في اليوم التالي نهضت متأخرًا بعض الشيء عن عادتي اليومية. لقد كنت مرهقًا بسبب أحداث الليلة السابقة. يبدو أن عليّ الاعتراف بأنني لم أعد الشاب الرشيق الذي سافر إلى أفغانستان مع فريق (نورثامبرلاند فيوسليرز) الملكيون الخامس⁽¹⁾. كنت أفتخر بأنني حافظت على لياقتي بشكل معقول طوال هذه السنوات، ولكن مهما حاول المرء بجدية أن يحافظ على رشاقته، فإنه لا يستطيع منع نفسه من بلوغ منتصف العمر. عند دخولي إلى غرفة جلوسنا، وجدت (هولمز) جالسًا خلف المنضدة، وجليونه الفخاري القديم مثبت بين شفتيه، كان مقطبًا جبينه بينما يطالع بعض الأوراق. أدركت من الصحون الفارغة على المنضدة أنه تناول الإفطار بدوني منذ بعض الوقت.

(1) فوج من المشاة خدم في الجيش البريطاني.

نظر إليّ حين دخلت الغرفة ثم قال: «ها أنت ذا يا صديقي العزيز، كيف حالك هذا الصباح؟».

«متعب ومتيبس الأطراف بعض الشيء».

«القهوة الساخنة وبعض اللحم المقدد مع البيض المقلي من يد السيدة (هودسون) سيساعدون على إنعاشك وإرجاع بعض الحيوية إلى أطرافك». ختم عبارته بابتسامة قصيرة قبل أن يعود إلى مطالعة أوراقه.

أخذت بنصيحته وبعد حوالي خمس عشرة دقيقة كنت ألتهم الطعام اللذيذ الذي أعدته صاحبة العقار. لم أكن حتى هذه اللحظة أدرك كم أتضور جوعاً، وما إن دفعت الصحن الفارغ جانباً وأنهيت فنجان قهوتي حتى شعرت بأني أفضل حالاً مئة مرة مما كنت عليه حين سحبت نفسي عنوة من الفراش.

التفتُ إلى صديقي الذي كان يدخلن بهدوء وعيناه تحدقان إلى السقف. أعرف هذه الحالة المزاجية؛ إنه يفكر بعمق ويوازن بين الحقائق والاحتمالات ويقارن بين الأدلة التي لدينا مع نظريات مختلفة تدور بعقله.

سألته: «ما الذي عرفته من تلك الوثائق التي حصلنا عليها الليلة الماضية؟». كدت أكتفي بسؤاله، لكنني لم أستطع مقاومة إضافة: «تلك الوثائق التي كادت أن تكلفنا حياتنا».

رفع (هولمز) ثلاث أوراق من على الطاولة ثم تركها تسقط من بين يديه، وهو يجيب: «لا تمنحنا الكثير لكنها على الأقل تمنحنا معلومة واحدة حيوية؛ اسم المرأة التي أحضرت الطفل الصغير ذا الوحمة المثلثة للسيدة (تشاندرلر)، وهو (أليس سندرلاند)».

«هل هناك عنوان؟».

«شارع (بات) دون أي أرقام».

«شارع (بات)؟».

«في حي (وايت تشابل)».

«ليست منطقة راقية».

«بالتأكيد. لكن بالنظر إلى الظروف المتعلقة بالطفل بخصوص الملجأ فلم أكن أتوقع شيئاً أبعد من هذا. من الممكن أن تكون الأم - كما أظن - فتاة من الخدم احتاجت للتخلص من جنينها، من أجل الاحتفاظ بمكانتها في منزل محترم. لكن بما أننا نتحدث عن حي (وايت تشابل)، هذا يعني على الأرجح أن يكون الصبي من نسل امرأة شوارع مشردة».

قلت معلقاً: «إن حياتهم قصيرة الأجل؛ قلة هم الذين يعيشون فوق الأربعين من العمر، بسبب انتشار الأمراض والاختلاط. إنه واقع بائس ومحزن».

أوماً (هولمز) برأسه مؤكداً على كلامي: «أتذكر جيداً النساء الفقيرات اللواتي قابلناهن خلال وقت جرائم (جاك السفاح) وكم كن يعانين من السعال الشديد». رأيت الحزن في عينيه وهو يتذكر تلك الأم الحزينة الهشة وهي تنتقل بين شوارع (وايت تشابل) لتظفر بمكان تقضي فيه ليلتها. كن فريسة لضربات السكارى، وسوء معاملة القوادين، والمرض والجوع، وشفرة (جاك السفاح) كذلك في ذلك الوقت.

«وهذه المرأة المدعوة (أليس سندرلاند) إن كانت واحدة من هؤلاء التعيسات، فمن غير المرجح أنها ستظل قاطنة بشوارع (بات) بعد كل هذه السنوات».

«بالفعل، اتضح أن دليلنا هذا هش لأقصى الحدود. يمكن أن تكون الأم قد ماتت أو انتقلت لحي آخر. ولكن ما زال علينا المحاولة».

«متى تنوي زيارة حي (وايت تشابل)؟».

«المكان يضح بالحياة، إذا صح لي استخدام هذا التعبير. سيكون في الليل إذن. أقترح قضاء أمسيتنا في تلك الشوارع المظلمة الكثيبة الليلة».

كنت أنوي تناول غداء خفيف وأخذ قيلولة بعد الظهر قبل رحلتنا المسائية، في محاولة بائسة مني للتعافي بصورة كاملة من مغامراتنا في الليلة السابقة. لكن خططي تلاشت بوصول زائر لنا! حملت السيدة (هودسون) بطاقته على طبق، نظر (هولمز) متفحصًا البطاقة ثم سلمها لي بضحكة مكتومة ساخرة.

كُتِبَ على البطاقة: «المفتش (دومينيك جاونت)، شرطة العاصمة، سكوتلاند يارد، لندن».

سألته: «منذ متى تصدر بطاقات زيارة شخصية للشرطة؟».

«أعتقد أن هذا أمر فردي. يبدو أن المفتش (جاونت) هو أحد أحدث سلالات المفتشين التي أخبرنا عنها صديقنا القديم (ليستراد)، حتمًا هو متغطرس للغاية ومتعجرف أكثر من اللازم. هذه على الأقل وجهة نظر (ليستراد) بصورة عامة. الآن يمكننا الحكم على صاحب تلك البطاقة بنفسينا».

دخل زائرنا لغرفة جلوسنا بعد لحظات قليلة من الإذن له. كان رجلًا طويل القامة وذا هيئة مثيرة للإعجاب، رياضياً في بنيته بملامح وسيمة عريضة، شعره أسود كثيف. كان يرتدي ملابس منمقة نظيفة، لا تشوبها شائبة، ولديه عينان حريصتان تلمعان بالذكاء. كان هذا الشرطي بالتأكيد على النقيض تمامًا من الشخصية المتهالكة العبثية لصديقنا (جايلز ليستراد).

«سيد (هولمز)، إنه لمن دواعي سروري وشرف كبير أن ألتقي بك». قالها بصوت غليظ وعميق مع وجود بعض شوائب اللهجة الأيرلندية في كلماته، ثم أمسك بيد صديقي وصافحه بحرارة.

ابتسم (هولمز) وأوماً برأسه مجيباً: «إنه لمن دواعي سروري دائماً أن ألتقي بأحد أفراد قوة الشرطة. أعرفك بصديقي وزميلي الدكتور (واطسون)».

التفت إليّ وقال: «أهلاً سيدي». ثم التفت إلى (هولمز) من جديد دون أن يصافحني!

قال (هولمز) مشيراً إلى كرسي: «تفضل بالجلوس، وأخبرنا ما الذي أتى بك إلى هنا أيها المفتش». ففعل المفتش (جاونت) ما طلبه منه صديقي.

«أتيت إليك فيما يتعلق بأمر بالغ الأهمية يا سيد (هولمز). أنا حالياً مسؤول عن التحقيق في قضية اختطاف السيد (تيمبل) الصغير». صمت قليلاً وهو يلقي نظرة فاحصة على صديقي، الذي ظل وجهه كما هو محايداً دون أن يتغير، فتابع (جاونت) مع بعض الحرج: «لقد لفت انتباهي أنك تجري بدورك تحقيقاتك الخاصة بشأن هذه القضية».

قال (هولمز) مقاطعاً: «حقاً؟ وكيف حصلت على هذه المعلومات؟».

تردد (جاونت) للحظات، بدا الأمر كما لو أنه يحاول تحديد كيفية الإجابة على سؤال (هولمز) المبالغت. فأجاب صديقي بالنيابة عنه: «لا حاجة للمراوغة أيها المفتش. لا شك أن ضابط المراقبة الخاص بك قد أخبرك، هذا الذي وضعته على مقربة من بوابة مدخل مسكن عائلة (تيمبل). لقد رأيته بالأمس عندما زرنا الدار. إذا كانت ذاكرتي تسعفني بشكل صحيح - وعادة ما تفعل ذلك - فقد كان يرتدي زي حرفي مع حقيبة مليئة بالأدوات».

في البداية بدا (جاونت) مندهشاً من هذا الاستنتاج الدقيق لـ(هولمز) ثم حاول أن يرسم ابتسامة على وجهه وهو يقول: «أنت محق يا سيدي، الرجل الذي تشير إليه هو أحد رجالي بالفعل».

«السيد (تيمبل) قد أعرب عن استيائه من تقدم الشرطة البطيء في هذا التحقيق، وحين يرى جاسوسك المتربص أننا قد ذهبنا إلى المنزل مرتين في يومين متتالين، سيكون من السهل عليه تخمين تدخلنا لاستكمال التحقيق الرسمي بدلاً من الشرطة».

«هذا صحيح، لقد أحرزنا تقدماً ضئيلاً في هذه القضية، ويبدو أن كلاً من الصبي وخاطفيه قد اختفوا من على وجه الأرض». مسح (جاونت) شعره المُصَفَّف بعناية بأنامله، وهو يتابع: «لهذا السبب أنا هنا، لأعرف منك ما إذا كنت قد أحرزت أي تقدم في هذه المسألة. يجب أن نعمل معاً بدلاً من العمل بشكل منفصل...».

رفع (هولمز) يده لإسكات الشرطي وهو يقول: «أخشى أيها المفتش أن لدي قاعدة صارمة بأن يكون عملي لصالح موكلي وحده. ولكن في لحظة الذروة أنا مستعد للاتصال والاستعانة بسكوتلانديارد».

«لكن جهودنا المشتركة بالتأكيد...».

هز (هولمز) رأسه مقاطعاً مرة أخرى: «إذا كنت أرغب في أن أكون جزءاً من قوات شرطة المحافظة، لكنت التحقت بها بالفعل».

«ولكن إذا كان لديك أي معلومات ذات صلة بالقضية، فبالأكيد ستكون مستعداً لمشاركتها معنا؟».

«ربما، ولكن في الوقت الحالي لم أحصل على أي شيء يمكن أن يكون مفيداً لك. يبدو أن كلينا يحدق إلى الظلام على أمل أن نلمح وميضاً من الضوء. أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك».

تجهمت ملامح (جاونت) وتوهجت عيناه بغضب مكبوت، ثم صاح: «لا تستطيع أم لن تقدم على الأمر من الأساس؟».

اكتفى (هولمز) بإيماءة بلا معنى من يده، مما دفع الزائر للنهوض فجأة وهو يقول بشيء من الانزعاج: «لقد توقعت المزيد من التعاون منك يا سيد (هولمز)، فحياة طفل صغير على المحك، وكنت أعتقد أن هذه القضية ذات أهمية قصوى بالنسبة ل...».

«هي كذلك بالتأكيد. ويمكنني أن أؤكد لكم أن كل حواسي وجهودي تتركز على هذه الحالة».

«لكنك لست مستعدًا لمشاركة النتائج التي توصلت إليها معنا!».

«النتائج التي توصلت إليها، كما أخبرتك، لا تفيد سكوتلانديارد حاليًا. عندما يصبح الموضوع أكثر وضوحًا، ويكون الحل ظاهرًا في الأفق، فهذا هو الوقت الذي سأستعين فيه بقوة الشرطة الرسمية».

«حسنًا، لن أضيع المزيد من وقتك الثمين». قالها المفتش (جاونت) كما لو أنه يلقي نعيًا حزينًا، ثم سار إلى الباب وفتحه قبل أن يستدير لمواجهتنا مرة أخرى ويقول: «طابت ليلتكما أيها السيدان». ثم أغلق الباب بعنف من خلفه.

ضحك (هولمز) بطريقته الجافة، قبل أن يقول: «يا له من متغطرس، أتى إلى منزلنا متوقعًا مني أن أقوم بعمله بالنيابة عنه». قلت: «لقد كنت فظًا بعض الشيء».

«أعرف هذا، ولكن كان هناك شيء حيال المفتش (جاونت) دفعني للتعامل معه بفضاظة».

«مع ذلك نحن نعمل من أجل نفس الهدف ولم تكن صادقًا معه. لقد حصلنا على بعض الأدلة التي قد تكون مفيدة في تحقيقه».

«وإذا وقعت في أيدي الحمقى بسكوتلاند يارد يمكن أن تؤدي إلى كارثة، الوضع حساس للغاية. لقد قالها (جاونت) بنفسه إن حياة الصبي الصغير على المحك. خطوة واحدة بدون ترتيب مسبق يمكن أن تؤدي إلى كارثة. هذه القضية تحتاج إلى معالجة بأقصى قدر من العناية والدقة، وهذه الصفات ليست سائدة داخل حدود سكوتلاند يارد».

«لقد بدا لي هذا الرجل مؤهلاً لتلك المهمة».

«لا تتخدع بالبدلة الأنيقة والأسلوب الواثق في الحديث يا (واطسون). لم يأت (جاونت) إلى هنا للانضمام إلينا في محاولة حل هذه الجريمة».

«لماذا جاء إذن؟».

«لاختبار عقلي، ولمعرفة ما أعرفه عن القضية».

في ذلك المساء انطلقنا إلى حي (وايت تشابل). عندما سيطر الغسق المظلم على هذه المنطقة القاتمة في لندن، تجولت أنا و(هولمز) في شارع (بات). كان الطريق أوسع مما كنت أتخيله. كنت أتوقع أن يكون زقاقاً ضيقاً تتراص على جانبيه المنازل المتلاصقة، التي تتشابه مع بعضها بعضاً في نوافذها الفارغة المتسخة، لكنني كنت مخطئاً؛ لقد كان شارعاً عريضاً به متجر جزار صغير، ومكان للرهانات، ومنزل عام.

كان الناس يذهبون ويجيئون في دلالة على أن الشارع حيوي بطريقة ما. كان هناك متسول أعمى يطلب الصدقات من المارة، ومغني يجذب الأنظار من خلال بعض الأغاني الشعبية، ناهيك عن ثلاث من فتيات الشوارع يتسكعن تحت ضوء مصابيح الغاز، يثرثرن في محادثة غير مهمة، فما يهمهن لتلك الليلة هو البحث عن التجارة.

اقرب منهن (هولمز)، وعلى الفور شعرن بوجود زبون محتمل، توقفت هذه المحادثة الثلاثية وراحت كل منهن تأخذ وضعية وقوف رأيتها استفزازية للغاية. ظلن يتسمن، ويطلقن العنان لمفاتنهن، منتظرن أن يحسم (هولمز) أمره بأي واحدة منهن سيختار. كانت كل امرأة منهن تضع كميات ضخمة من مستحضرات التجميل، بحيث أصبحن يشبهن وجوه دمي الأطفال البراقة. لم أستطع تحديد عمر أي منهن بدقة. من المؤكد أنهن لم يكن في ريعان الشباب، لكن وجوههن الملطخة بالمساحيق أخفت أعمارهن الحقيقية، وكانت هذه هي غايتهن.

لمس (هولمز) قبعته في نوع من إلقاء التحية وقال: «أنا أرغب في معرفة مكان (أليس سندرلاند). أتساءل إن كان بإمكانك مساعدتي أيتها السيدات».

ضحكن لاستخدام (هولمز) لفظ (سيدات) ثم تبادلن بعض النظرات الصامتة، فأخرج صديقي عملة لامعة من جيبه وهو

يقول: «أنا على استعداد لدفع ثمن تعاونكن». تحاشدت ستة أعين جشعة على العملة المعدنية، فسألت الأطول من بين هؤلاء النسوة: «قلت لي ما هو الاسم يا عزيزي؟». «أليس سندرلاند».

تبادلت النساء الثلاثة النظرات مرة أخرى، ثم قالت إحداهن وهي تقاوم الضحك لسبب أجهله: «أعتقد أنه يمكننا مساعدتك، لكنك ترى أننا ثلاث. هل فهمت ماذا أقصد؟».

أوماً (هولمز) برأسه وأخرج عملتين أخريين من جيبه، فقالت أخرى وهي تكتم ضحكتها: «هذا نبل منك يا سيدي».

قالت الطويلة وهي تمد يدها: «سأخذ هذه العملات».

قال (هولمز): «المعلومات أولاً».

دنت المرأة منه وراحت تهمس بشيء في أذنه. شحب وجه (هولمز)، وظهر على ثغره تعبيراً يوحي بعدم الرضا، مع بعض التردد أعطى القطع النقدية للمرأة. انفجرت تلك الأخيرة في نوبة من الضحك بعدما كادت تنفجر من كتمها، ثم قذفت بقطعة نقود معدنية لكل واحدة من رفيقتيها، اللتين بدا على ملامحهما نفس القدر من التسلية والاستمتاع بالعرض.

قال لي (هولمز) بفضفاضة: «هيا بنا يا (واطسون)».

«ما الخطب بحق للسماء؟».

ظهر على فم (هولمز) ابتسامة ساخرة، وهو يجيبني: «هنالك ثلاث نساء شوارع يتفوقن على (شيرلوك هولمز)».

«هل تقصد أنهن لم يخبرنك بمكان (أليس سندرلاند)؟».

«بلى، لقد أعلموني بالفعل بما أريد أن أعرف».

«حسنًا، وأين هي؟».

أجابني بقسوة: «تحت أنوفنا طوال الوقت».

وصلنا في سيرنا الآن إلى مدخل بيت الرهانات. رفع (هولمز) عصاه وأشار إلى اللافتة الصغيرة الموجودة فوق الباب والتي تجهر بالتفاصيل عن مالك المكان المتخصص في بيع البيرة وتأجير الفتيات والكثير من الأمور المشينة. الاسم كان (أليس سندرلاند).

«جال بخاطرنا أن (أليس سندرلاند) كانت عاهرة، لكن يبدو أنها مالكة لشركة مزدهرة في مثل هذه الأعمال». ابتسم (هولمز) وصدر منه ضحكة مكتومة، مكملاً: «لو كنت تقليدياً للغاية في فكري لكان بإمكانني أن أنقذ عملائي النقدية الثلاثة من السرقة أمام عيني.. ومع ذلك، فهذا بمثابة درس قاسٍ بالنسبة لي. على الرغم من أنه كان من المفترض أن أتعلمه منذ سنوات، وهو ألا أضع أبداً افتراضات تعميني عن باقي الاحتمالات الأخرى».

حسنًا يا أيها الصديق القديم، بما إن محفظتي صارت خاوية في الوقت الحالي، فالمشروبات على حسابك».

دلفنا إلى المكان الأشبه بالحانة، فكان مكتظًا بالزبائن، يبدو أن هناك مجموعات كاملة من طبقات مجتمع لندن المتنوعة في المكان؛ كمجموعة من تجار الأموال، العديد من الأشخاص ذوي المظهر المريب، عدد قليل من الجنود الثمليين، والعديد من الأشخاص يرتدون ملابس مسارح (ويست ايند) الأنيقة، قد انتهى بهم المطاف في (ايس ت ايند) كملهى ليلي لهم. وبالطبع كانت هناك بائعات هوى يحمن حول الزبائن ويبحثن عن فرائس أو مشروبات مجانية.

مع بعض الجهد شققنا طريقنا إلى قلب الحانة، ثم طلبت اثنين من البيرة من نادل الحانة قوي البنية. عندما دفعت ثمنهما، مال (هولمز) إلى الأمام وسأل الرجل: «هل (أليس) موجودة؟». كان صوته خشنًا أكثر من المعتاد! رفع الساقى حاجبًا دلالة على التعجب، كما لو أنه لم يسمع أو يفهم السؤال بشكل صحيح. فأعاد (هولمز): «(أليس سندرلاند)».

أخرج الساقى ساعة صغيرة من الصديري الذي يرتديه، طالع الوقت ثم قال: «سيبدأ عرضها في غضون بضع دقائق». ثم تركنا ليلبي طلبات زبون آخر.

كان هناك طاولة صغيرة في الزاوية فارغة، فتوجهنا أنا و(هولمز) ناحيتها لنجلس عليها.

«ماذا كان يقصد؟». سألته محاولاً رفع صوتي لأغطي على تلك الثرثرة الصاخبة التي تملأ المكان، بينما كنت أجلس على كرسي صغير.

أجاب صديقي: «أعتقد أننا على وشك أن نستمتع بوقتنا». أوماً برأسه باتجاه الناحية الأخرى من الحانة.

في تلك البقعة كان الحشد يتحرك إلى الورااء ليكشف عن منصة يعلوها بيانو منتصب متهاالك، جلس زنجي كبير يرتدي قميصاً أبيض غير مهندم وعلى رأسه قبعة كبيرة أشبه بكرة البولنج. وضع أنامله على مجموعة من أزرار البيانو، بينما كان هنالك صوت يرتفع وهو يصيح: «التزموا الصمت أيها الرعاع، من أجل صديقتنا (سندرلاند)».

صعدت المسرح امرأة مهيبة، تضع على رأسها شعراً مستعاراً مشيراً للريبة كما لو أنه مصنوع من خيوط الزنجبيل، وترتدي ثوباً كبيراً لامعاً يبدو صغيراً للغاية بالنسبة لها، فقد كان جلدها منكمشاً عند كل منحنى أو فتحة بالثوب.

قالت بصوت عالٍ: «مرحباً أيها الأولاد والبنات الملاعين». استقبلها الجمهور بحفاوة، ثم شرع عازف البيانو في عزف نغمات الأغنية الشعبية (تذكرة الإجازة). بعد المقطع الأول من الأغنية راح معظم الزبائن يغنونها معها. ألقىت نظرة خاطفة على (هولمز) لأجده محافظاً على ابتسامة صغيرة توحى أنه يستمتع بوقته.

بعد أغنيتين أخريين أصبح الجمهور مفتونًا تمامًا بالأداء ومنسجمًا معه للغاية. ثم غنت صديقتنا الأغنية المؤثرة (أليس، أين أنت؟) فخيم صمت مطبق على الجمهور، واختتمت السهرة بأغنية (قطار الأنفاق). عندما انتهت، استقبلها الجمهور بالتصفيق وعبارات الاستحسان.

سألته: «هل هذه هي (أليس سندرلاند) التي نبحت عنها يا (هولمز)؟».

«لا أرى ما المانع في هذا. لقد حان الوقت لنكتشف ذلك بأنفسنا على أي حال.».

بدون كلمة أخرى وثب عن مقعده وشق طريقه وسط حشد من المعجبين المتجمعين حول (أليس سندرلاند). بدت مسرورة ومستمتعة بإعجاب جمهورها الواضح. بمكر لا يستهان به، تمكن (هولمز) من الالتفاف حولها والهمس في أذنها.

على الفور اختفت الابتسامة العريضة التي كانت تزين ملامحها. اتسعت عيناها من الصدمة وحدثت إلى صديقي للحظة دون أن تنبس ببنت شفة. تحدث إليها مرة أخرى واستجابت لثرثرته التي طالت دون أي اعتراض، ثم هزت رأسها في حالة عدم تصديق، بينما كانت عيناها تمسح بجميع أنحاء الحانة. همس (هولمز) بكلمات أخرى في أذنها، فردت عليها ببعض التردد أخيرًا وقد تضاعفت دهشتها. أومأ (هولمز) برأسه وابتعد

خلسة عن التزاحم كما اخترقه في المرة الأولى. في غضون ثوانٍ، عادت البهجة إلى (أليس سندرلاند) وهي تتحدث مع معجبيها، لكن هذه المرة لم تصل بهجتها إلى عينيها، اللتين نُقِشَ عليهما طابع الخوف والقلق.

قال صديقي عندما عاد إليّ: «أعتقد أنني أزعجت السيدة يا (واطسون)، مما يدل على أننا على المسار الصحيح».

«ماذا قالت؟»

«لم تقل الكثير، لكنها بدت منزعجة بشكل متوتر عندما أخبرتها أنني أود التحدث معها عن الطفل الذي أرسلته إلى ملجأ المشردين قبل ثماني سنوات. حاولت أن تنكر ذلك لكنني أخبرتها أن لدي دليل من السيدة (تشاندر) نفسها. أقنع ذلك «صديقتنا» في نهاية المطاف. قالت إنها لا تستطيع التحدث بخصوص الأمر الآن، لكنها دعيت مرة أخرى عندما تغلق الحانة عند منتصف الليل تقريباً». فرك صديقي يديه وهو يكمل: «يجب أن تكون هذه مقابلة ممتعة ومفيدة للغاية في قضيتنا».

الفصل الحادي عشر

من مذكرات د. (واطسون)

في وقت لاحق من تلك الليلة، كان بإمكاننا سماع رنين ساعة (بيج بن) في منتصف الليل ونحن نقرب من الحانة مرة أخرى. كانت الشوارع أكثر هدوءاً في تلك الساعة المتأخرة، ولكن لا يزال هناك أعداد متفاوتة من الناس هنا وهناك، أمثال السكارى والعاشرات وزبائنهن المحتملين، مع بعض المحتفلين في وقت متأخر من الليل، وفي مدخل الشارع العريض بعض الفقراء البائسون المشردون يتركزون في مواقعهم تلك طوال الليل.. كان لدى العامة انطباع أن هذا الجزء من لندن لا يهدأ أبداً، فالحركة والنشاط لا ينقطعان مطلقاً.

قال (هولمز): «زعمت مضيفتنا أنها ستترك باب الصالون مفتوحاً دون أن تحكم إغلاقه بالمزلاج حتى نتمكن من الدخول دون أن نطرق الباب». استطعنا أن نبصر الإضاءة الخافتة داخل المكان من خلال زجاج النوافذ المصنفر، مما يشي بأن هناك مصباحاً أو مصباحين لا يزالان مضاءين.

عند دخولنا المبنى للمرة الثانية هذا اليوم، اشتمت رائحة التبغ الرديء والعرق الكريه والبيرة اللاذعة التي أحرقت فتحتي أنفي. لا تزال هناك غلالة رقيقة من الدخان عالقة في الهواء كما لو أن الأمر أشبه بمشاهدة المكان من خلف حجاب شاش طبي ناعم. كان هناك ظل يتحرك بالقرب من بار المشروبات ومع تقدمنا أكثر في الصلاة، وجدنا أن الظل يخص رجلاً عجوزاً بكتفين منحيتين يمسح المنضدة. نظر إلينا بصمت كما لو أنه يسأل عن هويتنا.

قال (هولمز): «جئنا لمقابلة (أليس سندرلاند)».

أجاب الرجل بفضافة: «إنها بالطابق العلوي». ثم عاد لينهمك في التنظيف من جديد.

دلفنا من باب مكتوب عليه «خاص بالعاملين» في الناحية الأخرى من الحانة ثم صعدنا سلمًا ضيقًا لنصل إلى الطابق الثاني، الذي كان خافت الإضاءة بأكمله، وبه غرفة ذات باب مفتوح جزئيًا، ينبعث من داخلها ضوء متلألئ غريب. أشار (هولمز) بإصبعه صوب الباب وأنا أشعر أن جسده متصلب، ثم همس لي وهو يدفع باب الغرفة ليفتحها: «هناك خطب ما».

وبالفعل كان هنالك خطب ما؛ جسد (أليس سندرلاند) مستلق على أريكة طويلة بالغرفة المضاءة بنيران الشموع الوامضة، ورأسها يتدلى إلى الورا في استسلام، وهنالك خنجر

مثبت بصدرها، محاطًا ببقعة صغيرة من الدم المتجلط. قفز (هولمز) إلى الأمام صوب المرأة، حاول أن يستشعر نبضها ثم التفت إليَّ بحدة وهو يقول منفعلًا: «تفحصها يا (واطسون). لم نفقد كل شيء بعد». أنهى تلك الكلمات ثم هرع خارجًا من الغرفة وسمعتة يتسابق على الدرج مع مجهول.

وجهت انتباهي للسيدة الملقاه أمامي. حاولت بدوري أن أجس نبضها بأناملي. كان ضعيفًا للغاية وغير منتظم ولكنه لا يزال موجودًا. رفعتها إلى وضع الجلوس ثم غسلت جبينها بقطعة قماش مبللة أحضرتها من حوض غسيل في زاوية الغرفة. ارتجفت عيناها وانفتحتا تدريجيًا بعدما نجحت محاولتي في إيقافها. لكنني أعلم أن هذا النجاح لن يدوم، إنها يقظة مؤقتة وربما قد تكون الأخيرة. كان من الواضح أن المعتدي قد نجح في إنهاء حياة هذه السيدة. حدقت المرأة إلى وجهي دون أن تستوعب ما حدث لها. حاولت التحدث، لكن الكلمات لم تخرج من فمها. قلت: «سأحضر لك بعض الماء». فأومأت برأسها بشكل غير متزن.

«الجن⁽¹⁾، إذا سمحت». تمتت المرأة بهذه الكلمات القلائل، ثم عادت تهمس بآلم: «أعطني الجن».

(1) الجن هو مشروب كحولي قوي، يصنع من تقطير كحول البذور البيضاء وعنب الجونبير، الذي يمنحه طعمه الخاص.

لم أكن لأرفض طلبًا أخيرًا لامرأة تحتضر، لذلك مسحت
الغرفة بناظريّ مفتشًا عن زجاجة من الجن. لأعثر عليها بالنهاية
على طاولة صغيرة بجانب الباب.

بعد لحظات أعطيتها مشروبها. ارتشفته بترؤ، ثم علت شفيتها
ابتسامة خفيفة قبل أن تتمتم: «جميل».

بعد لحظات عاد (هولمز) وهو يصرخ: «الشیطان هرب
مني»، وكان جسده ينتفض من جهد المطاردة، ثم سأل: «كيف
حالتها؟».

هزرت رأسي في أسف، فأصدر (هولمز) تأوّهًا، وجثا على
ركبتيه بجانب (أليس سندرلاند).

قال معرفًا نفسه بصوته اللطيف: «إنه أنا (شيرلوك هولمز)»،
لكنني أعرف خصال صديقي جيدًا، هنالك وجه فولاذي على
ثغره لا يتماشى مع صوته اللطيف، سيحصل منها على أي معلومة
مهما كلفه الأمر. سألتها: «ماذا يمكنك أن تخبريني عن طفل عائلة
(تيمبل)؟ لقد اختطفه أحدهم. نحن بحاجة لإنقاذ حياته».

أغمضت المرأة المحتضرة عينيها للحظة وعندما فتحتها
امتلتأتا بالدموع، وهي تغمغم: «إنه طفل ثمين. إنه ملكي».
صحت في ذهول: «ملكك!».

«نعم، إنه ابن (ماري كيلبي) و(إيدي)».

نظر (هولمز) إلى نظرة سريعة وقال موضحًا: «(إيدي) دوق (كلارنس) الراحل، نجل أمير (ويلز)».

أكدت المرأة على كلام صديقي، بينما صوتها يخفت تدريجيًا حتى أصبح مجرد همس.

«كانا متزوجين، وظفرا بصبي صغير، أمير».

«(ماري كيللي)... كانت واحدة من ضحايا (جاك السفاح)...». تمتت بهذه الكلمات المتقطعة، عندها بدأت خطورة الموقف تنكشف ببطء في ذهني.

أومأت (أليس سندرلاند) برأسها في تعب مكملة كلامي: «كان (جاك السفاح) سلاحهم للوصول إلى (ماري) ثم إلى الصبي. لقد أرادوا قتله».

«من هم الذين يريدون هذا؟».

ضحكت المرأة المحتضرة لكنها خرجت من حنجرتها في صوت متحشرج وهي تجيب: «من تظن برأيك؟ أنت (ماري) إليّ وتوسلت أن آخذ الطفل لأي بر أمان بعيدًا عنها. كنت أعرف أن أيامها معدودة، فكيف لي أن أرفض؟». انسابت الدموع بحرية على وجهها الشاحب كالرماد. «لم أستطع إبقاء الصبي هنا. ليس في قلب (وايت تشابل). سرعان ما سيظفرون به».

«لذلك أخذته إلى ملجأ المشردين الخاص بالسيدة (تشاندرلر)، وهي عرضته بدورها للتبني».

أومأت (أليس) برأسها، مكلمة: «كل ما كنت أهتم به - كل ما كان يهم (ماري) بالأحرى - هو أن الصبي سيعيش. دون أي اهتمام بترائه الملكي أو أي شيء من هذا القبيل. اعتقدت أنه سيصبح بأمان هكذا، لكنهم اختطفوه في النهاية على أي حال.»
«من هم؟». كرر (هولمز) نفس سؤالي ولكن بلطف أكثر هذه المرة.

ومضت عينا المرأة وانغلقتا للحظة قبل أن تفتحهما، لقد أصبحت مقلتاها الآن أقل سطوعاً وأقل تركيزاً، كان نور الحياة يتلاشى منهما تدريجياً.

«أظن أنك تعرف إجابة هذا السؤال جيداً مثلي يا سيد (شيرلوك هولمز)». ابتسمت ثم هوى رأسها إلى جانبها، وعيناها تنغلقتان للمرة الأخيرة.

قلت بفرع: «يا إلهي يا (هولمز). ماذا يعني كل هذا؟»
«هذا شيء أنوي اكتشافه يا صديقي. إن ملابس هذه القضية المظلمة والخطيرة متغلغلة إلى حد بعيد. هناك شيء واحد واضح أمامنا، وهو إننا نتعامل مع منظمة شريرة وسافكة للدماء وهم يعلمون أننا نتعقب أثرهم. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإسكات تلك المرأة المسكينة. كانوا يعرفون أنها تحمل معلومات تعتبر حيوية بالنسبة لنا.»

ألقيت نظرة خاطفة على جثة (أليس سندرلاند) الدامية،
ورأيت البشاعة التي صنعها أعداؤنا، وارتجفت. سألته وأنا أغطي
وجه المرأة بقطعة قماش: «ماذا سنفعل بأمرها».
«سنجد شرطياً ونخبره بالحقائق المهمة ونترك الأمر بين يديه
لنرى ما الذي سيحدث بعدها».

بعد ساعة عدنا إلى شارع بيكر وجلسنا أمام الجمر المتوهج
من نيران مدفأتنا، وكل منا يحمل كأساً من البراندي في يده.
سألته في حيرة: «من قتل (أليس سندرلاند)؟».
«الرجل الذي بدا وكأنه يقوم بالتنظيف في البار عندما
وصلنا».

«لقد كان عجوزاً على مثل تلك المهمة».

«هكذا بدا. بصفتي ممارساً للتنكر، كان يجب أن أكون
أكثر تدقيقاً. عندما صعدنا إلى الطابق العلوي، كان قد ابتعد عن
الحانة بالفعل مثل الريح. هو له أسبقية بالطبع ليتمكن من أن
يسبقني وأفضل في اللحاق به. لكن يمكنني أن أؤكد لك أنه لم
يكن رجلاً عجوزاً على الإطلاق».
«أليس لديك فكرة عن هويته؟».

«على وجه التحديد، لا. لكن من الواضح أنه أحد الأتباع الذين هم جزء من السلطة المنظمة لكل تلك الأحداث وراء هذه القضية برمتها. إنهم مجموعة رائعة حقًا، في البداية لدينا الخاطفون، ثم الوحش البدائي الذي هاجمنا وكان سيقتلنا في مؤسسة (تشاندرلر)، وأخيرًا قاتل (أليس سندرلاند)».

«وما هو الدافع لكل هذا؟ ما الذي يريدونه؟»

«لست واثقًا تمامًا من ذلك، على الرغم من أن لدي بعض الفرضيات».

«وماذا عن (إيدي)، دوق (كلارنس) الراحل؟»

«هنا يكمن بيت القصيد». هز (هولمز) كأس البراندي الذي بين يديه، وهو يتابع: «إنها مجرد فكرة، أو بالأحرى فرضية، كانت منتشرة بين الجهات العليا من سكوتلاند يارد في وقت ظهور (جاك السفاح)، أن حفيد الملكة ابن أمير (ويلز)، الأمير (ألبرت فيكتور كريستيان إدوارد) دوق (كلارنس) و(أفونديل)، المعروف باسم (إيدي) بين أفراد عائلته، كان مرتبطًا بطريقة ما بجرائم القتل تلك».

«ماذا! هذا منافٍ للمنطق».

ابتسم (هولمز) معلقًا بسخرية: «كم أنت قديم الطراز. متى تتعلم أن من يرتدي التاج ليس بالضرورة أن يملك قلبًا نبيلًا؟».

«لا أستطيع تصديق أن...».

«ربما الأمر ليس كذلك.. حيث كان من الواضح أن (إيدي) لا يمكن أن يكون السفاح. فقد كان بعيداً عن لندن في إحدى المرات التي نفذ فيها السفاح إحدى ضرباته».

«حسناً إذن...».

«لكن...».

رفع (هولمز) سبابته في إيماءة توبيخ وهو يقاطعني: «هذا لا يعني أنه لم يكن مرتبباً بطريقة ما بتلك الجرائم الفظيعة».

«بطريقة ما؟ ماذا تقصد بحق السماء؟».

داعب (هولمز) ذقنه بعناية، وهو يجيب: «كانت هناك مؤامرة من الصمت داخل جدران سكوتلاند يارد خلال تلك الفترة المظلمة. كما تتذكر، كنت مشاركاً فقط في محيط التحقيق دون أي إضافات. حرص السيد (تشارلز وارين) أن يبقيني بعيداً عن القضية. لقد أراد التأكد من منعي من الوصول إلى قدر كبير من الأدلة التي جمعها المفتش (أبرلين) ورجاله».

«أتذكر هذا، لقد شعرت بالإحباط لأنه تم تهميشك في قضية مهمة كتلك».

«بالضبط. لكنها لم تكن غطرسة منهم أو شيئاً من هذا القبيل، كما حدث في بعض الحالات في الماضي. كان ذلك لأنهم عرفوا أنه إذا حصلت على كل الحقائق، لاستطعت حل القضية وكشف هوية (جاك السفاح)».

لم يناقش (هولمز) تلك القضية معي بهذه الصراحة من قبل. تذكرت كم كان حزينًا ومتجهماً في ذلك الوقت، لكنه لم يثق بي ليطلعني على ما حدث. استطعت الآن أن أرى من ملامحه المتوترة القلقة أن ذكرى معاملته بذلك الاحتقار ما زالت تسبب له الغضب والضيق حين تجول بخاطره.

«بالبقايا القليلة من المعلومات التي تمكنت من جمعها بنيت العديد من الفرضيات. كان مفتاح حل القضية هو الكشف عن الدافع. هل كنا نتعامل في ذلك الوقت حقًا مع رجل مجنون في غاية الذكاء ولكن لديه ضغينة مجهولة ضد العاهرات، أم كان هناك هدف أكثر شرًا ودهاءً وراء تلك الجرائم الدامية؟ حقيقة أن أحد أسماء أفراد العائلة الملكية قد تردد أكثر من مرة على السنة المحققين، والهمس بأنه قد يكون له علاقة بجرائم قتل السفاح، كان هذا أمرًا رائعًا حينها وقد أثار اهتمامي. سألت نفسي لماذا قد يكون هو؟ على الرغم من أن الرجل نفسه، (إيدي)، كان من الصعب أن يكون هو من ارتكب تلك الجرائم بالفعل، لأنه كان لديه ارتباطات ملكية في ليلتين على الأقل عندما وقعت جرائم القتل بذات التوقيت، بدا لي أنه يمكن أن يكون هناك نوع من الرابط بينه وبين وفاة أولئك النساء التعيسات.»

«لم تخبرني بكلمة واحدة عن هذا من قبل.»

«لم يكن هناك جدوى حتى لو كان بيدي دليل يدينه، فاستفساراتي بخصوص الجرائم قوبلت بالصمت، بل في الواقع أكثر من الصمت بمراحل؛ لقد حذرني السير (تشارلز وارين) بشخصه مستعيناً بكل نفوذه وسلطته، أخبرني أنه إذا واصلت التحقيق على هذا المنوال فسوف يُلقى القبض عليّ بتهمة ملفقة وسأسجن. لم يكن هناك سوء تفاهم حول هذا التحذير، لقد كان تهديداً صريحاً وواضحاً».

بعد أن أفصح (هولمز) عن هذا، شعرت بالدماء تتجمد في عروقي. إن فكرة إقدام شخصية عامة رفيعة المستوى مثل السير (تشارلز وارين) على هذا التصرف، لهو أمر صادم إلى أبعد الحدود، فصحت: «هذا أمر مخزٍ!».

«مخزٍ، لكنه غني بالمعلومات بالنسبة لي».

«غني بالمعلومات؟».

«ألا يشير وضع حد للتحقيق الذي أجرته في العلاقة الملكية بالجرائم إلى أنني أسير على الطريق الصحيح؟ وإلا لماذا تعمدت الشرطة تقليص نشاطي؟ لقد كان خائفاً من أن أكتشف الحقيقة».

«وما هي الحقيقة؟».

«لم أكن أعرف حينها، لكن الأحداث الأخيرة التي نعاصرها الآن ساعدت في كشف أحد الأسرار. فكر فيما قالته (أليس

سندرلاند) لنا قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. (ماري كيلبي) - التي تعتبر آخر ضحية من ضحايا (جاك السفاح) - ورطت نفسها في شكل من أشكال الزواج مع (إيدي) وأنجبت منه طفلاً صغيراً، وقد جعلها ذلك في وضع حرج لأن هذا الطفل كان وريثاً لعرش بريطانيا العظمى، بعد أمير (ويلز)».

«يا إلهي! طفل العاهرة؟».

«من المنطقي أن يشرع أحدهم في التخلص من الأم والطفل، بل ومحيهما من على وجه الأرض، سواء هما أو كل من عرف سرهما، من أجل حماية التاج».

«هذا مذهل. هل تعتقد أن نساء الشوارع أولئك، أو ضحايا السفاح على وجه التحديد، قد ذُبحن بسبب ما عرفنه عن هذا الأمر؟».

أوماً (هولمز) برأسه، مجيباً: «كل من عرف بأمر الزواج ووجود الصبي. يبدو أن السفاح كان يستهدف النساء للبحث عن (ماري كيلبي). قد تتذكر كيف ماتت الضحية الأخيرة، كانت الأكثر شراسة ووحشية بينهن جميعاً».

قلت: «بالطبع أذكر الأمر». حتى كطبيب رأى أهوال الحرب وعالج أفظع الجروح في أفغانستان انقلبت معدتي عندما قرأت التفاصيل المروعة لموت (ماري كيلبي) بالصحف. تم نزع أحشاء جسدها، بجانب تشويه وجهها، ناهيك عن تمزيق قلبها

من جسدها والذي أخذه القاتل معه. حتى الآن وأنا أكتب عن تلك الذكرى تتلوى معدتي عند التفكير في مثل هذا الفعل الرهيب المثير للغثيان.

«لحسن الحظ بالنسبة للصبي، لم يربطوا قط بين (ماري) و(أليس سندرلاند)، اللتين كانتا لديهما أثر كبير واتفاق سابق لإبعاد الطفل عن (وايت تشابل) في أقرب وقت ممكن». «لقد أخذته إلى ملجأ (تشاندر) حيث أصبح مجرد طفل مجهول كغيره، غير مرغوب فيه من ذويه».

أخذ (هولمز) رشفة كبيرة من مشروب البراندي، قبل أن يجيب: «بالفعل، ماتت الأم، لكن الطفل نجا. وبطريقة ما اكتشف أحدهم الهوية الحقيقية والمكان الحالي للطفل...». «الصبي الذي تُبني باسم (ويليام تيمبل)».

«وهكذا، صار الصبي مثل الـ(بهيموث)⁽¹⁾ حيث ظهر لتهديد النظام الملكي مرة أخرى على الملأ». هزرت رأسي بحزن، معلقاً: «والآن نالوا منه، لا شك أنهم قد قتلوه بالفعل».

حرق (هولمز) في جمر نار المدفأة الباهت بنظرة طويلة، ثم أجاب: «قد لا يكون الأمر بهذه البساطة يا (واطسون). كل

(1) وحش ذُكر في سفر أيوب.

هذا يتوقف على من هم الذين فعلوا كل هذا وما هي دوافعهم. ومع ذلك، هناك أمر واحد لا يحمل نقاش، فهذه المرة سأتابع هذا التحقيق حتى النهاية ولن يمنعني أي شيء، ولن يمنعني أي شخص».«

الفصل الثاني عشر

عندما استيقظ (ويليام) وجد نفسه في فراش طبيعي، يستلقي برأسه على وسادة ناعمة وجسده مغطى برفق بملاءات قطنية ناعمة. اعتقد للحظة أنه قد عاد إلى سريره في المنزل. استقام بظهره في حماس مبتسمًا، لكن سرعان ما تلاشت ابتسامته، فبينما يسمح المكان من حوله بعينه متوقعًا محيط غرفته المعهود أدرك أنه في غرفة لم يرها من قبل. مؤثثة جيدًا بأثاث باهظ الثمن ونار مشتعلة بشكل مبهج في الموقد. كانت الأنوار بالحجرة منخفضة وألقت النيران بظلال شريرة تتراقص على السقف المزخرف مما ضاعف من رعبه. كان هنالك سيدة مسنة جالسة على كرسي بالقرب من سريره تحيك شيئًا ما بهدوء، فتنبهت لحركته المفاجئة. اعتدلت من جلستها وهي تتطلع إليه. قالت بلطف: «سيد (ويليام). أنت مستيقظ».

«أين أنا؟ أريد العودة إلى بيتي».

ابتسمت السيدة وهي تنهض، اقتربت من الحائط بجانب الفراش وشدت حبل الجرس لاستدعاء أحدهم، ثم قالت: «أنت في بيتك بالفعل يا سيدي الصغير، في البيت الذي تنتمي إليه».

صرخ الصبي بتحدُّ: «هذا ليس بيتي». ملقيًا ببطانية السرير جانبًا.

«لا تزعج نفسك. لا أريد أن أضطر إلى إجبارك على النوم مرة أخرى. كن ولدًا مطيعًا وسيكون كل شيء على ما يرام».

مسح (ويليام) الغرفة من حوله بعينه مرة أخرى. بدا الباب وكأنه يلمع في ركن الغرفة على ضوء النار مثل السراب المغربي. من أجل بلوغه عليه أن يتخطى هذه المرأة العجوز أولاً. لاحظت نظراته المندفعة المتوترة وخمنت نواياه. انتصب جسمها وارتسم العنف على ملامحها، اختفت الابتسامة الودود والسلوك الهادئ ليحل محلها نظرات صقر قاسية ووحشية.

«عد إلى فراشك يا سيد (ويليام)». نطقت الكلمات بإيقاع متقطع مخيف.

لم يكن الصبي ينوي طاعتها. ولكن بمجرد أن اتخذ قراره بالفرار من أجل الحرية سبقه باب الغرفة وانفتح ليظهر من خلفه رجل طويل القامة.

بخطوات سريعة شق الرجل طريقه نحو الصبي، ثم قال بصوت موضوعي: «ما هذا؟ أنت مستيقظ؟».

صرخ الصبي: «أريد العودة إلى بيتي». وعويله يدوي بالأرجاء، ثم شرعت الدموع تتساقط على وجنتيه. انحنى الرجل المظلم إلى الأمام ووضع ذراعه حول كتف الصبي، ثم قال

بهدهوء: «ها أنت ذا. ابكِ كما تريد. فقد مررت بوقت عصيب، لكنك الآن بأمان وستلقى الرعاية اللائقة. لا داعي للقلق، أنت لست في خطر».

«أريد أمي».

هز الرجل رأسه علامة على النفي مجيباً: «هذا غير ممكن يا (ويليام). عليك أن تكون قويًا. أخشى أن أقول لك إنك لن ترى أمك وأباك مرة أخرى. كما تعلم فهما لم يكونا أمك وأباك الحقيقيين من الأساس. كانا فقط يعتنيان بك لفترة من الوقت، لتعود إلى قدرك في النهاية».

استمر الصبي في النحيب حتى سقط على الأرض، وقد أنهكته مشاعر الحزن والفقد.

«إنه واجبي أن أعنتي بك من الآن فصاعدًا. أنت فتى مميز للغاية يا (ويليام). هل كنت تعلم هذا؟».

حمل الرجل المظلم الطفل الباكي ليضعه على الفراش وهو يتابع: «نم الآن، وسيبدو كل شيء أفضل بكثير في الصباح. مع وجود بعض الطعام الدافئ الشهوي بداخل معدتك، سيبدو العالم مكانًا ألطف».

كرر الصبي شكوته: «أريد أمي».

ألقى الرجل البطانية على الطفل، ثم قال موجهاً حديثه للمرأة العجوز: «اتصلي بـ(سميثرز) إذا حدثت أي مشكلة. يجب أن أعود إلى لندن. لديّ عمل يجب أن أنهيه».

T t.me/tea_sugar

الفصل الثالث عشر

من مذكرات د. (واطسون)

على الرغم من الإرهاق التام إلا أنني لم أنم جيدًا في تلك الليلة. كان عقلي مكتظًا بمجموعة من الأفكار المتنوعة حول القضية الخطيرة التي نحقق فيها. اختلطت ذكريات جرائم (جاك السفاح) الدموية مع صور من مغامرات الليلة السابقة، التي اختلطت بدورها لمرّة ثالثة مع التأمّلات المتعلقة بدوق (كلارنس) والصبّي المختطف. كان الفجر قد بزغ بالفعل قبل أن أتمكن من الانزلاق إلى نوم يمكن أن أصفه بالهادئ.

كنتيجة للنوم المتقطع في تلك الليلة استيقظت متأخرًا في الصباح التالي. عندما توجهت إلى مرحاضني تساءلت عن مسار العمل الذي ينوي (هولمز) اتخاذه بعد ما توصلنا إليه، لم يذكر لي خطته المستقبلية لأننا جلسنا أمام نار المدفأة نشرب البراندي وناقش ملابس القضية دون التطرق لما يلي هذا. عند وصولي إلى غرفة جلوسنا وجدته على مائدة الإفطار، أو ما لي إيماة تعني تحية صباحية فرددت عليه الإيماة بدوري.

«وصلنا هذا صباح اليوم. وضعه شخص ما في صندوق البريد الخاص بنا».

(أعرف مكان الصبي. أستطيع مساعدتك. قابلني في (اللورد نيلسون)، (كريستوفر دو كس) في العاشرة من هذا المساء. تعال بمفردك.

(صديق)

حدقت إلى الورقة لبعض اللحظات، ثم سألته بعد أن طال صمتي: «هل يمكن أن يكون هذا حقيقياً؟».

ضحك (هولمز) وقال: «تقصد طعمًا حقيقياً؟ أعتقد هذا، تحاول العناكب إغراء الذبابة».

«ألن تذهب؟».

«يجب عليّ الذهاب، كيف يمكن أن أقاوم؟»

«لكنك اعترفت للتو بأنه فخ».

«إنه فخ لا شك في هذا، هذا لو كنت أحمق بما يكفي لأقع فيه. من نواح عدة هذه الرسالة مشجعة».

سألت بدهشة: «مشجعة على أي نحو؟».

«إنهم قلقون بشأن تدخلني في القضية. أنا أشكل تهديدًا عليهم ولذا فهم يرغبون في القضاء عليّ».

«وهذا هو المشجع بالأمر؟».

« هذا يعني أنني اقتربت للغاية من كشفهم. إنهم قلقون من أن أحبط كافة خططهم».

« لكنك لن تذهب الليلة».

« بلى، سأفعل حتمًا. ولكن ليس دون احتياطات».

« ما هي الاحتياطات؟».

« سوف أخبرك لاحقًا. هذا يكفي الآن، ولكن إذا كنت مصرًا، فستكون أنت جزءً من ترتيباتي إن لم تمنع».

« أنا دائمًا على استعداد للمساعدة، أنت تعرف ذلك، لكني أنصحك ألا تكون متهورًا بما يكفي لتلبية هذه الدعوة. من الواضح أنهم ماكرون ولا يستهان بهم».

« وأنا تنطبق عليّ ذات الصفات. هل يمكنني الاعتماد عليك الليلة؟».

« بالطبع».

ابتسم (هولمز) ابتسامة عريضة، ووضع راحة يده على كتفي وهو يقول: « في جميع تحقيقاتي أنت النقطة الثابتة الوحيدة يا (واطسون)، وأنا ممتن حقًا لذلك». أنهى عبارته، ثم توجه لغرفة نومه دون أي مقدمات.

ظل بها ولم يخرج قرابة نصف ساعة كاملة. عندما فُتح الباب في النهاية لم يكن صديقي (شيرلوك هولمز) الذي أعرفه هو من يقف على عتبة، بل كان رجلًا عجوزًا، عريض الكتفين، خشن

المظهر، يرتدي سترة رثة، وقبعة بحار مرتفعة مسحوبة لأسفل عبر جبينه بطريقة عجيبة. كان وجهه مزيناً بشارب أبيض كث، ويتدلى من فمه غليون أسود رفيع.

لم أتفاجأ بالطريقة التي تمكن بها (هولمز) من تقمص هذا التنكر المحكم، لأنني رأيتَه يفعل ذلك عدة مرات في سياق عملنا البوليسي معاً، لكنني لم أفقد قط هذا الشعور بالتساؤل عن الطريقة التي استطاع بها التحول بمثل هذه البراعة لمجموعة من الشخصيات التي كان كلٌّ من شكلها وشخصيتها مختلفين تماماً عن شخصيته الحقيقية. هنا كان أمامي ملاحظ طاعن في السن يسير بمشية منحنية قليلاً، ذو بشرة حمراء، لا يشبه في شيء المحقق النحيل الزاهد الذي كنت أترثر معه قبل ثلاثين دقيقة.

لمس قبعته بأنامله في تحية، وهو يقول: «(أبيل سيمان بيرد) العجوز في خدمتك يا سيدي. انتهيت لتوي من عملي بالإسكندرية، إنها رحلة طويلة بجزر الـ(أزور). أنا ذاهب للتجول في أرجاء (كريستوفر دو كس) لمعرفة ما إذا كان هناك أي أحقق قد يرافقني برحلتى القصيرة القادمة».

انفجرت من الضحك على هذا الأداء الرائع، ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة مضيئاً: «عليك أن تكون حذراً، وإلا قد تجد نفسك على متن سفينة أحدهم».

قال (هولمز) بشيء من الجدية هذه المرة: «وأنا دائماً حذر. ابقَ على أهبة الاستعداد لهذه الليلة. سأعود في الوقت المناسب».

الفصل الرابع عشر

في وقت لاحق من فترة ما بعد الظهر بذلك اليوم، في مكتب مجهول بأحد المباني الحكومية في (وايتهول)، استقبل (مايكروفت هولمز)، شقيق المحقق (شيرلوك هولمز) والعمود الفقري للحكومة البريطانية، زائرًا مميزًا للغاية.

قال رئيس الوزراء وهو جالس على كرسي مريح، ساندًا بذراعيه على مكتب (مايكروفت): «لا شك أنك على علم بسبب زيارتي».

«لقد توقعت هذا بالفعل يا سيدي، أو على الأقل أن يستدعيني أحد موظفيك للحضور. أعلم أنها مثل حالة (محمد) والجبل⁽¹⁾. لم أكن واثقًا من الذي سيزور الآخر بالنهاية». قالها للرجل الضخم ورائحة العطر تنبعث من ملابسه.

ابتسم رئيس الوزراء نصف ابتسامة منهكة وهو يقول: «دعنا نستغني عن التشبيهات الغريبة يا (مايكروفت). هذا الأمر خطير

(1) إشارة إلى مقولة إنجليزية أن الجبل إن لم يأت إلى محمد فإن محمدًا سيذهب إلى الجبل. نقله الفيلسوف فرانسيس بيكون عن اللغة التركية إلى الإنجليزية.

للغاية بالنسبة لمثل هذه التفاصيل الدقيقة». فأوماً (مايكروفت) برأسه علامة على التفهم.

«أنت بالطبع تعلم أن أخاك (شيرلوك) متورط الآن في الأمر».

تنهد (مايكروفت) مجيباً: «أثق أن (شيرلوك) لا بد أن يغرس نفسه في شيء كهذا. لديه موهبة في مثل تلك الأمور».

«ليس هناك شك في أنه رجل عبقرى، وبما أن أعداءنا الآن ينظرون إليه كما لو أنه عقبة في طريقهم فسيكون إشراكه رسمياً أمراً سياسياً ومفيداً. بالطبع هذا يعني أنه يجب أن يكون على علم بجميع الحقائق والأدلة التي بحوزتنا.

إنه ليس وضعاً مثاليًا أن نطلع غريبًا على أسرارنا، لكن لا يمكننا أن نتوقع من الرجل أن يكون ذا فائدة حقيقية إذا كان يجهل التفاصيل المتعلقة بالأمر. مهما كانت تلك المعلومات حساسة. لكن علينا الزعم بأن هذه حالة خاصة، من الممكن أن يكون قادرًا على تسليط الضوء على حلول الصعوبات التي نواجهها».

«وأنا أتفق معك بتلك النقطة، ولكنك ستدرك جيدًا أن أخي لا يتعامل بلطف مع تلقي التعليمات من الآخرين. من الضروري له أن يحتفظ بحرية حركته».

«يمكننا أن نسمح له بهذا التجاوز الصغير، لكن هذا الوضع حساس للغاية لدرجة أنه قد ينتج عنه كوارث إذا تركنا له الحبل على الغارب».

فرك (مايكروفت) ذقنه وتنهد مجيئًا: «القول أسهل من التطبيق العملي في حالة أخي».

«هذه مسؤوليتك يا (مايكروفت). يجب عمل كل ما في وسعنا لمحو هذا التهديد الرهيب. النظام الملكي وحكومة بريطانيا العظمى في خطر طالما هذا الظل يلوح في الأفق».

شعر (مايكروفت) بلهجة من التوبيخ في عبارة رئيس الوزراء الأخيرة بسبب انغماسه المبالغ فيه بالميلودراما، فحاول أن يتصنع الوقار ولم ينطق بكلمة أخرى بل اكتفى ببعض الإيماءات الصارمة التي تشير إلى أن الكلام مفهوم.

«يملك أعداؤنا الأفضلية في الوقت الحالي، أفضلية ملكية إذا جاز التعبير. أنا وحكومة جلالة الملكة، بل وصاحبة الجلالة نفسها، أجمعين نعتمد عليكما. هل هذا مفهوم؟».

«بالتأكيد يا سيدي».

«ممتاز. أبقني على اطلاع بالمستجدات في جميع الأوقات».

نهض رئيس الوزراء من الكرسي بشكل فخم وخرج بهيبة، تاركًا (مايكروفت) وحده.

«رباه». تنهد (مايكروفت) وهو يسترخي في مقعده مكرّرًا:

«رباه».

الفصل الخامس عشر

من مذكرات د. (واطسون)

عاد (هولمز) قرب الغروب بينما كانت المصابيح تُضاء على طول شارع بيكر، مرسلة أشعتها الكهرمانية الباهتة إلى كآبة المساء. جالسًا على مقعده الخاص المقابل لمرآة صغيرة، أزال صديقي تنكره المحكم بسرعة، وألقى شواربه الزائفة الضخمة بازدراء بعيدًا كما لو أنه قد اختنق منها.

صاح قائلاً: «يا ويلتي، الغراء المثبت وشعر الحصان مزيج ممتاز لإصابة الجلد بالالتهاب. تبدو ذقتي وكأنها قطعة لحم نيئة بسبب هذه اللحية المستعارة. صب لي بعض البراندي يا رفيقي الطيب، فبعد السير في شوارع (شورديتش) معظم اليوم أحتاج إلى ما ينعشني».

فعلت ما طلبه مني صديقي وناولته شرابه، ثم سألته وأنا جالس أمامه بجوار نار المدفأة: «هل أثمرت تحقيقاتك عن شيء مفيد؟».

«لست واثقًا تمامًا. سيتضح كل شيء اليوم. يكفي القول إنني تعرفت على كل زاوية كثيبة وركن مظلم في (كريستوفر دو كس). ليس هنالك بقعة صالحة للاختباء بالمكان لست على علم بها.»

«ما هو الفخ الذي تعتقد أنهم قد نصبوه لك؟»

«أعتقد أنه سيكون هناك مجموعة منهم متنكرون في زي بحارة مشاغبين، سيهجمون على الغريب الذي امتلك الجرأة على دخول أراضيهم. سيخرجون من الظلام كغرباء مجهولي الهوية وسيتهقرون إلى الظلام وهم ما زالوا مجهولين.»

«وكيف تنوي إحباط مثل هذا الهجوم بحق السماء؟»

أشرق ثغر (هولمز) بإحدى ابتساماته المتوترة وهو يجيب:

«سيكون عليك الانتظار ومشاهدة هذا بنفسك.»

«لكن إذا كنت لا تثق بي في إطلاعي على مخططاتك كيف يمكنني مساعدتك حينها؟ وعلاوة على هذا فأنت تعرض حياتي أيضًا للخطر معك.»

«وهل تظن أنني سأرمي بك للتهلكة عن طيب خاطر؟ لا، بالطبع لا يا (واطسون)، ستكون على مسافة آمنة من خصم الأحداث، لكن يجب أن تحمل مسدسك وأن تكون جاهزًا لاستخدامه دون أي تردد إذا دفعك الموقف لذلك.»

نهض من على كرسيه بخفة وهو يتابع: «الآن أنا بحاجة إلى خلع هذه الملابس التنكرية، والاعتسال جيدًا، والتخلص من

آخر بقايا هذا الغراء على ذقني. في هذه الأثناء، هل يمكنك أن تطلب من السيدة (هودسون) أن تعد لنا عشاءً مبكرًا؟ فطيرة باردة مع اللحم ستفي بالغرض. بعض البروتين سيمدنا بالطاقة اللازمة لتحمل قسوة هذه الليلة. ستكون أمستينا مجهدة وخطيرة على الأرجح». وبمجرد أن أنهى كلمته دخل غرفته.

قبل الساعة العاشرة من ذات المساء بقليل، غادرنا شقتنا لمغامرة ليلية أخرى. كان دوي ساعة بيج بن يتردد في الأفق في نفس اللحظة التي كنا نوقف فيها عربة أجرة. بدت النغمات الكثيبة للجرس العظيم الذي يدق بجدية بين نسيمات الليل البارد متوافقة مع مزاجي الحالي. كنت معتادًا أثناء لعبي الورق مع (هولمز) أن يجعل الأوراق ملتصقة بصدرة، كي أفضل أنا في الكشف عن تفاصيل خططه، وهذا هو ما يفعله الآن.

في الواقع، لقد توقفت عن عد المرات التي غامرنا فيها بالخروج من شارع بيكر في مهمة خطيرة، ولم يكن لدي أي فكرة عما قد نواجهه. لم يكن أمامي سوى الوثوق بصديقي ضمنيًا، فأنا مدرك تمامًا أنه لن يضع حياتي أو حياته في خطر لا داعي له، ومع ذلك كان من المحبط ألا أكون مطلعًا على الصورة الكاملة، ولم أستطع تجاهل الشعور بالخوف المتهيب مما قد يحدث هذه الليلة.

بناءً على تعليمات (هولمز)، حاكيت اختياره في نوعية الملابس التي أرتديها. على الرغم من أنني لا أبدو متنكرًا تمامًا، فقد ارتديت أقدم بدلاتي ومعطفًا رثًا كنت أملكه قبل أن أخدم في أفغانستان وكنت أنوي التخلص منه منذ فترة طويلة. بهذه الملابس من المفترض ألا ألفت الانتباه في المنطقة التي نوشك على زيارتها.

بعد حوالي ثلاثين دقيقة نزلنا من عربة الأجرة على بعد عدة شوارع من (كريستوفر دو كس)، في طريق ضيق مليء بالقمامة، ومحاط بصف من المنازل المتهاكلة.

«منطقة ساحرة، أليس كذلك؟». قالها (هولمز) وهو يلقي نظرة على المساكن الآيلة للسقوط مكملًا: «يقع منزل اللورد (نيلسون) العام على بعد شارعين من هذه البقعة التي نقف فيها. حين نصل لهنالك سأدخل بمفردي وستلحق بي بعد عدة دقائق. لا يجب أن تقوم بأي إشارة توحى بأننا نعرف بعضنا». «مفهوم».

«لا شك أن أحدهم سيدنو مني ويطلب مني مرافقته لمقابلة الشخص الذي بعث لي بالرسالة في صباح هذا اليوم، سيقودني إلى مكان مظلم وكثيب حيث ينوون التخلص مني». ضحك ضحكة مكتومة ثم تابع: «لن يحدث هذا يا صديقي العزيز، ثق في كلمتي. لقد نسقت هذا المساء بشكل متقن. لا تنسَ مهمتك وسيكون كل شيء على ما يرام».

«مهمتي! ما هي مهمتي؟». لم أستطع أن أمحو لهجة التكهن من عبارتي.

«اتبعني عندما أغادر شارع اللورد (نيلسون)، مع الحرص على إبقاء مسافة آمنة بيننا، يجب ألا يراك أي مخلوق. سيصطحبونني إلى نقطة اللقاء المزعوم حيث سيكون هناك شجار. أنا واثق من أن هذا ما سيحدث. خلال هذه المشاجرة سيفر واحد أو أكثر من مهاجمي، بعد أن يدركوا أن تلك المسرحية التمثيلية قد انتهت. مهمتك هي أن تتبعه، فهناك احتمال كبير أن يقودك إلى مقر العصابة». دنا (هولمز) مني وأمسك بذراعي مضيئاً: «كل ما عليك هو تحديد موقع اختبائه والعودة إلى شارع بيكر. يجب أن تعود سالمًا مهما كلفك الأمر لنستكمل التحقيق معًا، لم يحزن بعد وقت البطولات والاشتباك. هل هذا مفهوم؟».

أومأت برأسي بإيجاب دون أن أنطق.

«لا تكن عبوسًا لهذه الدرجة. كل شيء سيكون على ما يرام». على الرغم من ثقة (هولمز) المفرطة فيما يفعل، إلا أن التفكير في هذه القضية المحفوفة بالمخاطر منذ بدايتها، أصابني بهاجس مزعج أن الأمور لن تسير في صالحنا الليلة.

انتظرت خمس دقائق بعد أن اختفى (هولمز) داخل ظلام الشارع المنشود، ثم لحقت به. كان اللورد (نيلسون) عبارة عن حانة صاخبة مليئة بالدخان، ومكدسة بحشد من الأفراد ذوي

المظاهر الخشنة، معظمهم من الرجال، يحتفلون بصوت عالٍ وهم يسرفون في استهلاك الخمور بشتى أنواعها، كي يزيحوا حقيقة الواقع الأليم عن عاتقهم بتلك الليلة. كانت النساء القلائل الحاضرات بالمكان في منتصف العمر تقريباً أو ربما أكبر، يجلسن بمفردهن، شخصيات منعزلة عما يدور حولهن، على ما يبدو لقد فقدن الشعور بالموجودات من حولهن، أثناء احتساء الجِن. على الرغم من ملابس المتهالكة جذب مظهري بعض الاهتمام في البداية. سمعت شخصاً يتمتم: «أوه، انظر، أنيق آخر». التفتت بعض الأعناق تجاهي، لكن سرعان ما تبدد شغف الاهتمام بحضوري. طلبت مشروباً وجلست على طاولة بالقرب من باب الحانة الرئيسي.

كان (هولمز) يتكئ على البار ويدخن سيجارة ببساطة ولم يعطِ أي إشارة على أنه رآني. بعد حوالي عشر دقائق اقترب منه شخص رث الهيئة ذو وجه كثيف الشعر، يضع على رأسه عُصابة يغطي بها إحدى عينيه، يرتدي باعتزاز معطف جنود طويلاً رثاً لم ينظفه منذ سنوات طويلة. مال للأمام تجاه صديقي، وهمس بشيء في أذنه. أوماً (هولمز) برأسه، ونظر صوبي بنظرة موجزة سريعة. أضاف الرجل الأعور بعض الكلمات الخشنة، ثم استدار وتوجه نحو الباب بخطى سريعة. غمز لي (هولمز) غمزة خبيثة من عينه فتبعته.. انتظرت دقيقة وربما أقل، ثم أنهيت ما كان في

كوبي الزجاجي من شراب، ونهضت من مقعدي وتوجهت صوب الباب. لم أكد أقدم على هذا حتى منعني رجل قوي البنية يرتدي بذلة من نوعية (تويد) وهو يقول: «إلى أين تعتقد أنك ذاهب بحق الجحيم؟». سألني وهو يقرع بحدائه الأيرلندي على الأرض. سألته: «وما شأنك أنت؟».

«اسمعوا ذلك يا رفاق؟ ذلك الرجل يريد أن يعرف ما هو شأني ب...».

لم يكن لديه المزيد ليضيفه لأنني سددت لكمة قوية إلى ذقنه على الفور. لم يتوقع بالطبع أن تكون لكمتي بتلك القوة، ناهيك عن عنصر المفاجأة الذي زاد من قوتها، مما أدى لسقوطه مثل شجرة مقطوعة. كانت الحانة تضج من حولي بمزيج من الضحك والغضب. تحرك نحوي رجلان بحاجبين معقودين - دلالة على الغضب - وقبضتين مضمومتين، كان من الواضح أنهما صديقان لخصمي السابق. تخطيت جسد الرجل المنبطح بأسرع ما أستطيع، وخرجت مهرولاً من الحانة إلى الشارع.

رأيت من بعيد ظلي كل من (هولمز) ورفيقه، قبل أن ينعطفا يساراً إلى طريق آخر. ركضت في أعقابهما بعض الشيء ثم اختبأت في أحد المداخل، في نفس اللحظة التي خرج فيها ثلاثة من الرجال الصاخبين من حانة اللورد (نيلسون) لمطاردتي. كانوا في حيرة من أمرهم بسبب الشارع الفارغ أمامهم دون أدنى

أثر يدل على وجودي. سمعتهم يناقشون ما يجب القيام به بعد ذلك، حتى اتفقوا في نهاية المطاف على أن ينطلق اثنان منهم في الاتجاه المعاكس، بينما شق الضخم الذي اعترض طريقي منذ دقائق - الشارع الذي أختبئ فيه. تراجعت أكثر لأحتمي بظلال المدخل، ثم مر من أمامي وأكمل طريقه دون أن يلمحني.

قبضت على فوهة مسدسي ثم انزلت من مخبئي وظللت أتسلل وراء الرجل، دون أن يشعر أنني في ذيله. دنوت منه أكثر خلسة، لكن بمجرد أن رفعت مسدسي لكي أهوي بمقبضه على جمجمته استشعر اقترابي بطريقة ما، وصدرت منه زمجرة غريبة وهو يستدير، لكن لحسن الحظ كنت سريعاً للغاية بالنسبة له. لامس معدن سلاحه رأسه في اصطدام قوي. أطلق الضخم تأوهاً من حلقه، وارتجف جسده كما لو أنه أصيب بالشلل، قبل أن ينهار دون مقدمات على الحصى.

فحصت نبضه، كان ضعيفاً لكنه منتظم. سيعيش على أي حال، لكنه سيعاني من جرح مزعج وصداع شديد لبعض الوقت عندما يستعيد وعيه.

لم أهدر المزيد من الوقت على الرجل واستأنفت مهمتي، على أمل اللحاق بـ(هولمز) ومرشده قبل أن أفقد أثرهما في تلك الشوارع الأشبه بالمتاهة.

كان الحظ حليفي هذه الليلة، فبمجرد أن انعطفت إلى اليسار رأيت (هولمز) والرجل الآخر، وأبصرت كذلك شخصين غامضين من بعيد. اقتربنا كثيرًا من شارع (كريستوفر دو كس)، لكنني افترضت أنهم يصطحبون (هولمز) إلى المكان الذي يقع به المخبأ السري للأعداء. لم يكن لدي أي فكرة حقيقية عما يمكن توقعه، لكنني كنت عازمًا على تنفيذ أوامر صديقي.

حافظت على ملاصقتي للمباني على جانب الطريق ورحت أتبعهم بسرعة وبصمت عبر الشارع. انعطفت الرجلان يسارًا عبر بوابة تؤدي إلى ساحة مستودع. عندما وصلت إليها نظرت صوب حافة البوابات الحديدية المفتوحة الصدئة ورأيت (هولمز) ومرافقه يقفان في مواجهة بعضهما في محادثة هادئة. أشعل الرجل الذي يرتدي المعطف سيجارة، فأضاءت النيران وجهه لفترة وجيزة. يبدو أن هذا نوع من الإشارات المتفق عليها التي لا تستغرق أكثر من ثانية. تأكد ظني حين لاحظت ظهور ستة رجال من بين الظلال. على الرغم من أن وجوههم كانت غير واضحة، ولكن بالنظر إلى هذا الموقف كان من البديهي استنباط أن نواياهم بعيدة كل البعد عن الخير.

لقد كان الكمين الذي تنبأ به (هولمز) بحذافيره، ولكن الغريب أنه بدا في نظري غير مستعد. وقف بشكل طبيعي، جسده مسترخٍ، على ما يبدو غير مدرك للخطر الذي يحيط به. سحبت

مسدسي من جيبي استعدادًا لإطلاق النار على الرجال. كنت على وشك أن أصبح بـ(هولمز) كتحذير ليتوخى حذره، لكنني تراجعته حين رأيتَه بسرعة ومهارة مدهشة يسحب صافرة فضية من ثنيات معطفه ويطلق بها ثلاث صفارات قوية.

بدا الرجال مرتبكين من التصرف العجيب الذي قام به صديقي، وظهر عليهم الحيرة والترقب حيال ما قد يحدث بعد هذا. يبدو أن ترقبهم كان في محله حيث ظهر فجأة جيشٌ من الرجال كما لو أنهم نبتوا من العدم. اعتقدت أنهم دزينة على الأقل، يتحركون بسرعة. أسعفتني عيناى في هذا الظلام إلى حد ما، واتضح أن هؤلاء الرجال يخوضون شجارًا مع أعداء (هولمز). لاحظت أنهم كانوا صغار السن، يرتدون ملابس مهترئة، ولكنهم رشيقون ويحملون العصي والقضبان الحديدية. تعرفت على بعض وجوههم؛ كانوا (بيكر ستريت إيليجولارز) متمردي شارع بيكر.

لا شك أن (هولمز) قد رتب كل هذا مسبقًا. لقد اكتشف من خلال تحقيقاته أن الرجل سيقوده إلى هنا، في ساحة المستودع تلك، وسيكون في انتظاره فخًا، فخًا مميّتا. كان من الواضح أن (هولمز) لن يستطيع أن يهرب من هذه المواجهة حيًا. لقد تأثرت وسعدت بسبب فطنته الثاقبة التي أنجدته، وفي نفس الوقت كنت منزعجًا كالعادة بسبب عدم إطلاعي على خططه من البداية.

كان لدي القليل من الوقت للتفكير في أي من الشعورين يستحوذ على كياني أكثر، فالمعركة على أشدها أمامي. انطلق أفراد المتمردين مثل الوحوش الضارية يهجمون على الرجال الذين كانوا يتقدمون نحو (هولمز). لقد كان من الرائع أن أراهم يتجمدون من الصدمة بينما ينطلق المتمردون حولهم من كل حذب وصوب برشاقة وخفة. سرعان ما أصبحت نتيجة المعركة واضحة، فقوات (هولمز) لم تفوق خصومنا في العدد فحسب، بل كانوا أذكى منهم أيضًا. هؤلاء الشباب أذكاء وأفضل تسليحًا من خصومهم.

سرعان ما واجه خصومنا صعوبة في التراجع. فقد اثنان منهم وعيها بجروح دامية في الرأس، بينما حاول الآخرون الفرار، لكن دون جدوى. قفز شاب من المتمردين مفعم بالحيوية على ظهر أحد الرجال وضربه على رأسه بعصا حتى سقط على الأرض فاقداً الوعي بدوره.

لاحظت أن الرجل الذي قاد (هولمز) إلى هذه البقعة شرع في شق طريقه للخلف بين الظلال خلسة، بينما كان صديقي نفسه يقف بلا حراك، مثل تمثال من الفحم الحجري يشرف على الإجراءات من حوله دون أن يتدخل. كنت أعلم أن صديقي ينوي السماح لهذا الوغد بالهروب وعرفت أن وظيفتي هي أن أتبعه.

حاولت أن أرى المشهد عن كثب، لاحظت أنه لم يفر أي من الآخرين من براثن المتمردين، لكن هؤلاء المجرمين ربما هم ليسوا أكثر من مجرد موظفين مستأجرين على أي حال، ولن يكون لديهم معرفة حقيقية بالقوة المسيطرة في هذه المنظمة الشائنة. من ناحية أخرى، كان رفيق (هولمز) هو الخزانة التي تحوي بداخلها كل الأسرار. تجاوز الرجل الأعور جدران المستودع وشق طريقه عبر البوابات وخرج إلى الشارع. كنت في إثره على الفور.

ساعدتني مغامراتي مع (هولمز) على مر السنين في تطوير موهبة التخفي لمتابعة أحدهم دون علمه. مثل أن أجثم على ارتفاع منخفض من الأرض، أنظر صوب هدفي على استعداد للاختباء عن الأنظار إذا حرك محجري عينيه صوبي في أي ثانية، ناهيك بالطبع عن التسلل على أطراف قدمي دون أي صوت يذكر.

راح الرجل يركض بكل قوته، ثم توقف للحظة ملتقطاً أنفاسه، كل هذا وأنا أتبعه. بينما كنت ألاحق الرجل الأعور عبر الشوارع المظلمة، لم يكن لديّ أدنى فكرة إلى أين ستقودني هذه المغامرة أو مدى خطورة ما أنا مقدم عليه.

الفصل السادس عشر

كان (شيرلوك هولمز) يشعر بالرضا عن نفسه وهو جالس على كرسيه بالقرب من جمر المدفأة في غرفة الجلوس في 221ب شارع بيكر. أشعل لنفسه إحدى السجائر التي كان يحتفظ بها في علبة الفحم، وبينما كان يدخنه، ابتسم.. كل شيء سار على ما يرام تلك الليلة. بل سار بشكل أكثر من ممتاز. تدخل المتمردون في الوقت المناسب بشكل رائع، مثل تروس منتظمة في آلة عملاقة، وأصبحت النتيجة هي المناوشات كما خطط لها. كان من الواضح أن الرجل الأعور أحد أفراد تلك المنظمة وسيقود (واطسون) إلى مركز العصابة دون أن يدري.

أعادت هذه الأحداث صورة البروفيسور الراحل (جيمس موريارتي) إلى ذهنه. لطالما كان ينظر إلى البروفيسور على أنه عنكبوت ماكر يجلس وسط شبكة عملاقة بها ألف نسيج، وكان (موريارتي) يعرف ما بجعبة كل نسيج منهم عن ظهر قلب.

كان اختطاف طفل عائلة (تيمبل) يشبه المخططات التي كان البروفيسور يدبرها. كاد (هولمز) أن يشعر بوخز من الأسف لأن العبقرية الإجرامية لم تعد موجودة لتتحداه، وهو الآن راقد

تحت المياه المضطربة لشلالات (ريتشيناخ). ومع ذلك كان من الواضح أن أيًا كان هذا الخصم الجديد فهو في نفس ذكاء وحنكة البروفيسور العبقري.

نظر (هولمز) إلى ساعة جيبه ليجد أن الوقت قد قارب على الثالثة صباحًا. تساءل كم من الوقت سيستغرق (واطسون) للعودة. لقد رآه يتسلل بخلسة رائعة من ساحة المستودع لتعقب الرجل الأعور. كان (هولمز) يعلم أنه يستطيع الاعتماد على صديقه العزيز في أداء واجبه الليلة وبكل ثقة. لم يكن هناك رجل يستحق أن يأتمنه على حياته عندما يحيط به الخطر أكثر من (جون واطسون). أخذ (هولمز) بعض الأنفاس من سيجارته وهو يفكر بتلك الأحداث.

بدأت ثقة المحقق تتلاشى تدريجيًا عندما بلغته خيوط ضوء الصباح عبر فجوات الستائر. نظر إلى ساعته مرةً أخرى لمعرفة الوقت. ما هذا بحق السماء؟ كانت الساعة الثامنة تقريبًا. أين هو (واطسون) بحق السماء؟ بالتأكيد هو لن يستغرق كل هذا الوقت في تتبع الرجل ذي العين الواحدة إلى عرينه، كي يعلم موقعه ثم يعود إلى شارع بيكر. على الرغم من أن (هولمز) كان دومًا صاحب الأفضلية في التفكير بشكل منطقي وموضوعي، لكن عقله تجنب للحظة السبب الواضح والأكثر ترجيحًا لغياب صديقه، وهو أن شيئًا ما قد حدث له، شيئًا غير سار على الإطلاق.

نهض (هولمز) بطريقة مضطربة وبدأ يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً في توتر. ما الذي يفعله بحق السماء؟ كان هذا هو الوضع الذي لم يعد له حساباً. بشرود تقدم صوب النافذة وسحب الستائر ليترك ضوء الصباح يتدفق إلى الشقة. وأثناء قيامه بذلك كان هنالك طرق على الباب! ارتفعت معنوياته للحظة، لكنه سرعان ما سخر من حماقته متذكراً أن صديقه لم يطرق باب منزله قط، فهو يمتلك مفتاح الباب بالفعل. ثم أصغى مرة أخرى، هذه المرة أدرك (هولمز) إيقاع الطرق المميز؛ إنها السيدة (هودسون).

سألت المرأة: «متى تريد الإفطار يا سيد (هولمز)؟».

هز (هولمز) رأسه كما لو أنه يحاول إبعاد أي تشتيت عنه، مجيباً: «لن أطلب أي شيء اليوم، شكراً لك».

«ماذا عن الدكتور (واطسون)؟».

«(واطسون)! إنه بالخارج».

«حقاً؟ حسناً كما تشاء». كان بإمكانها أن تميز وبوضوح أن (هولمز) لا يتحدث بروح الدعابة كعادته، بل كان جاداً للغاية، ومن دون كلمة أخرى ابتعدت عن عتبة الغرفة حتى يتحسن مزاجه.

يارهاق توجه (هولمز) إلى غرفة نومه حيث كان من المفترض أن يحلق شعره، ويرتدي ملابس جديدة، وهو يحاول التفكير في خطوته التالية. بعد أن أتم كل هذا عاد إلى غرفة الجلوس،

شعر على الفور بوجود شخص غيره بالمكان. في البداية ابتسم، معتقداً أن (واطسون) قد عاد، لكن سرعان ما أخبره عطر ما بعد الحلاقة خلاف ذلك، فتلاشت ابتسامه (هولمز). كان يجلس مخفياً عن الأنظار على إحدى الأرائك. إنه شقيقه (مايكروفت) الذي قال: «صباح الخير يا (شيرلوك)».

أجاب (هولمز): «(مايكروفت)، أشعر دائماً بالارتباك والخوف عندما أجدك بشحمك ولحمك في غرفتي. أخشى أن تكون كارثة ما قد حلت على البلد، لكي تنعطف عن طريقك الثابت - المتمثل في التردد إما على المباني الحكومية أو نادي (ديوجين) - لزيارتي. لا يوجد ما هو مهم ليقتنعك بتغيير روتينك، لذا يجب أن يكون هناك مأساة ومصيبة خاصة تدفعك لهذا».

ابتسم (مايكروفت) ابتسامه كثيبة وهو يجيب: «بصفتك محققاً استشارياً فإن المآسي والمصائب هما كالخبز والزبد بالنسبة لك».

جلس (هولمز) مقابلاً لأخيه الذي قال: «لقد أخذت حريتي في طلب القهوة من السيدة (هودسون) أثناء صعودي إليك. أنا معتاد على ارتشاف مشروب دافئ في هذا الوقت من الصباح».

وكما لو كانت جملة سرية متفق عليها فبمجرد أن أنهى عبارته سمع كلاهما طرقاً خفيفاً على الباب، ثم دخلت صاحبة العقار بصينية عليها إبريق قهوة وإبريق حليب وأكواب فخارية.

سألت المرأة في أدب: «هل تريدان مني أن أصبه لكما أيها السيدان؟».

فأجاب (مايكروفت) بلطف: «لا، لا يا سيدة (هودسون)، يمكننا الاعتناء بنفسينا. شكرًا جزيلاً. سأترك هذه المهمة لـ(شيرلوك)».

بعد رحيل السيدة (هودسون) السريع، صب (هولمز) القهوة باحترافية شديدة، فقال (مايكروفت) بمرح: «شكرًا لك يا (شيرلوك). يبدو أن (واطسون) ليس موجودًا. يبدو أنه لم يعد لممارسة الطب أو الخدمة في الطوارئ الطبية لأنني ألاحظ حقيقته الطبية بالقرب من الباب».

«ما السبب وراء هذه الزيارة؟». سأله (هولمز) بصراحة، وهو يعتدل في مقعده.

«أعتقد أنك تعرف جيدًا سبب وجودي هنا».

«ليس لديك مذكرة اعتقال باسمي حتى الآن، أو أي نوع من الإنذارات، أليس كذلك؟».

تجهمت ملامح (مايكروفت) لأول مرة وهو يعقد حاجبيه، ثم هز رأسه، مجيبًا: «لا، لم تفعل شيئًا يستحق هذا».

«إنهم يلعبون لعبة طويلة».

«مما يصيينا بالارتباك، كلما طالت مدتها».

«من هم؟».

«كنت أتمنى أن تخبرني أنت بذلك».

«هل يمكنني أن أثق بك؟»

«إذا كنت تعلم من هم فإنني أنصحك بشدة أن تخبرني يا (شيرلوك). لا أتمنى أن أرى أخي ينقل إلى برج لندن».

«لا أعرف حتى الآن. لكن يمكنك أن تتكلم وتلقي بالسيدة (تشاندر) في الحجز».

استرخت ملامح (مايكروفت) مرة أخرى وانفجرت شفتاه بابتسامة صغيرة مجيئاً: «هل يمكننا هذا حقاً؟ لقد هربت هي ومساعدتها من السفينة قبل أن تغرق بهما. أخشى أننا أرسلنا وحدة عسكرية بسيطة إلى مؤسستها ليلة أمس للعثور عليها. لم نعثر على أي من طاقم العمل أو الأطفال حتى. لا وجود لأي دليل».

«إنهم محترفون، أليس كذلك؟».

«ماذا تعرف عن القضية يا (شيرلوك)؟ من الضروري أن تخبرني، وأن تطلعنا على تحقيقاتك».

«كلمة (تطلعنا) تلك أفترض أنك تشير بها إلى الحكومة البريطانية، أليس كذلك؟».

لم يرد (مايكروفت) على سؤال أخيه.

شيك (شيرلوك) أصابع يديه وهو يقول: «بادئ ذي بدء أعتقد أنه من الضروري أن تخبرني بكل تفاصيل هذا السيناريو المظلم، لتأكد فقط إذا كنت أعرفه بالفعل كما تظن أم لا».

«أنا واثق من أنك تعرفه بالفعل».

«أجب تساؤلاتي أولاً».

زفر (مايكروفت) بعمق، ثم أخذ رشفة من كوب القهوة قبل أن يحدق إلى أخيه من فوق حافة فنجانته، وأخيراً قال بعد طول انتظار: «حسناً إذن، منذ حوالي ثماني سنوات ارتبط الأمير (ألبرت إدوارد) دوق (كلارنس) بشكل غير شرعي مع العاهرة (ماري كيللي). كان مهووساً بهذه المرأة لدرجة أنه تزوجها بالفعل وأنجب منها طفلاً. عندما وصل هذا الخبر إلى أفراد معينين في القصر - لا تسألني عن أسمائهم لأنني لا أستطيع ولن أفصح عن هذا - وضعوا خططاً لتدمير هذا الارتباط الشائن... عن طريق التخلص من الأم والطفل. كان يُنظر إليهما على أنهما تهديد للنظام الملكي واستقرار الحكومة».

توقف (مايكروفت) مؤقتاً، متوقفاً أن يعلق شقيقه بأي شيء، لكن (هولمز) لم ينطق، ملامحه الهزيلة كانت جامدة كما لو أنها موضوعة في قناع صلب بارد، وعيناه تلمعان بازدراء، فأكمل (مايكروفت):

«وهكذا جرى البحث عن المرأة...».

«ذبحت هي والآخرون». قالها (هولمز) بقوة مكملًا: «كل من يعرف بشأن هذه القصة في شوارع (وايت تشابل) وقعوا ضحية لـ (جاك السفاح)، القاتل بتعيين ملكي».

رفع (مايكروفت) يده في تحذير مجيبًا: «أنت تعلم أن هذا ليس صحيحًا. جلالة الملكة وأقرب مستشاريها، بمن فيهم رئيس الوزراء، لم يكن لديهم علم بذلك على الإطلاق».

«لكن بعض الأشخاص ذوي السلطة قد فعلوا ذلك».

أوماً (مايكروفت) برأسه في أسف: «خرجت الأمور عن السيطرة، عليّ الاعتراف بهذا».

ضحك (هولمز) بمرارة وقال: «أنت حقًا أستاذ في الكلام المعسول الدبلوماسي».

«إنه جزء من عملي، وهو نعمة ونقمة في نفس الوقت. لكن دعنا نعود لموضوعنا؛ قُتلت (ماري كيلبي)، لكن لم يُعثر على الطفل».

«حتى عثروا عليه الآن».

«بالفعل. الصبي، وريث العرش، قد اختطفه أشخاص مجهولون لأسباب غير معروفة حتى الآن».

«ولكن يمكن للمرء أن يخمن».

«اعتقدت أنك لا تخمن قط وتعتمد على الحقائق لا غيرها».

«ليس هذا هو الوقت المناسب للتلاعب بمعاني الكلمات يا (مايكروفت). أنت تعلم كما أنا مدرك بالضبط أن هؤلاء المجرمين سوف يستخدمون الصبي ككبش فداء، للحصول على ما يريدون».

«أتفق معك في هذا ولا أنكره، هذا يعتبر أمرًا مفروغًا منه.. لكن ماذا يريدون بالضبط؟ هذا هو السؤال الذي لا نعرف إجابته بعد. ومع ذلك لا يمكننا الجلوس مكتوفي الأيدي بينما ننتظر الإجابة الواضحة؛ علينا أن نتحرك، وعليك أن تتصرف».

«أنا؟».

«أنت متورط بالفعل في القضية ولا مجال للتراجع. يأمرك رئيس الوزراء أن...»

«مهلاً، يأمرني؟»

«يطلب منك، إذا كنت تفضل تلك الصيغة، أن تركز كل جهودك على التحقيق في هذه القضية، فهي ذات أهمية وطنية حيوية».

لم يرد (هولمز)، بل نهض بشكل مفاجئ وأحضر غليونه الرمادي الطويل من حافة الموقد وملأ فوهته بكمية من التبغ الفارسي، ثم أمسك بالملقط وأخرج جمرة من نار المدفأة وأشعل غليونه بعناية. عندما ظهرت ملامحه من وسط سحابة من الدخان اللاذع، تحدث أخيراً قائلاً: «أنا مدرك لحقيقة أنك في موقف

صعب. أمرك أسيادك المبجلون أن تقنعني بالتعاون معكم في القضية بأي ثمن. لكنك لست مرتاحًا لهذا الأمر، خاصة وأنك تعرف مدى عناد أخيك ومراوغته».

«أجل بالفعل، أنا على دراية بتصلب رأسك».

ضحك (هولمز) مجيبًا: «ومع ذلك، في هذه المناسبة بالذات، سأوافق على طلبك، ولكن بشروطي فقط».

«كنت أتوقع مثل هذا السيناريو تمامًا على أي حال».

«بالطبع توقعت يا أخي. يمكننا قراءة أفكار بعضنا بسهولة مثل عمود المشورة في صحيفة التايمز».

«لم أقرأ عمود المشورة في صحيفة التايمز مطلقًا من قبل، لكنني أقبل تشبيهك. ما هي شروطك؟».

«أن أجري تحقيقاتي بأسلوب الخاطى دون مساعدة أو إعاقة من قوى خارجية. أنا محقق مستقل ولست عضوًا في الشرطة. يجب ألا أكون تحت المراقبة أو التتبع بأي شكل من الأشكال. أنت تعلم أنني سأكتشف بسهولة أيًا من تلك الأمور. لن أبلغ عن كل حركة أقوم بها أو كل شبح أراه في الأفق. سأتواصل معك فقط عندما نكون على وشك الوصول إلى نقطة الذروة. يجب أن تنتظر اتصالي بك دون أن تتعجلني. هل كلامي مفهوم ومتفق عليه؟».

فتح (مايكروفت) فمه ليقول شيئاً ثم راحت عيناه تومضان بأنه تراجع عما كان يفكر فيه. أوماً برأسه وهو يقول: «إذا كنت تصر على أن يكون الأمر على هذا النحو...».

«نعم أنا أصر».

«ليكن إذن. سأبلغ رئيس الوزراء، لكن يا (شيرلوك)... لا أحتاج أن أذكرك أنه يجب التعامل مع هذه القضية بسرعة. الوقت هو جوهر المسألة».

«بالفعل أنت لم تكن بحاجة إلى ذكر ذلك، فأنا أتفهمه جيداً».

نهض (مايكروفت) من كرسيه، مضيفاً: «سأتركك الآن يا (شيرلوك)، فلديك من الآن وصاعداً عمل لتقوم به».

نفث (هولمز) سحابة أخرى من الدخان من غليونه، مما أدى إلى حجب وجهه مرة أخرى، وهو يقول في إيجاز: «أنت محق في هذا».

عندما تحرك (مايكروفت) نحو الباب، تشبث بذراع أخيه، وقال بلطف: «خذ حذرك». ثم خرج من الشقة.

عاد (هولمز) إلى كرسيه. بغض النظر عن الأثر الدرامي لزيارة (مايكروفت) والمهمة التي كلفه بها، لم يكن هناك سوى فكرة واحدة في ذهن المحقق تتمثل في: أين (واطسون) بحق السماء؟

الفصل السابع عشر

من مذكرات د. (واطسون)

تتبع الرجل الأعور عبر متاهة من الشوارع الخلفية، بين الجدران القذرة والأزقة الضيقة. اعتقدت أكثر من مرة أنني قد فقدت أثره، لكن لحظي الحسن ومثابرتي العنيدة، كنت قادرًا على اقتفاء أثره. وصل أخيرًا إلى زقاق بالقرب من طريق (وولويتش) واقرب من عربة يبدو أنها تنتظره. رفع قبعته عن رأسه وصعد إلى العربة. في هذه المرحلة ظننت أنني خسرت المباراة، حيث لم أكن أتوقع هذا التطور على الإطلاق. لا شك أن العربة ستنتقل في غضون لحظات وهي تحمل الرجل الأعور، وسأفقد أثره للأبد دون أن أقدر على تتبعه من جديد. كان الطريق مهجورًا وكانت فرصتي في العثور على عربة أجرة أخرى في هذا الوقت المتأخر من الليل وفي هذه المنطقة النائية من أجل استكمال المطاردة ضئيلة للغاية، تكاد تكون مستحيلة.

بينما أفكر في حل لهذه المشكلة المعقدة، لاحظت أن العربية ليس بها سائق! حين دنوت أكثر، شعرت بوجود أحدهم في الظلال خلفي، ثم بادرني إحساس بشيء حاد صلب صغير ينغرس في ظهري.

قال صوت أجش في أذني: «إنه محشو بالرصاص. أي حركة مفاجئة وسأضغط على الزناد. سوف تكون ميتًا في الحال».

هوى قلبي بين قدمي. بعد كل جهودي في التخفي عن الأنظار، فقد وقعت في الأسر في النهاية. تملكني حينها خيبة أمل عميقة، بدلًا من الخوف من حدة هذا المأزق، سلب الكلام من بين شفتي ولم أتمكن من الرد على آسري. دفعني بفوهة المسدس وهو يقول: «تحرك نحو العربية. سنأخذك في جولة صغيرة».

أطعت أمره على مضض، ففتح الرابط باب العربية وخرج منها. كان لا يزال يرتدي معطف الجندي البالي والملابس القديمة، لكنه أزال رقعة العين وكان من الواضح أنه يضع لحية كاذبة وشعرًا مستعارًا. كان الرجل متنكرًا! تطلعت الآن إلى الملامح الشابة الواضحة للرجل، التي لم تشوبها أدوات تنكر زائفة هذه المرة، ورأيت وجهًا دقيقًا يحمل زوجًا من العيون الساطعة التي توحى بذكائه.

تقدم للأمام ووضع يده على كتفي. بدت لي كما لو أنها إيماءة ودية منه تقريباً، خاصة أنها كانت مصحوبة بابتسامة عريضة، لكن الوميض البارد في تلك العيون الحذرة، يروي قصة مختلفة، ويخفي سرّاً آخر.

«آوه، إنه (واطسون) من كان يتبعني إذن. كنت أتمنى أن يكون رفيقك (هولمز)». تجعد أنفه في انزعاج وهو يكمل: «ليس القائد ولكن نائبه على أي حال. هذا أمر مؤسف، ولكن...». هنا رفع يده عن كتفي وطرق على خدي بلطف مكماً: «أفترض أنك ستفي بالغرض. اركب العربة دون جلبة». دفعني الرجل المائل ورائي بالمسدس في ضلوعي مرة أخرى. كنت أعرف أنه في الوقت الحالي لا يوجد شيء يمكنني فعله سوى إطاعة أوامرهم دون مناقشة حفاظاً على حياتي. عندما دخلت العربة، تلقيت ضربة قوية على رأسي وسقطت للأمام، وكان عقلي يدور ممهداً لفقداني للوعي.

لقد دُفعت إلى الاستيقاظ بطريقة مفاجئة وقاسية، فقد غمرت بالماء الثلج فوق رأسي، مما جعلني أنهض فزعاً في لحظتها. هزرت رأسي بشدة، كي أزيل قطرات الماء عن رأسي ثم رحت أتفقد المكان ببصري من حولي. كنت في غرفة مضاعة بشكل

خافت، ومربوطاً بإحكام إلى كرسي، وكان أمامي ذلك الرجل الذي تتبعته من حانة اللورد (نيلسون) متنكراً في زي جندي عجوز، برفقته رجل آخر تعرفت على ملامحه المميزة على الفور؛ كان المفتش (دومينيك جاونت) من سكوتلاند يارد الذي زارني في منزلي أنا و(هولمز). في البداية وبغباء لا أحسد عليه، قفز قلبي بفرح لجزء من الثانية، لأنني اعتقدت أنني وقعت في أيدي القانون وتم إنقاذي رغم كل شيء. كان عقلي لا يزال مرتبكاً من الضربة السابقة لفقداني الوعي، لكن حواسي استعادت تركيزها بسرعة. أدركت أن طريقة التقييد ووسيلتهم في إيقاظي كانتا علامتين كافيتين على إثبات أن هؤلاء الرجال كانوا هم الأشرار. قال (جاونت) ببساطة: «مرحباً بعودتك يا دكتور. يجب أن أعترف أنك تمثل خيبة أمل بالنسبة لنا. كنا نتوقع أن يكون السيد (هولمز) نفسه جالساً حيث تجلس أنت الآن».

«أنت أسوأ أنواع المجرمين على الإطلاق يا سيدي. شرطي يسيء إلى منصبه المرموق».

ضحك (جاونت) بصوت عالٍ، مجيباً: «حقاً، أنا مجرم؟ لا بأس، أعتقد أنني كذلك بالفعل. لكن كما ترى، كنت دائماً متفانياً في عملي. فطالما كانت مسيرتي المهنية في قوة الشرطة مقنعة ومشرفة، فستكون دوماً وسيلة أتمكن من خلالها تعزيز خططي والنهوض بوكري الخاص الصغير».

«إن دناءتك وحقارتك تفوقان كل تصوراتي إذن».

رد (جاونت): «هذا وارد. دنيء وحقير معًا! أترى يا (هينشو)، نحن بصحبة رجل بليغ أدبيًا. حسنًا، ربما يا دكتور، أنا كل هذه الصفات مجتمعة، ربما وأكثر من ذلك، لكن يجب أن تعلم أن لي اليد الطولى هنا وأنت تحت قبضتي الآن».

«ربما في هذه اللحظة فحسب».

ضحك (جاونت) مرة أخرى قائلاً: «أنت لست طبيبًا ذا ميول أدبية فحسب ولكن أيضًا تحمل لمسة سخيقة من التبجح. لا بأس، اسمح لي أن أحبطك قليلًا يا صديقي ببعض الحقائق القاسية إلى حد ما داخل حدود داري. أنا أنوي قتلك قريبًا ولا يؤسفني أن أقول إنني لن أتردد في هذا على الإطلاق. ومع ذلك، قبل أن أفعل هذا سأستخدمك لإغراء صديقك المزعج (شيرلوك هولمز) ليهوي بين برائتي، ومن ثم سيصبح كلُّ منكما سعيدًا مع الآخر حتى في الموت».

تدفق الغضب في عروقي، وصارعت للتححرر من قيودي، ولكن دون جدوى. كنت أعلم أن التشاور ليس ذا قيمة في هذا الموقف العصيب، ولم أكن أنوي إلقاء الشتائم أو السباب على خصمي لأن هذا لن يزيده إلا تسليية وإرضاء غرور بأنه المنتصر.

التفت (جاونت) إلى رفيقه قائلاً: «جرده من ساعته وسلسلته؛ الحلبي التي سنستخدمها كطعم».

اقترب مني الرجل المسمى (هينشو) وسلب مني ساعتني الذهبية، التي كانت تخص أخي، بالإضافة إلى ساعة أخرى بسلسلة في غلافها، التي كانت على شكل درع فضي صغير يحمل شارة الفرقة الخامسة بفيلق الـ(نورثامبرلاند فيوسليرز الملكيون) التي خدمت بها. سلمهم إلى حليفه الذي وضعهم في جيب سترته.

قال (جاونت): «ستترك الآن يا دكتور. كما تعلم بلا شك، فأنت مقيد بإحكام، بجانب أن باب الغرفة سيُغلق بإحكام من خلفنا حتى لا يكون هناك جدوى من محاولة الهروب. أفضل شيء يمكنك القيام به هو الجلوس بهدوء والتفكير في زوالك الوشيك عن وجه الأرض».

ابتسم ابتسامة مقتضبة ثم استدار الرجلان وغادرا الغرفة وأغلقا الباب خلفهما كما قال، ثم سمعت المفتاح يدور في القفل مؤكداً على إحكام قفله. لقد تركاني في غرفة شبه مظلمة يغلفها الصمت المطبق. حاولت بالتأكيد أن أتملص من قيودي، لكن يبدو أن من أحكم وثاقها كان خبيراً. لم يكن هناك أي فرصة على الإطلاق للخلاص من الحبل الذي يقيد حركتي وساعدي. كل ما خرجت به هو احتكاك جلد معصمي كلما حاولت المقاومة. هوت روعي المعنوية أرضاً. يبدو أنه لا يمكنني فعل أي شيء للهروب من هذا المصير الذي رسموه لي ولـ(شيرلوك هولمز).

الفصل الثامن عشر

كان الفجر يتبدد أثناء اقتراب (جاونت) من المنزل الكبير الذي يتزين بأبراج سوداء شاهقة الارتفاع ويسطع من حولها هالة من أشعة الشمس المشرقة. تحركت العربة تطوي الطريق طيًّا، فقد كان السائق يعلم أن من مصلحته نقل راكب العربة بأسرع ما يمكنه، وهذا ما فعله. انزلت العجلات على الأرض كما لو أنها تطير، حتى توقفت العربة عند المدخل الرئيسي، فخرج (جاونت) من العربة.

صاح في السائق: «انتبه إلى الحصان. سأعود بعد ساعة. كن جاهزًا حينها».

أجاب الرجل وهو يحرك قبعته للأسفل: «تحت أمرك يا سيدي».

صعد (جاونت) الدرج إلى المنزل واختفى بداخله عن نظر السائق، قال بفضافة للخادم: «سيدك ينتظرنى بالداخل». وهو يسلم قبعته وقفازيه إلى الخادم الكهل. «هذا صحيح، إنه ينتظرك في غرفة المعيشة».

دون كلمة أخرى، انطلق (جاونت) من بهو المنزل. كان على دراية كبيرة بتصميم هذا المنزل، فقد زاره مرات عديدة حتى حفظه عن ظهر قلب.

اشتعلت النيران بشكل متوهج في مدفأة غرفة المعيشة، لكن الستائر كانت لا تزال مسدودة والإضاءة خافتة، فملأت الغرفة بظلال متموجة غريبة.

كان بالداخل رجل طويل القامة ذو مظهر مميز، يجلس بجوار نار المدفأة، وحين لمح اقتراب (جاونت) من جانبه ارتسمت على وجهه ابتسامة ترحيبية.

«(دوم)، من الجميل أن أراك.»

تعانق الرجلان، بينما الرجل طويل القامة يجيب: «كنت على وشك أن أصب لنفسي مشروبًا. ما زال الوقت مبكرًا على هذا، لكنني أتوقع أن تهتم أنت بفعل ذلك بعد الرحلة الأخيرة والعمل الليلي.»

أوماً (جاونت) برأسه وجلس بجوار نار المدفأة، ثم قال الرجل الطويل مكملًا: «طوال عمري لم أهتم بالوقت أو المناسبة قط فيما يتعلق بعادات الشرب الخاصة بي. إذا كنت راغبًا في بعض شراب البراندي فسأصب واحدًا لنفسي إن أردت.» ثم قال بجدية: «إذن، أخبرني بكل ما حدث.»

«أخشى أن هنالك بعض المضايقات قد حدثت رغمًا عنا.»

« اشرح بمزيد من التوضيح. يجب أن أتأكد من نقل كل التفاصيل إلى رئيسنا، كي يكون على اطلاع بالصورة كاملة. فهو الذي يملي علينا الأوامر التي ننفذها.»

أوماً (جاونت) برأسه معترفاً: «أخشى أن (هولمز) قد اخترق شبكتنا.»

أطلق الرجل الطويل صيحة غاضبة وقال: «هذا الرجل! لقد تليقت تحذيراً بأننا سنواجه متاعب معه بمجرد أن يهتم بقضيتنا. إنه أكثر خطورة علينا من كل رجال سكوتلاند يارد مجتمعين. كم أتمنى أن تقذفه السماء بصاعقة تنهي أجله في أقرب وقت.»

ابتسم (جاونت) وهو يقول: «ربما نوشك نحن على القيام بما يعادل هذا. على الرغم من أننا لم نتمكن من إيقاع صديقنا المزعج في الشرك الذي أعدناه له، لكننا تمكنا من القبض على شريكه التابع له.»

توقف الرجل الطويل عن صب الشراب والتفت إلى رفيقه الشاب، وقد ارتسم على على وجهه بعض الحيرة وهو يسأل: «عن أي شريك تتحدث؟ هل تقصد ذلك الرجل المدعو (واطسون)؟»

«إنه هو، الدكتور (جون واطسون)، رفيق (هولمز) وكاتب سيرته الذاتية والصديق المقرب له. إنه بحوذتنا في (جرين واي)، وسنستخدمه كطعم لإيقاع السيد (هولمز) في قبضتنا.»

«حسناً، دعنا نأمل أن يحدث هذا بالفعل. إنه أمر مشجع حقاً. سوف أؤخر إرسال المعلومات المتعلقة بكبوتنا الصغيرة في الوقت الحالي، فهذه الأخبار ستزعج الرئيس وتغضبه. من الأفضل ألا نخبره بشيء سوى بشرى موت (هولمز)، وسنبداً تحويل هذه الأمنية لحقيقة ملموسة منذ الآن، ومن غير الحكمة اتخاذ أي خطوة أخرى في أي شيء، حتى نتأكد أولاً من أن (هولمز) بعيد عن طريقنا وبشكل نهائي قاطع. هذه العملية حساسة بما فيه الكفاية دون الحاجة إلى القلق من تدخله بدوره».

قدم الرجل الطويل لـ (جاونت) شرابه، ليقول هذا الأخير: «شكراً». ثم أخذ جرعة كبيرة من كأسه وقال: «يوماً أو اثنين على الأكثر وأعتقد أن كل شيء سينتهي. سيعثرون على (هولمز) طافياً على نهر الـ (تايمز) مع وجود قطع عرضي في حنجرتة. وعلينا الاعتراف أن بضعة أيام أخرى من الصمت ستزيد من توتر الحكومة». ثم ضحك لهذه الفكرة الماكرة.

تحسس الرجل الطويل ذقنه بعناية قائلاً: «أنا أعتمد عليك يا (دوم). هذه المسألة حاسمة».

انحنى (جاونت) إلى الأمام في كرسيه وقبض على ذراع الرجل وهو يقول بهدوء: «أعلم هذا».

«رائع. هل ترغب في رؤية الصبي قبل أن تذهب؟».

«بالفعل، سأفعل هذا».

«إذن عليك أن تسرع. أعتقد أن الوقت قد حان لأخذه لبؤرة الأحداث. أكمل مشروبك أولاً ثم سأخذك لرؤيته».

بعد عشر دقائق اصطحب الرجل الطويل (جاونت) إلى أحد طوابق المنزل العلوية. بنهاية ممر ضيق، كان هناك رجل قوي في منتصف العمر جالسًا خارج باب، وكان هناك مصباح زيت صغير يتوهج لهيبه على طاولة صغيرة بجانبه. عندما رآهما الرجل قادمين من آخر الرواق هب واقفًا تلقائيًا، وهو يقول بصوت متحرج: «سيدي»، بطريقة توحى كما لو أنه لم يستخدم صوته هذا على الإطلاق من قبل.

سأل الرجل الطويل: «هل كل شيء على ما يرام يا (تايلور)؟». رفع (تايلور) يده إلى جبهته في تحية أقرب للعسكرية: «لا شيء يستحق الذكر يا سيدي».

أوماً الرجل الطويل برأسه وهو يقول: «حسنًا. افتح الباب». دفع (تايلور) بسترته للخلف عن وسطه، ليظهر مفتاحًا معلقًا بحزامه، حرره مما يتشبث به واستخدمه لفتح الباب. دخل (جاونت) ورفيقه الغرفة. كانت غرفة كبيرة، مضاعة بشكل خافت، تحتوي على سرير واسع وخزانة ملابس وعدد قليل من الكراسي. جلست الممرضة على كرسي منهم، وأدت بدورها تحية مماثلة لتلك التي أداها (تايلور) عند رؤية سيده الطويل. كان الصبي يجلس القرفصاء على السرير، ويضع لوحة رسم على ركبتيه يرسم عليها.

نظر الصبي إلى الرجلين، وصرخ دون مقدمات: «هل أتيت لتأخذني إلى المنزل؟». ألقى لوح الرسم جانبًا على الفور وقفز من على السرير.

«لقد قيل لك من قبل إن هذا هو منزلك الآن. نحن عائلتك الجديدة». قالها الرجل طويل القامة ولكن برفق ودون أي نوع من القسوة.

«لا أنتم لستم كذلك. أنتم أشخاص سيئون. أنا أكرهكم». قالت المريضة: «مهلاً، مهلاً يا سيد (ويليام). أنت لا تقصد هذا».

«بلى، أقصد ما قلته. أريد والدتي».

تنهد الرجل الطويل في يأس وهو يجيب: «المرأة التي ادعت أنها والدتك قد ماتت وكذلك الرجل الذي تظاهر بأنه والدك». تجمد الصبي في حالة من الصدمة عند سماع هذه الكلمات، وقد اكتسى وجهه بالرعب وعدم التصديق. كان من الواضح لـ(جاونت) أن عقل الفتى الصغير يواجه صعوبة في استيعاب الهول الكامن في الأخبار المروعة، بأن الشخصين اللذين كان يعتبرهما والديه قد ماتا.

«لا، لا، هذا ليس صحيحًا، أنت تكذب». بكى الصبي وراحت الدموع تنهمر من عينيه. أطلق الفتى العنان لنفسه بالانقضاض على الرجل الطويل وضربه بقبضتيه الصغيرتين.

بسهولة قيد الرجل حركة الصبي وهو يقول: «ولماذا قد أكذب عليك؟ لأي سبب؟ وما الذي قد يدفعني لاختلاق مثل هذه القصة؟».

أمسك الرجل الطويل بالصبي من كتفه ثم جثا على ركبتيه بحيث كان وجههما متقاربين بذات المستوى.

«اسمع يا (ويليام)، أعلم مدى صعوبة هذا الأمر بالنسبة لك، ولكن كلما تقبلت حقيقة أنك لن ترى هؤلاء الأشخاص مرة أخرى كان ذلك أفضل».

تلوى وجه الصبي الماء، ثم هرع بعيداً عن الرجل طويل القامة، وألقى بنفسه على السرير وهو يبكي، وراح جسده يرتجف من فرط النحيب. تحركت الممرضة لتهدئته، لكن الرجل الطويل أوقفها بإيماءة عصبية، ثم قال وهو يهز رأسه: «لا، يجب أن يتعلم كيف يتخطى هذه الحقيقة بمفرده. لن يؤدي التعاطف والتدليل إلا إلى تأخير نضوجه. ألا توافقني الرأي يا (دوم)؟».

أوماً (جاونت) برأسه، وهو في قرارة نفسه لا يولي أي اهتمام للموقف برمته. فبالنسبة له، لا يمثل الصبي أكثر من مجرد بيدق في لعبتهم، ويمكن الاستغناء عنه عندما تتحقق غايتهم.

«حان الوقت لأعود إلى المدينة. لدي عمل لأقوم به في سكوتلاند يارد، وفتح يجب أن أنصبه».

فابتسم الرجل الطويل، قائلاً: «رحلة موفقة».

الفصل التاسع عشر

عاد (شيرلوك هولمز) إلى شارع بيكر في وقت متأخر من بعد ظهيرة ذلك اليوم. كان متكرراً مرة أخرى كذي قبل في هيئة بحار قاسي الملامح. حافظ على مشيته المنحنية المتعرجة حتى أغلق باب شقته خلفه، فوقف أخيراً منتصب القامة في ردهة منزله، مما أدى إلى عودة جسده إلى شكله الطبيعي وطوله المعتاد. لم يكن يعرف تمامًا ما الذي يجب فعله أو حتى استنتاجه من رحلته الاستكشافية تلك بعد الظهر، لكنه على الأقل اكتشف خطأ آخر في اللغز. وكان هذا وليد الصدفة ليس أكثر. لقد أمضى بعض الوقت في التجول بين أزقة وحارات الشوارع المحيطة بشارع (كريستوفر دو كس)، حتى أنه قد زار حانة اللورد (نيلسون) مرة أخرى ليرى إذا كان بإمكانه أن يعثر على أي من الرجال الذين شاركوا في عملية الليلة الماضية، أو أي شيء قد يمنحه دليلاً على مكان (واطسون). لم يجد بحثه أي ثمار تذكر كما كان يظن. كان يعلم من البداية أنه يتشبه بقشة هزيلة ويحاول الإمساك بذرة غبار. بالطبع سيقدم هؤلاء المجرمون على الاختفاء عن الأنظار، خاصة بعد ما حدث من كوارث الأمسية السابقة بالنسبة

لهم. لا بد أنهم جميعًا مستقلون الآن على أسرتههم وهم يعالجون جروحهم وكبرياءهم معًا، بعد أن أبرحهم ضربًا مجموعة من الفتية الصغار.

على مضض وبكل أسف توصل (هولمز) إلى استنتاج مفاده أن غياب (واطسون) يعني شيئًا واحدًا فقط، هو أن العصابة يحتفظون به بين برائتهم. لقد فشلوا في هدفهم الرئيسي - المتمثل في التخلص منه - لكنهم نجحوا في الإيقاع بـ(واطسون). لقد دعا الله أن يكون الأمر مقتصرًا على احتجاز صديقه في مكان ما حيًا يرزق، ولم يتخلصوا منه بعد. تلاطمت أمواج الذنب فوق عاتق (هولمز) وهو يفكر في تلك الاحتمالية بالذات. لم يشعر قط بالعجز وقلة الحيلة في أي تحقيق من قبل، وكان يدرك أنه بسبب تورط (واطسون) هذه المرة، فإنه سيسمح للعاطفة بالتدخل في حكمه وقراراته. في ظروف أخرى، بغض النظر عن مدى دراماتيكية أو خطورة التحقيق، كان قادرًا على أن يظل واضح الرؤية وموضوعيًا في التفكير، ويتعامل فقط مع الحقائق والمواقف بطريقة دقيقة وحريصة. وكما هو واضح، لم يكن هذا هو حال (هولمز) الآن.

بينما هو على وشك صعود الدرجة السبعة عشر على السلم المؤدي إلى شقته خرجت السيدة (هودسون) من منزلها. كانت معتادة على ظهور (هولمز) في أروقة العمارة بكل أشكال التنكر

تلك. كان لديها زوج من العيون الأنثوية الحادة، على نقيض (واطسون) الذي يتفاجأ كل مرة، ولكن السيدة (هودسون) نادرًا ما تنخدع بتقمص المحقق المتقن.

«أوه، سيد (هولمز)!». قالتها بشكل صريح وهي تخاطب رجل البحر العجوز هذا دون أن تشك للحظة أنه ليس (هولمز)، قبل أن تكمل: «هناك زائر ينتظرك منذ قرابة ثلاثين دقيقة. رجل مهذب من سكوتلاند يارد».

أوماً (هولمز) برأسه إيماءة شكر، وبينما كان يشق طريقه صاعدًا الدرج لشقته، أزال الكثير من الزوائد التنكرية على وجهه، كالشارب العملاق، والأنف المزيف والشعر المستعار، ثم دسهم في جيب معطفه. عند دخوله إلى غرفة الجلوس بشقته، أبصر المفتش (دومينيك جاونت) واقفًا بجانب المدفأة يلقي نظرة على كتيب صغير. أدرك (هولمز) أن هذا الكتيب هو واحد من دراساته الخاصة، والتي أخذها المفتش من خزانة كتبه لتصفحها أثناء انتظاره.

رفع (جاونت) حاجبًا مندهشًا عند ظهور المحقق في الشقة. على الرغم من أن (هولمز) أزال عناصر التنكر التي كانت تخفي ملامحه الحقيقية منذ ثوانٍ إلا أنه لا يزال يبدو بعيدًا عن شخصيته الأصلية، بسبب ملابسه الرديئة التي لا تليق به، ومظهره غير المهندم بشكل عام.

«تعمل على قضية، كما أظن؟». سأله (جاونت) بسخرية.

خلع (هولمز) معطفه عن جسده متجاهلاً ملاحظة الضابط وهو يسأل: «ماذا يمكنني أن أقدمه لك أيها المفتش؟ لم أتوقع رؤيتك مرة أخرى بهذه السرعة». كانت طريقته في الحديث فظة وليس لها علاقة بالاحترام من قريب أو بعيد.

ابتسم (جاونت) بلطف وقال ببساطة: «لقد أمسكوا بـ(واطسون)».

تجمد (هولمز) واتسعت عيناه بدهشة، وهو يسأل: «كيف عرفت؟». كانت كلماته توحى بأنه حائراً بالفعل وغارقاً في الخوف.

دس (جاونت) يده في جيب معطفه الداخلي ليخرج منها ساعة ذهبية وسلسلة يعرفهما (هولمز) ويعرف صاحبها عن ظهر قلب. قال (جاونت): «لقد وصلت هذه الحلبي إلى سكوتلاند يارد بوقت الغداء، وكانت من المفترض أن ترسل إليك».

مد (هولمز) يده، فسلمه (جاونت) الساعة ليلقي نظرة متفحصة عليها. تفقد (هولمز) الساعة بعناية، فأدرك أنها ساعة (واطسون) من دون شك.

«من الغريب أنها وصلت إلى سكوتلاند يارد طالما كان من المفترض أن ترسل لي». قالها (هولمز) وهو يقبض على الساعة في راحة يده: «لماذا لم توصل إلى شارع بيكر؟».

هز (جاونت) كتفيه مجيباً: «ربما أرادوا إخبارنا بأنهم نجحوا في التفوق على (شيرلوك هولمز) العظيم». لم تكن هناك سخرية في نبرة صوت (جاونت)، لكن الكلمات بالتأكيد حملت هذا الشعور لـ (هولمز).

«أرادوا؟ ومن تظنهم هؤلاء الذين أرادوا ذلك؟».

«الأوغاد الذين خطفوا الصبي. أعتقد أنك خمنت هذا جيداً

مثلي».

قال (هولمز) بحذر: «أنا لا أخمن أي شيء. هل كان هناك أي ملاحظة، أو أي طريقة تواصل أخرى مرفقة بالساعة؟».

أوماً (جاونت) برأسه بالإيجاب وهو يخرج ورقة من معطفه وسلمها إلى (هولمز)، الذي أخذها منه واقرب من النافذة، ثم تناول عدسة القراءة المكبرة من ركن المواد الكيميائية. أمسك الورقة تحت أشعة الضوء، وتفحصها بعناية. لم يقل شيئاً، لكنه كان يهمس لنفسه بكلمات غير مسموعة، بينما كان زجاج العدسة يتحرك فوق محتويات الورقة. كانت هناك رسالة مطبوعة بأحرف كبيرة تقول:

«عزيزي (شيرلوك)

لقد احتجزنا الدكتور (واطسون) كسجين لدينا، وحياته مهددة بالخطر إذا لم تفعل ما نخبرك به. إذا كنت تريد رؤيته مرة أخرى، تعال إلى جسر (واترلو) عند منتصف الليل بمفردك. لا تحاول أن تتذاكي. خطأ واحد منك وسيقطع عنق (واطسون)»

سأل (جاونت): «ما رأيك في هذا؟». أجاب المحقق بحذر: «لا يشي بالكثير. هنالك نبرة تحدّ واضحة».

«بالتأكيد لن تذهب لهذا اللقاء؟».

لم ينطق (هولمز) بحرف واحد، لكنه رفع حاجبيه.

«سيكون من الجنون أن تذهب».

«يجب أن أذهب، فليس لدي خيار آخر».

«من الممكن أن يكون هناك عشرات الرجال الأشداء في انتظارنا حتى...».

صاح (هولمز) مقاطعاً: «ليس هناك (نحن) في الموضوع! يجب أن ألتزم بتعليماتهم. وأن أذهب بمفردي».

«ستكون حياتك في خطر».

«بالطبع أعلم هذا، ولكن إذا لم أفعل سيقتلون (واطسون). لا يمكنني السماح لذلك بالحدوث. لكن يجب أولاً أن أحرص على ألا يتدخل أي من قطاع الشرطة في الأمر. هل هذا مفهوم؟».

تردد (جاونت)، وهو يعقد حاجبيه قبل أن يرد: «إذا كنت مصراً».

«أنا مُصرٌّ بالفعل».

«لا أعرف ما الذي سيقوله رؤسائي بخصوص هذا الأمر، لكنني لا أظن أنهم سيسمحون لك بمواجهة هؤلاء المجرمين وحدهم».

«إذا كان لدى رؤسائك أو لديك أنت شخصيًا أي مخاوف بشأن هذا الأمر فيمكنكم استشارة أخي (مايكروفت)، الذي ينوب عن رئيس الوزراء في تولي أمر هذه القضية. أنا واثق من أنه سيأمر الجميع بالالتزام برغباتي الشخصية».

فقال (جاونت) وهو يزم شفثيه: «كما تريد إذن. أعتقد أنه لم يتبقَّ بوسعي سوى تمنى الحظ السعيد لك».

«أشكرك على أمنيته الطيبة أيها المفتش، لكنني أخشى أن يلعب هذا الحظ دورًا صغيرًا في مغامرة الليلة».

اتخذ (جاونت) طريقه مغادرًا الشقة، لكن (هولمز) استوقفه وهو يقول: «أخبرني أيها المفتش، كيف تسلمت سكوتلاند يارد الساعة والرسالة؟».

بدا (جاونت) منزعجًا بعض الشيء من هذا السؤال واستغرقه الأمر بضع لحظات قبل أن يرد: «تسلمهم المكتب الرئيسي في طرد من الورق البني. لقد كانت موجهة إليك، لكنها استقرت على مكثبي لأن الخاطفين كانوا يعلمون أنني كنت سأراك لاحقًا من أجل قضية الصبي المخطوف».

«فهمت. هل لديك ورق تغليف الطرد؟».

«لا أعتقد هذا. لقد تخلصت منه بمجرد أن كشفت عن محتويات الطرد».

تنهد (هولمز) وهو يجيب: «كان هذا التصرف غير حكيمًا على الإطلاق. ربما منحنا من الاستنتاجات أكثر من الطرد ذاته».

«لقد كان مجرد طبقتين من الورق البني...».

«هل كان عليه خط كتابة ما؟».

«أجل، لكنها تافهة تمامًا».

«غالبًا ما يكون الشيء غير المهم في نظر العامة هو الذي

يمكن أن يقود المرء إلى الأهمية القصوى».

تبادل (جاونت) التحديق مع المحقق، فتنهد (هولمز) مرة

أخرى ثم ارتسم على ثغره ابتسامة قاتمة، وهو يقول: «لا تهتم.

على الأقل لدينا الرسالة. أنا على ثقة من أنك لن تعترض البتة

على الاحتفاظ بها في الوقت الحالي. قد يتيح لي تفحصها فرصة

للتعرف على كاتبها».

«بالطبع هي رهن إشارتك».

انتقل (جاونت) إلى باب الشقة، وتناول قبعته من الرف، ثم قال وهو يستدير لمواجهة المحقق

مرة أخرى: «هل أنت واثق تمامًا من أنك لن ترغب في بعض

مساعدة الشرطة الليلة يا سيد (هولمز)؟ أخشى على سلامتك

وأشعر بالذنب إلى حد ما، للسماح لك بالتعامل مع هذا الوضع

الخطير بنفسك».

«يمكنك أن تريح ضميرك، فأنا أعفيك من أي مسؤولية تجاه هذا الأمر. أنا مقتنع بأنه من الضروري أن أقوم بهذه المهمة بمفردي دون أي تدخل خارجي».

«كما تريد. طاب يومك يا سيد (هولمز)».

«طاب يومك أيضًا أيها المفتش».

بمجرد أن أغلق المفتش الباب، ضحك (هولمز) باستخفاف بصوت عالٍ وقال في قرارة نفسه: «يا له من رجل وقح». ثم خلع معطف البحار الذي يرتديه. كان لا يزال مبتسمًا وهو متوجه إلى غرفة نومه، ثم خرج في أقل من دقيقة، مرتديًا ملابس مهندمة وعليها معطف أنيق. هبط الدرج ثم خرج إلى الشارع في الوقت المناسب، ليرى المفتش (جاونت) شخصيًا أمامه على بعد مئات الأمتار. لحسن الحظ أن الغروب كان قد حل، وكان المارة يندمجون مع ظلال المساء دون أن يكونوا ملحوظين إلا بصعوبة شديدة. ولحسن حظ (هولمز) هذه المرة، فقد كان (جاونت) شخصًا له هيبته، بطوله الفارع وقبعته المميزة، وكان من السهل رؤيته من مسافة بعيدة، حتى في هذا الظلام.

«الآن سنرى إلى أين أنت ذاهب يا صديقي العزيز». غمغم

(هولمز) في قرارة نفسه وهو يشرع في مطاردة سريعة.

بينما كان (هولمز) يطارد فريسته مسرعًا ومتخفيًا قلب في ذهنه النقاط الرئيسية التي دفعته إلى ملاحقة رجل سكوتلاند

يارد. في البداية، كان هناك وصف غامض إلى حد ما لكيفية وصول الطرد الذي يحتوي على ساعة (واطسون) إلى حوزته. من الغريب للغاية أن مفتشاً في مكانة وخبرة (جاونت) لم يشعر أنه من المهم الاحتفاظ بالغلاف وإحضاره معه ليقدمه لـ (هولمز). ربما كان هذا بسبب عدم وجود غلاف من الأساس. وبالمثل على ذات المنوال، لماذا أرسلت العصاة الساعة إلى هناك بدلاً من إرسالها إلى (هولمز) شخصياً في شارع بيكر؟ وهذا لأنها لم ترسل لأي مكان، بل كانت بحوزة (جاونت) من البداية. وأخيراً كان هناك الورقة التي كتبت عليها الملاحظة، على الرغم من عدم وجود أي علامة مائية مرئية، إلا أنه تعرف على مصدرها بسهولة كنوع الورق الذي تستخدمه شرطة العاصمة بشكل أساسي. إنه ذات نوع الورق الموجود على جميع المكاتب في سكوتلاند يارد. كان ملمسه الرقيق ولونه العاجي مألوفين للغاية بالنسبة لـ (هولمز)، وكذلك الحبر البني الغامق المستخدم في الكتابة، الذي كان مماثلاً للنوع الذي يتم استخدامه في سكوتلاند يارد. لقد أدرك كل هذه التفاصيل من الملاحظات العديدة التي أرسلها إليه المحققان (ليستراد) و(جريجسون) في الماضي.

لذلك كان واضحاً له أن السيناريو برمته زائف وملفق. استنتج (هولمز) أنه من المستحيل أن يكون هناك سوى تفسير واحدٍ معقولٍ لمثل هذا الخداع؛ لقد استحوذ (جاونت) على الساعة

بوسائل أخرى، وألف هذه القصة الخيالية لإخفاء الحقيقة. كان (هولمز) يعلم أن الساعة إرثٌ عائليٌّ حيث أنها في الأصل ملكاً لأخي (واطسون)، وبالتالي كانت تمثل قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة لصديقه. كان (واطسون) يحملها معه أينما ذهب، ولا يوجد أمام (جاونت) سوى طريقة وحيدة للظفر بها، وهي سلبها من مالكها شخصياً.

إذا كانت كل هذه الاستنتاجات دقيقة - لم يشك (هولمز) للحظة في أنها ليست كذلك - فهذا يشير إلى حقيقة مروعة واحدة؛ إن المفتش (دومينيك جاونت) في تحالف مع الخاطفين. وحين وصل (هولمز) لهذا الاستنتاج تساءل عما إذا كان (جاونت) مجرد شرطي فاسد أو هو أحد رجال المنظمة الرئيسيين داخل سكوتلاند يارد. هل تعد هذه هي المرة الثانية التي يتشابك فيها مع السلطة، كما حدث في أيام (جاك السفاح)؟

عند زاوية شارع بيكر توقف (جاونت) مؤقتاً وبدا للحظة أنه متردد بشأن ما سيفعله لاحقاً. تسلل (هولمز) إلى الظلال خلف عربة ثابتة محملة بالبراميل. نظر بطرف عينه من جانب أحد أركان العربة حيث كان قادراً على مراقبة (جاونت). أشعل المفتش سيجارة ثم اقترب من الطريق ليقف عربة أجرة. تحرك (هولمز) بسرعة محتفظاً بتخفيه بين الظلال التي تغطيه بالكامل، حتى بات على بعد ثمانية أقدام منه. كان (هولمز) يعلم أنه قد

اقترب إلى حدٍ خطير، لكنه كان مصممًا على معرفة الوجهة التي سيطلب جاونت من سائق العربة أن يوصله إليها.

أشار (جاونت) إلى عربة أجرة دون أن يلحظ الظل النحيف الذي يحوم في الظلام من خلفه. وقفت عربة الأجرة بالفعل، ففتح (جاونت) بابها وهو يقول للسائق: «ساحة الأمير (بايزواتر)». قبل أن يختفي داخل كبينة العربة.

ابتسم (هولمز) ابتسامة قصيرة ثم انتظر بضع ثوانٍ قبل أن يحاول إيقاف عربة أجرة بدوره. في مثل هذا الطريق المزدهم، كان هناك دائمًا الكثير من وسائل النقل المتاحة.

لوح (هولمز) لعربة أجرة وحين توقفت له، أشار للسائق صوب العربة التي يقلها (جاونت) وأمره أن يتبعها. على بعد حوالي مئة ياردة أمامهم كان هنالك زحام كبير وحشد من العربات.

صاح (هولمز) لسائقه: «ضع في اعتبارك أنهم متوجهون إلى ساحة الأمير (بايزواتر). هنالك تفرع آخر يؤدي إلى هذا المكان إذا فقدنا أثرهم في الزحام».

«أنت محق». قالها السائق وهو يشد لجام حصانه استعدادًا للانعطاف.

كان الشارع محتشدًا بالعربات فأضحى التقدم فيه بطيئًا للغاية، لكن سائق عربة (هولمز) كان رجلًا ماهرًا بحق، وكان قادرًا على تخطي العربات وتجاوز وسائل النقل المختلفة في

طريقه بحذر وبذكاء من خلال استغلال الوقت المناسب لينسل بين العربات. بمجرد أن خرجا من الازدحام الكثيف في (ويست اند)، أضحت الحركة أسهل بكثير وتمكنت كلتا العربتين من الإسراع، ولكن مع الحفاظ على مسافة محددة بينهما. لم تغفل عيني سائق (هولمز) عن العربة الأخرى.

بعد حوالي ثلاثين دقيقة، وصلوا إلى (بايزواتر)، فقال السائق: «ساحة الأمير هي التالية على اليسار يا سيدي».

أجاب (هولمز): «أحسنت أيها الرجل الطيب». ثم فتح باب الكابينة وهو يترجل منها قائلاً: «اسمح لي بالجلوس بجوارك. هذا سيفيدني أكثر».

جلس (هولمز) بجوار السائق حيث باتت الصورة أكثر وضوحاً، ثم انطلقا يطويان الشارع طياً في أعقاب عربة (جاونت)، وكادا أن يلحقا به عندما استدار يساراً إلى ساحة الأمير. كانت المنطقة خلاصة بوجود حديقة صغيرة منظمة ومهندمة الأشجار والعشب بمنتصف الشارع، محاطة من الجوانب الأربعة بصفوف من المنازل الجورجية الأنيقة.

توقف السائق على عتبة أحد الصروح الأكثر فخامة في المكان. بعد أن غادرت عربة الأجرة خاصته صعد (جاونت) درجات السلم ودق الجرس. تسلل (هولمز) إلى المتنزه بمنتصف الشارع، واختبأ خلف شجرة ذات موقع ممتاز لمراقبة الأحداث بوضوح.

بعد لحظات قلائل فُتح باب المنزل، ولكن ليس على اتساعه، بل بدرجة كافية ليبصر من بداخل المنزل هوية زائره. كان هذا الشخص تكتفه الظلال كما لو أنه يختبئ فيها، ولم يستطع (هولمز) حتى معرفة ما إذا كان رجلاً أو امرأة. تبادلوا بضع كلمات ثم دخل (جاونت) وأغلق الباب خلفه.

تفحص (هولمز) المبنى جيداً من موقعه. كانت النقوش المزينة لحافة البوابة تشي بأنها «جرينواي». كانت فيلا جورجية مكونة من ثلاثة طوابق، طويلة وفخمة مثل جيرانها، لكن جميع الستائر مسدلة والنوافذ مغلقة كما لو أن العقار غير مأهول. وقفت الفيلا في الظلام مثل بيت الأشباح. كان بيتاً يحتوي على أسرار مظلمة وكان (شيرلوك هولمز) يعلم أن مهمته هي كشف هذه الأسرار.

الفصل العشرون

كان (جاونت) و(هينشو) جالسين في المطبخ الفارغ الكبير بالبيت الواقع في ساحة الأمير يتناولان الويسكي بينما يخبره المفتش بتفاصيل لقائه مع (شيرلوك هولمز). كانت الغرفة مضاءة بلهب الشموع فقط، فتوهجت النيران الهزيلة بشكل ضعيف في هذا المكان القريب للعتمة.

ابتسم (هينشو) ابتسامة عريضة وهو يمرر أصابعه في خصلات شعره الأشقر الكثيف الجامح، لكن (جاونت) لم يبادله الابتسام.

«لا تعتقد أن (هولمز) قد خُدع بالساعة وقصتي الملفقة في دقيقة بتلك البساطة. إنه أذكى من الجميع بكثير. استطعت أن أرى الشك في عينيه، لقد ارتكبنا خطأ التقليل من شأنه الليلة الماضية، يجب ألا نكرر الشيء نفسه مرة أخرى.»

تبددت ابتسامة (هينشو) وهو يسأل: «ما هي خطتك إذن؟ هل أحتاج إلى جمع الرجال مرة أخرى؟».

هز (جاونت) رأسه في نفي وهو يقول: «لتكرر ذات الفوضى التي حدثت في (كريستوفر دو كس)؟ لا، الليلة لن يكون هناك كمين جماعي، الليلة سأقتل السيد (شيرلوك هولمز) بنفسني». اتسعت عينا (هينشو) في مفاجأة وهو يسأل بتوتر: «وكيف تنوي فعل هذا؟»

كان (جاونت) سعيدًا بالتأثير الذي أحدثته كلماته القوية على رفيقه فابتسم مجيبًا: «سأطلق النار عليه. بغض النظر عن عدد أصدقائه الصغار الذين يجمعهم كعون احتياطي، فالرجل نفسه سيكون حاضرًا على جسر (واترلو)، وسيكون كالبطة التي أصوب إليها فوهة بندقيتي لصيدها». رفع (جاونت) سلاحًا وهميًا على كتفه وصوبه نحو نقطة بعيدة كما لو أنه يستحضر المشهد لمخيلته مكملًا: «ثم بانج! رصاصة واحدة ويكون بعدها الوداع لصديقنا العزيز (شيرلوك)». ضحك (هينشو) وقال: «رائع».

ارتشف (جاونت) بعض الرشقات من كأسه، ثم تابع: «لكن أولاً، أعتقد أن الوقت قد حان لتسليم روح أحدهم إلى بارئها. الدكتور (واطسون) لا فائدة منه الآن. إنه لمن دواعي سروري أن أريحه من بؤسه ومن الحياة بأكملها. إذا تكرمت بأن تعيرني مسدسك».

«بالطبع». تناول (هينشو) مسدسًا صغيرًا من الجيب الداخلي لمعطفه الشتوي الضخم ثم أعطاه لـ (جاونت).

تحسس (جاونت) ملمس المسدس المعدني للحظة ثم هب واقفًا، ودفع الكرسي الخشبي إلى الوراء ليحتك برخام الأرض، مما أحدث صريرًا غريبًا عاليًا في البيت راح يتردد في جميع أنحاء الغرفة. تجاهل (جاونت) كل هذا الضجيج وهو يصيح: «ها بنا يا (هينشو)، دعنا ننهي هذه المهمة. حان الوقت لنحظى بالقليل من المرح».

دون أي كلمة إضافية، شق الرجلان طريقهما إلى الطابق العلوي من المنزل، صوب الغرفة المغلقة حيث سجننا (واطسون). أخرج (هينشو) المفتاح الكبير الذي كان مربوطًا بحزامه، فتح به الباب ثم دخل الرجلان الغرفة. أدار بأصابعه مفتاح الغاز ليعمل المصباح الزيتي ويقتحم الغرفة بريق أصفر شجي.. رفع (واطسون) رأسه وحدق بدهشة إلى المتسللين إلى الحجرة.

قال (جاونت) وهو يحمل المسدس عاليًا: «حان الوقت لمقابلة خالقك، أيها الصديق العزيز».

قال صوت من خلفه مقتحمًا المشهد: «لا أعتقد هذا». وأحس (جاونت) بفوهة مسدس بارد تضغط بقوة على مؤخرة عنقه.

قال الصوت: «ارم سلاحك». عرف (جاونت) على الفور صاحب هذا الصوت، كان صوت (شيرلوك هولمز). خفض (جاونت) ذراعه، لكنه احتفظ بأنامله القابضة على مسدسه.

«افعل ما أمرتك به». قالها صاحب الصوت مرة أخرى وسمع (جاونت) التكة المعدنية التي تؤكد أن (هولمز) قد وضع سلاحه الناري في وضعية الاستعداد لإطلاق النار في أي ثانية. على مضض سمح (جاونت) لمسدسه أن يسقط من قبضته، فاصطدم المسدس بالأرض بجلبة عالية.

قال (هولمز): «أنت يا هذا». مخاطبًا (هينشو)، الذي بدا مذهولاً عن الواقع بسبب صدمة اقتحام (هولمز) للبيت، فأكمل هذا الأخير: «فك وثاق أسيرك. نفذ ما أمرك به على الفور».

تحرك (هينشو) كآلة تخلو من الإرادة إلى حيث كان (واطسون) مقيداً، وبدأ في فك أغلاله بطريقة ميكانيكية بطيئة. أثناء هذه الأحداث، انتهز (جاونت) الفرصة وأقدم على خطوة يائسة؛ مال بجسمه بسرعة إلى اليسار ودار حول (هولمز)، وحاول أن ينتزع المسدس من يد (هولمز).

لقد فشل في هذا، لكن المسدس انفجر! وانطلقت رصاصة طائشة لتستقر بألواح الأرضية الخشبية. بدا أن هذا الهجوم المفاجئ قد أعاد (هينشو) إلى رشده، فوثب على الأرض كي يلتقط مسدس (جاونت) الملقى أرضاً، وبسرعة البرق تقدم

(هولمز) للأمام وركل المسدس بقدمه، وأرسله إلى زاوية الغرفة قبل أن يتمكن (هينشو) من الإمساك به.

في ذلك الوقت كان (جاونت) قد ترك (هولمز) وفر إلى الممر الخارجي. أغلق باب الغرفة من خلفه ثم أحكم قفلها بالمفتاح كذلك. بابتسامة ساخرة راح يسابق الريح على الدرج حيث وفر لنفسه مهربًا جيدًا.

داخل الغرفة استفاد (هينشو) من الإلهاء الناجم عن خروج (جاونت) من الغرفة الذي جذب معه انتباه (هولمز)، فأخذ يزحف على الأرض لاستعادة المسدس. وبصرخة ظافرة أمسك به، ثم اعتدل واقفًا على قدميه، ووجهه صوب (هولمز). دون تردد أو إعادة نظر في الأمر ضغط على الزناد. تنحى (هولمز) إلى اليسار في اللحظة الأخيرة، لكن الرصاصة مزقت معطفه بالفعل عند منطقة الكتف. لقد كادت تنهي الرصاصة حياته لولا سرعة رد فعله. شعر (هينشو) باستياء أكثر وكاد أن يطلق النار مرة أخرى، لكن (هولمز) أطلق النار أولاً هذه المرة.

أصيب (هينشو) في صدره وتراجع إلى الورا من قوة الرصاصة. مع خوار شبه حيواني صادر من حنجرتة اصطدم بالجدار البعيد للغرفة، ثم انزلق ببطء إلى الأرض، تاركًا وراءه أثرًا قرمزيًا قانيًا من الدم.

للحظة، كان كل شيء صامتًا وساكنًا من حولهم كما لو أن الزمن قد تجمد بهم. حدق (هولمز) إلى الرجل الميت الذي بدت عيناه الزجاجيتان اللتان لا حياة بهما كما لو أنهما ترمقانه بقوة وبعتاب. كره (هولمز) القتل طوال حياته، وانزعج أكثر لأنه اضطر إليه في هذه الحالة دون غيرها، حيث كان بإمكان هذا الرجل الذي يعتبر شريكًا لـ (جاونت) أن يخبره بالكثير.

عندما استعاد (هولمز) اسم (جاونت) بذاكرته أصبحت ملامحه أكثر غضبًا واشمئزازًا. فهو لم يقتل شاهدًا مهمًا فحسب، بل سمح لأحد اللاعبين الرئيسيين في هذه اللعبة الغادرة بالهروب. لقد تعامل مع الموقف بأكمله بشكل غير كفء.

انقطعت أفكاره حين طرق مسامعه صوت أنين متألم، لاحظ (واطسون) اليأس وهو يحاول بشجاعة التملص من قيوده.

لم يستطع (هولمز) منع نفسه من الابتسام؛ حسنًا يبدو أن مغامرة الليلة لم تخلُ من جانب مشرق.

قال (هولمز): «هيا، دعني أساعدك في هذا». ثم جثا على ركبتيه بجوار الكرسي وهو يحاول معالجة إحدى أصعب العقدة التي رآها في حياته!

الفصل الحادي والعشرون

من مذكرات د. (واطسون)

كل شيء بدا كما لو أنه كابوس مزعج. تبادل إطلاق النار وهذا الشجار المحموم أمام عيني، وأنا غارق في حالة من الذهول كما لو كنت مجرد متفرج يتابع مسرحية العنف هذه على ضوء مصباح الغاز المتلألئ. كنت متعبًا وضعيفًا بسبب الإرهاق والظما، لذا لم يكن عقلي يعمل بشكل طبيعي. ومع ذلك فإن الشيء الوحيد الذي تمكنت من فهمه هو أن (شيرلوك هولمز) كان في الغرفة!

كيف وصل إلى هنا؟ ولماذا لم يمزح لإثارة غيظي، أو حتى يعاتبني على بطء استيعابي مقارنة بعقله؟ يبدو أن ذهني كان ضبابيًا أكثر من اللازم. شعرت بنوع غريب من الراحة لرؤية وجهه وسماع صوته. أتذكره وهو جاثٍ بجانب الكرسي الذي كنت جالسًا عليه ويفك الحبل الذي كان يقيد وثاقي، ولدي ذكريات عن مساعدته لي في نزول العديد من درجات السلم

ثم البرد الحاد لهواء الليل الذي ضرب جسمي ووجهي. وأخيراً بعد ساعات، عندما استعدت وعيي تمامًا، عادت إليّ ذاكرتي بالكامل وتمكنت من ترتيب الأحداث الأخيرة في تسلسلها الصحيح. كنت مستلقيًا على أريكة مريحة في غرفة الجلوس بشقتنا، والغطاء يغطي جسمي بأكمله حتى ذقني.

«رباه، لقد عدت إلى أرض الأحياء أخيرًا. أنا واثق من أنك تشتهي بعض حساء الدجاج الذي أعدته السيدة (هودسون) مخصوصًا لك. لقد كانت المرأة تغلي على نار هادئة خشية عليك من أن يكون قد أصابك أي مكروه، فهي من ساعدتني على حملك إلى الطابق العلوي.»

اعتدلت جالسًا على الأريكة وأنا أمرر أصابعي عبر شعري مجيبًا: «الحساء سيكون رائعًا بلا شك. في الواقع أشعر برغبة أكبر في أن يساعدني البراندي على استعادة حيويتي، ولكن ربما ليس على معدة فارغة.»

أوما (هولمز) برأسه بتفهم ثم قال بحكمة وهو يشعل غليونه: «بالتأكيد. سأحضره لك لاحقًا.»

حاولت وضع قدمي على الأرض والوقوف، لكنني ما زلت أشعر بالقليل من الدوار، فتراجعت عن قراري، وأنا أعاود جلستي. «ابقِ جالسًا يا صديقي القديم. دع الحساء يحسن من حالتك الصحية أولاً قبل أن تبدأ في محاولة أن تكون رياضيًا. فقط استرح الآن، بينما أرتب أنا كيف تستعيد عافيتك بالتدريج.»

بعد ساعة، بدأت أشعر وكأنني أستعيد شخصيتي وحيويتي القديمة. راحت خيوط العنكبوت في ذهني والتعب في أطرافي يتلاشيان وتمكنت من الجلوس وببيدي سيجارة وبالأخرى كوب من البراندي. روى (هولمز) وهو ينفخ الدخان من غليونه القديم من خشب الكرز، كل ما حدث أثناء غيابي الجبري تحت الأسر، وكنت قد رويت في المقابل مغامراتي البائسة من وجهة نظري. قلت: «على الرغم من مختلف أنواع الدراما تلك، لا يبدو أننا نحرز تقدماً كبيراً في هذا التحقيق».

«هذا صحيح، كل شيء أمامنا هش. لا يوجد سوى القليل للغاية من الأشخاص الذين يمكنهم الحصول على المعلومات التي ظفرنا بها، وكذلك فهم كيفية التعامل معها كأدلة أو أحرار لتقديمها. بالتأكيد هنالك جانب مشرق في الأمر، فقد كشفنا الستار عن حقيقة المفتش (جاونت) الخائن».

«من المؤسف أنه تمكن من الفرار بعد كل هذا».

«أخشى أن هذا كان بسبب عدم كفاءتي. ما كان يجب أن أترك ذلك يحدث».

قلت بإيجاز: «لم يكن هذا خطأك يا (هولمز)». أعلم أن اهتمامه ومخاوفه حينها كانت حول سلامتي الشخصية، وهذا التركيز هو الذي سمح لـ(جاونت) بالفرار. كنت على دراية بأن (هولمز) سينكر أن هذا ما حدث إن شاركته أفكاره، لهذا قررت

الاحتفاظ بها لنفسى وتغيير مجرى الحديث وأنا أسأله: «كيف اكتشفت مكان أسرى بحق السماء؟».

«ببساطة تتبعت (جاونت). أنا لم أستلطف الرجل قط عندما أتى لزيارتنا بشارع بيكر لأول مرة، رأيت أن هناك شيئاً متعجباً ومتفاجراً فيه دون سبب وجيه لهذا. بدا واضحاً لي أنه يكذب بشأن كيفية وصول ساعتك إلى حوزته. من الواضح أنه قد لفق الحكاية، مدعيًا أنه تسلم طردًا ولكن بدون دليل يشير إلى هوية الراسل على التغليف، ثم لاحظت أمر الورق المستخدم في جهاز سكوتلانديارد، مكتوبة بالحبر الملون باليود الذي يستخدمه الضابط (ليستراي) ورفاقه.

كان هنالك شيء مريب في سلوكه من رأسه حتى أخمص قدميه، لهذا السبب تتبعت. قادني إلى بيت (جرينواي)، حيث كنت محتجزاً. لاحظت النافذة العلوية الصغيرة المغلقة وضوء الغاز الضعيف الواصل منها. إنه مكان مثالي لإخفاء أسير». ضحك (هولمز) مكملًا: «كنت أعلم أنني أخاطر بالكثير باقتحامي للمنزل بهذه الطريقة، لكنني كنت على استعداد لتحمل المسؤولية كاملة.

شقت طريقي إلى الفناء الخلفي من المبنى، وتمكنت من تسلق أنبوب الصرف إلى الطابق الأول حيث كانت النافذة مرتفعة عدة أمتار عن سطح الأرض. بحذر وصمت استطعت

كسر لوح زجاج النافذة في الطابق الأرضي، وتمكنت من النفاذ عبرها إلى البيت.

سحبت الستارة لتغطي النافذة، حتى لا يرى أي شخص يمر داخل البيت الضرر الذي أحدثته ويفطن لوجود دخيل. ثم سمعت أصواتًا تصعد الدرج للطابق العلوي، اتضح أن هذه الأصوات تعود لـ (جاونت) وتابعه. لقد ذكر اسمك ولذا علمت أنني بالفعل على الطريق الصحيح، ثم أنت تعلم بقية القصة.»

«هل عرفت ما الذي يسعى إليه هؤلاء القوم؟ ولماذا اختطفوا الطفل؟»

هز (هولمز) كتفيه مجيبًا: «لا شيء محدد حتى الآن. لكن من الواضح أنهم يرغبون في السيطرة على الحكومة بطريقة ما، وربما العرش حتى، لكنني لست واثقًا مما يريدونه بالضبط. لن يمر وقت طويل قبل أن يكشفوا عن مطالبهم على أي حال. الحقيقة الوحيدة المطمئنة في هذه القضية هو تصميمهم على القضاء عليّ. من الواضح أنهم يروني كتهديد يجب إقصاؤه عن الصورة، وأظن أنه على الرغم من فشلهم في تحقيق هذه الرغبة إلا أنهم سيضعون الآن خططًا عديدة لإنجاز هذا الأمر بنجاح.»

«على الأقل لقد كشفت عن أحد أفراد تلك العصابة، وهو ذلك الشيطان (جاونت)».

أوماً (هولمز) برأسه، مكملًا: «تورطه في هذه القضية يكشف عن مدى تغلغل شبكة هذه العصابة، لقد احترقوا بالفعل

سكوتلاند يارد وربما أكثر من ذلك. هذا المثال ينبه المرء إلى حقيقة أنه لا يجب أن تثق بأحد، بغض النظر عن وضعه ومكانته. يبدو أن (جاونت) قد خدع الجميع حتى أخي». «أخوك؟ (مايكروفت)؟».

«بشحمه ولحمه. لقد تلقيت أوامر من الجهات العليا بحل هذه القضية في أسرع وقت، لقد كان توجيهًا صريحًا من الحكومة البريطانية ذاتها».

«رباه! القضية تزداد فداحة لحظة بلحظة. ما هي حركتك القادمة إذن؟».

صمت (هولمز) للحظة دون أن يجيب، وهو يدخن التبغ من غليونه بقوة وانفعال، حتى أن ملامحه كانت مغطاة بالدخان الرمادي، ثم قال أخيرًا: «نتبع الخيط الذي تركه (جاونت). أشك في أنه قد ترك لنا العديد من الأدلة تساعدنا على تقفي أثره، وربما لم يخلف وراءه شيئًا من الأساس، لكن ربما لم يضع حسابًا لمطارد غير معهود مثلي وترك شيئًا سهوًا على أنه غير مهم. أحتاج إلى فحص مكتبه في سكوتلاند يارد وبيته ذاته أينما يقع. يجب أن نكون قادرين على العثور على أي دليل، خيط صغير يدفعنا للأمام خطوة أو خطوتين على الطريق الصحيح لإزالة هذا الغموض».

في الصباح الباكر لليوم التالي وجدنا أنفسنا في مكتب المفتش (جاونت) في سكوتلاند يارد، برفقة صديقنا القديم المفتش (جايلز ليستراد). أخبره (هولمز) بإيجاز عن التقدم الذي أحرزناه في قضية اختطاف طفل عائلة (تيمبل)، مع تجاهل متعمد لبعض التفاصيل بالطبع، لم يرغب (هولمز) في مشاركة ما حدث مع أي مخلوق، لكن ما قاله للمفتش (ليستراد) كان كافيًا لإرضاء فضوله، بل وحثه على أن يكون متعاونًا معنا. بعد ليلة نوم هائلة بالأمس ووجبة إفطار شهية من إعداد السيدة (هودسون) عاد إلّي إحساسي بذاتي القديمة، وحماسي لمرافقة (هولمز) في القضية مرة أخرى.

«لم أرتح لـ (جاونت) قط يا سيد (هولمز)». قالها (ليستراد) بينما كان (هولمز) يفحص محتويات سلة مهملات مكتب (جاونت)، قبل أن يكمل: «لقد كان يتعامل أغلب الوقت مع الجميع بغرور شديد.. إنه نموذج للجيل الجديد من المفتشين الذين يتلقون تدريبهم الآن. لا يبدو أن أيًا منهم يفهم بحق طبيعة هذه الوظيفة.. عليك أن تقضي وقتك معه لتعرف كيف يعمل العقل المخادع والمتكبر. أنا لم أتعامل مع الرجل كثيرًا، لكن عليّ أن أعترف أنني شعرت بالصدمة حين أخبرتني أنه أحد أفراد العصابة». ابتسم (هولمز) وقال: «من الخطأ وصفه بالرجل من الأساس بعد أن خان مهنته». ثم ترك سلة المهملات بموضعها، وشاهدناه

وهو يفتح كل درج من أدراج المكتب ويفحص محتوياته بدقة متناهية.

« كما اعتقدت ». تتم بها (هولمز) دون مقدمات، كان يقولها لنفسه وليس لـ (ليستراد) أو لي، مكملاً: « لقد كان (جاونت) حريصاً أكثر من اللازم؛ لا يوجد شيء ذو أهمية هنا سوى بعض الأوراق والملاحظات الرسمية التافهة. لا شيء يتعلق باختطاف طفل عائلة (تيمبل) بأي شكل من الأشكال ». ثم وجد (هولمز) أن أحد الأدراج كان مقفلاً. نظر لي نظرة ذات معنى وهو يسترجع الرسالة الملفقة التي قدمها (جاونت) له أثناء اختطافي، انكب على القفل يحاول فتحه بكل ما لديه من قوة. بعد وقت قصير، تمكن من فتح الدرج أخيراً. تزامنت أنا و(ليستراد) لنرى ما الكامن في هذا الدرج، حيث سحب (هولمز) منه ملفاً من الورق المقوى، وضعه على المكتب وفتحه لكشف ما به من أسرار. كان بداخله صورتان ومجموعة من الرسائل على ما يبدو. كانت إحدى الصور لـ (ويليام تيمبل)، وهي صورة فوتوغرافية تم التقاطها في استوديو مخصص لهذا، وبالمثل كانت الصورة الأخرى ولكنها للسيد والسيدة (تيمبل) هذه المرة. على ظهر كل صورة كان هناك اسم استوديو تصوير يقع بشارع (ستراند).

«لا شك أن (جاونت) لم يجد صعوبة في الحصول على هذه الصور، لتساعد الخاطفين في التعرف على أهدافهم».

«ماذا عن فحوى الرسائل يا سيد (هولمز)؟». سأل (ليستراذ) وهو يميل على المكتب ويحرق إلى الأوراق الموضوعه عليه. لم يرد (هولمز) على الفور، لكنه التقط رسالتين وراح يفحصهما بتفصيل دقيق، حتى قال أخيراً: «إنها رسائل موجهة إلى (عزيزي G) وموقعة بالنهاية من (J)».

قال (ليستراذ) بتلقائية: «لا بد أن (J) تلك هي كناية عن (جاونت)»

«أحسنت يا (ليستراذ)، أعتقد أنك حللت اللغز». قالها (هولمز) ساخراً كعادته، سامحاً لابتسامه قصيرة أن تتجلى على شفتيه، مكماً: «ولكن هل يمكنك أن تخبرني من هو (J) إذن؟».

هز الشرطي رأسه في نفي، ليجيب (هولمز) عوضاً عنه: «ولا أنا أعرف، ولكن من صيغة الرسائل يبدو أنه أعلى مكانة من (جاونت)، قبطان السفينة إن جاز التعبير. خذ هذه الرسالة على سبيل المثال لتأكيد ظني».

وضع (هولمز) الرسالة على المكتب حتى يتمكن من الاطلاع عليها جميعاً.

T t.me/tea_sugar

كل شيء في مكانه. نحن على استعداد لاستلام الحمولة. أقترح أن تصل يوم الثلاثاء بعد الغروب. استغنيا عن الهمج. لن نطلب خدماتهم مرة أخرى. أنا أتطلع إلى أن أكون في صحبتك مرة أخرى.

«J»

قلت أنا هذه المرة: «أفترض أن لفظ (الحمولة) هذا يشير إلى الصبي (ويليام)». «هذا ما خمنت أنا أيضًا».

سأل (ليستراد): «ماذا يقصد بكلمة (الهمج)؟».

عقد (هولمز) حاجبيه وهو يجيب: «من لهجة الوثيقة وجودة خامة الورق وخط اليد المنمق أستنتج أن كاتبها رجل مثقف يتمتع ببعض الثروة والسلطة، ولهذا فهو ينظر إلى أولئك الذين يعملون لديه باحتقار. أعتقد أن هؤلاء الهمج هم موظفون مأجورون شاركوا في هذا المشروع ولكنهم ليسوا كذلك الآن. ربما كانوا الخاطفين الفعليين للصبي من المتزهر. من المؤكد أن الوصف الذي قدمته لنا السيدة (تيمبل) وخادمتها يشير بوضوح إلى أن الخاطفين لم يكونا حسني المظهر، بل أكدتا أكثر من مرة على بشاعتهما».

«يبقى السؤال عن مكان تسليم الحمولة».

«لا بأس يا (واطسون). ربما سنجد المزيد من الأدلة مختبئاً بين الرسائل الأخرى. أتمنى أن تجلسا أيها السيدان بينما أدرس باقي الخطابات لمعرفة المعلومات الجديدة التي تحويها أو قد تقدمها».

فعلنا ما طلبه منا (هولمز)، أو على الأقل جلست أنا على كرسي بجانب الباب بينما ظل (ليستراد) واقفاً بجانب النافذة محدقاً بشرود إلى ما فوق أسطح المنازل المجاورة وهو يعبث في سلسلة ساعته.

كان (هولمز) جالساً خلف المكتب، وعدسته المكبرة تتحرك ببطء فوق الحروف المنقوشة على الرسائل. من وقت لآخر كان ينطق بهمهمات غير واضحة، لم تعطِ أي إشارة على كونها تحمل نبرة انتصار أم خيبة أمل.

وأخيراً اعتدل واقفاً، ودس عدسته في جيب معطفه الداخلي معلناً عن نهاية الجلسة، قبل أن يقول: «هذه الرسائل لا تخبرنا بالكثير، لكنها تكشف لنا شيئاً ما».

«ما هو بالضبط؟». سأله (ليستراد) بفضاظة.

«الراسل هو رجل ثري كما قلت. الورق ذو جودة عالية ولون معين، لذا أعتقد وبلا شك أنه مصنوع خصوصاً من أجله. قد نتمكن من تتبع مصدر تصميمه من خلال السؤال عن هذا النوع بين تجار القرطاسية. أول تخمين لي عن مكان تصنيع الورق هو (وودال وبرو) في شارع (جيرمين).

كما يتميز خط اليد بتوسع في الأحرف ورسم بعض الأشكال الفنية في ربطهم بعضهم بعضاً، يوحي كل هذا بأصل ثري وعريق. ومع ذلك فإن النغمة في اختياره للألفاظ توحي باعتياده على السلطة وإملاء الأوامر. حيث أكثر الرسائل من استخدام ألفاظ على غرار (يجب - من الضروري أن - لا تفعل - تحت أي ظرف)، جميعها كلمات تحوي أمراً أو نهياً دون الطلب بتهذيب. ومع ذلك فإن الرسائل ماكر للغاية، لعدم الإشارة إلى أي شيء على وجه التحديد، كما قرأتها في الرسالة الأولى استخدامه لكلمة (الحمولة) بدلاً من كتابة الصبي المخطوف، الرسائل كلها شفرات وكلام عام غير واضح».

قال الشرطي باستخفاف: «لم تخرج بالكثير مما قد يساعدك من زيارتك الليلة إذن».

«هذا صحيح، لقد قلتها بنفسى من قبل. ولكن هنالك نقطة أخرى؛ في إحدى الرسائل كتب «إننى أتطلع إلى نزولك»، «النزول» هي كلمة يستخدمها أولئك الذين يعيشون خارج لندن، في منطقة ريفية، والتي تشير إلى أن صديقنا هذا لديه منزل ريفي يقيم فيه الآن».

«ثم ماذا؟ هناك المئات من هذه المنازل». قالها (ليستراد) بنفاد صبر.

زم (هولمز) شفتيه، ثم قال: «سأترك الرسائل هنا لكي تدرسها أكثر يا (ليستراد). لدينا عمل لنقوم به في مكان آخر». «هل ترغب في أي مساعدة مني؟».

«لا، لا. أعتقد أنه من الأفضل أن تبلغ رؤساءك بحقيقة المفتش (جاونت)، والشروع في محاولة تعقبه. لكن تحقيقاتي ستقودني إلى مكان آخر».

«الأحمق!». صرخ بها (هولمز) بحدة ونحن نستقر مرة أخرى في عربة الأجرة التي تجرها الأحصنة بعد مغادرتنا (سكوتلاند يارد). كنا في طريقنا هذه المرة إلى شارع (ستريثام) حيث يتواجد منزل المفتش (دومنيك جاونت) بحثاً عن مزيد من الأدلة. أكمل (هولمز): «على الرغم من كل السنوات التي عملنا فيها مع (ليستراد)، يبدو أنه لم يتعلم شيئاً عن التفاصيل الدقيقة للعمل البوليسي. إنه يريد أن تُقدم له الأدلة مغلفة كالهديّة على طبق من ذهب. يبدو أنه غير قادر على إدراك أن القصصات الصغيرة يمكن أن تؤدي إلى نتائج كبيرة في النهاية. لا يوجد شيء مهم كأهمية الصغائر في التحقيق».

«أعتقد أننا لا نفعل شيئاً سوى الغرق في الألباز أكثر فأكثر دون دليل ملموس، أليس كذلك يا (هولمز)؟».

ضحك صديقي، وهو يجيب: «هذه طريقة محايدة للنظر إلى الأمور. لا شك أن صديقنا قد فر وأخذ معه الكثير من الأدلة التي كانت ستفيدنا، لكن لا تنسَ أنه اضطر للهروب والتصرف بعجلة. كان يعلم أننا ندنو من الإيقاع به، لكنه لم يتخيل أن نكشف حقيقته بهذه السرعة، وأثناء تسرعه ربما أهمل شيئاً بدون قصد يمثل خطأً جديداً لنا في القضية. لا يسعنا إلا أن نأمل هذا حتى نفتش منزله بأنفسنا».

يسكن (جاونت) في شارع صغير أنيق من نوعية تلك التي تضم منازل جيدة، كان بيته ممتازاً لكنه ليس فخماً. كان هنالك حديقة صغيرة في مقدمة البيت، مع سياج خاص يؤدي إلى الشرفة والباب الأمامي المطلي بألوان زاهية.

«أخشى أننا مضطران إلى أن نتسلل بطريقة غير قانونية مرة أخرى». قالها (هولمز) بصوت واضح وهو يستل جسمًا معدنيًا ناعمًا صغيرًا من الجيب الداخلي لمعطفه، وضعه على القفل المثبت على الباب الأمامي وهو يكمل: «كما تعلم يا (واطسون) إذا لم تكن ميولي الأخلاقية قد دفعتني إلى طريق الخير لحل الجرائم والجنايات فأعتقد أنه كان بإمكانني كسب قوت لا بأس به كلص».

في أقل من دقيقة كانت هناك تكة من القفل أعلنت عن تحقيق مرادنا، وتمكن (هولمز) من تحريك المقبض وفتح باب

البيت. شققنا طريقنا إلى الداخل حيث استقبلتنا غرفة الجلوس. كانت منظمة جيداً ومرتبة، لكن ما لفت انتباهنا بحق هو أدراج المكتب في إحدى زوايا الصالة، بالإضافة إلى أن باب الخزانة الجانبية كان مفتوحاً على مصراعيه، مما يدل على أنها كانت فارغة. جثا (هولمز) على ركبتيه بجانب المدفأة وهدق إلى كومة الرماد المستقرة فيها. ارتدى قفازه بخفة، وغمس أصابعه في كومة الرماد ثم قال: «ما زال دافئاً، لقد كانت هنالك نيران موقدة هنا منذ قليل، يبدو أنه قد أحرق أي دليل قد يكون مفيداً لنا». بشكل منهجي بحثنا في كل غرفة، ولكن كان من الواضح أن (جاونت) أزال كل الأدلة المحتملة أو دمرها بشكل شامل. في غرفة نومه، كانت خزانة ملابسه فارغة باستثناء وجود بعض القمصان وبدلة قديمة، لم يكن أي منهما يحمل اسم الماركة التجارية.

«أعتقد أننا حصلنا على ما فيه الكفاية من هذا المكان». تنهد (هولمز) بشدة وهو يكمل بحزن: «وهو اللا شيء». كان على وشك مغادرة الغرفة لكنه توقف فجأة دون مقدمات، لفت انتباهه لوحة معلقة على الحائط. كانت لوحة لبيت ريفي يتوسط مزرعة كبيرة يقع بين أراضٍ واسعة.

«هذا غريب». تمتم (هولمز) مقترباً من اللوحة ليلقي عليها نظرة فاحصة.

سألته: «ما هو الغريب؟».

«ألم تلاحظ أن (جاونت) كان لديه لوحة مشابهة لتلك، ربما نسخة أخرى من ذات اللوحة، في مكتبه في سكوتلاند يارد؟».

اعترفت أنني لم ألحظ هذا.

«أتساءل أين هذا المكان المرسوم في اللوحة. لا يوجد عنوان، وحتى الفنان لم يوقع عليه باسمه. الحصول على صورتين لنفس البيت هو أمر مثير للريبة».

«مريب على أي نحو؟». سألته وأنا غير قادر على معرفة ما يدور في عقله.

«حسنًا، يجب أن يكون لهذا البيت بعض الأهمية بالنسبة لـ(جاونت) شخصيًا كي يحتفظ بنسخة له في أكثر مكانين يتواجد بهما يوميًا وهما بيته وعمله. تذكر معي هذه الكلمة من الرسالة (تنزل)؛ ربما هذا هو البيت الذي تمت الإشارة إليه بشكل غير مباشر في الرسالة».

«رباه! أجل، قد يكون هذا هو الأمر بالفعل».

أنزل (هولمز) اللوحة من موضعها المثبت على الجدار، وفتح الجزء الخلفي من الإطار حتى ظهرت خلفية اللوحة. قال وهو يزيل اللوحة المرسومة عن إطارها ويلفها حول محورها ثم يدسها في جيب معطفه الداخلي: «دعنا نسمي هذا تذكيرًا واعدًا». تنهد وهو يلقي نظرة خاطفة على الغرفة مرة أخرى قبل أن يقول:

«أعتقد أننا قلبنا المكان عن بكرة أبيه يا (واطسون). يبدو أن الوقت قد حان للعودة إلى شارع بيكر ورسم خططنا للمعركة».

غادرنا البيت وسرنا صوب الطريق. قال (هولمز): «سيتعين علينا أن نشق طريقنا إلى الطريق الرئيسي من أجل إيقاف عربة أجرة». وبمجرد أن أنهى كلمته الأخيرة ظهرت عربة أجرة في نهاية الطريق قادمة نحونا. تحركت إلى الرصيف مستعداً للتلويح لها كي تتوقف، لكن (هولمز) سحبني للخلف وهو يقول بنوع من التوتر: «هنالك خطب ما بهذه العربة، لا يعجبني مظهرها». كان يحدق إلى عربة الأجرة، التي لاحظت أنها تتحرك بسرعة كبيرة في الشارع الفارغ!

حاولت أن أنظر إلى وجه السائق، لكنه كان ملثماً بوشاح لا يظهر من وجهه غير عينيه الجامحتين والبارزتين، كانتا مشببتين علينا دون أن نأمره بالتوقف بعد. ثم رأيت حركة في نافذة الكابينة.

قبل أن أفهم ما يحدث من حول، جذبني (هولمز) من ملابسي إلى الخلف، فسقطنا على الحديقة الأمامية لبيت (جاونت) خلف السياج المتعرج، وأثناء هذا انطلقت رصاصة، وراح أزيزها يتردد فوق رأسينا تماماً. سمعنا صوت حركة الكابينة المحتكة بالأرض الخشنة وهي تمضي من أمامنا، وبعد بضع لحظات عاودنا الوقوف على أقدامنا، لنجد العربة قاب قوسين أو أدنى من الاختفاء في نهاية الطريق.

«أصدقاء (جاونت)». قلتها وأنا أعاود هدمة ملابسي التي
تأثرت من السقطة.

«لا شك في هذا. عليك أن تعترف لهم بهذا، إنهم منظمة
محترفة للغاية».

ابتسمت ببرود وأنا أقول: «ليست محترفة لهذا الحد، وإلا لما
ظل كلانا على قيد الحياة حتى الآن».

«دعنا إذن نأمل أن يظل الوضع على هذا النحو يا (واطسون)».

عندما عدنا إلى شارع بيكر، كانت هناك برقية تنتظر (هولمز)
من شقيقه (مايكروفت). قرأها (هولمز) في عجلة، ثم سلمها
لي لأقرأها بدوري، وكان فحواها:

«تعال إلى نادي (ديوجين) عند الساعة الواحدة،
هنالك تطورات».

«M

«ما التطورات التي يقصدها؟».

«هناك العديد من الاحتمالات، ولكن بدلاً من التخمين
أقترح أن نستعد لتلبية نداء (مايكروفت)، وهو بنفسه سيخبرنا
بما نحتاج إلى معرفته».

وصف (هولمز) ذات مرة نادي (ديوجين) بأنه (النادي الأكثر غرابة في لندن). إنه ملاذ أولئك الرجال الذين لا يرغبون في رفقة أحد - لأسباب مختلفة - لكن هؤلاء الأفراد لا يكرهون الاسترخاء على الكراسي المريحة وقراءة أحدث المجلات اليومية في محيط لطيف. من أجل راحة هؤلاء القوم تأسس نادي (ديوجين) في (بال مول)، أسفل فندق (كارلتون)، ويضم النادي الآن أكثر الرجال الذين لا يمكن وصفهم بالانتماء في لندن. لا يسمح لأي عضو بالنادي بإبداء أي ملاحظة على أي عضو آخر. لا يُسمح بالحديث تحت أي ظرف من الظروف في المبنى باستثناء غرفة الزيارات.

عندما صعدنا درج الباب الأمامي للنادي وضع (هولمز) سبابته أمام شفتيه، مشيرًا إلى أنني يجب أن أظل صامتًا، ثم اصطحبني إلى القاعة. من خلال الألواح الزجاجية على جانبي ألقى نظرة على غرفة كبيرة وفاخرة، حيث كان عدد كبير من الرجال يجلسون ويقرأون المجلات والجرائد أو يغطون في النوم، كل منهم في فردوسه الصغير الخاص به دون تطفل من أحد. توجهت بصحبة (هولمز) إلى غرفة صغيرة تطل على (بال مول)، وسلم ورقة صغيرة إلى خادم مر بجوارنا.

بعد خمس دقائق ظهر (مايكروفت هولمز). لقد التقينا عدة مرات من قبل، لكنني دائمًا ما ألاحظ أنه مختلف للغاية عن أخيه

في المظهر. كان أكبر عمرًا بكثير وأكثر جدية من (شيرلوك)، جسمه ممتلئ، ولكن على الرغم من ضخامة حجمه، كان وجهه محافظًا على حدة التعبير التي تضي عليه الوقار والأهمية. بدت عيناه ذات لون رمادي متموج فاتح غريب، وكأنهما تحتفظان دائمًا بنظرة ثابتة.

«لقد انتظرتك لساعات طويلة يا (شيرلوك)، أين كنت؟»
قالها بانزعاج واضح، دون أي ديباجات ممهدة أو ترحيب مبدئي.
أجاب (هولمز) بلطف: «كنت خارجًا للتحقيق وتعرضت لإطلاق النار». أخذ (مايكروفت) خطوة إلى الوراء ومسح أخاه بعينه من رأسه حتى أخمص قدميه ثم قال: «حسنًا، من الواضح أنهم أخطأوا هدفهم».

«هذه المرة نعم. برقيتك ذكرت أن هنالك تطورات؛ هل أفصح الخاطفون عن مطلبهم؟».

«لقد فعلوا هذا بالفعل». هز (مايكروفت) رأسه بحزن وهو يمد يده إلى جيبه ويخرج منه ورقة زرقاء، ناولها إلى (هولمز). كانت عيناه تحملان نظرات باردة وهادئة، ووجهه يرتدي قناعًا بلا أي عاطفة. قرأ صديقي الرسالة ثم سلمني الورقة لأقرأها بدوري، لاحظت أنها كتبت بالآلة الكاتبة وكان فحواها:

لحمايتك أنت والعائلة المالكة من تداعيات فضيحة وطنية وأزمة من شأنها أن تدمر المؤسستين بلا شك، نحن على استعداد لإخفاء المعلومات التي تفيد بأن ابن العاهرة له ولاية على العرش الملكي. فكر في الفوضى التي ستندلع إذا نُشِرَت هذه المعلومات في الخارج. الشوفينيون والفوضويون والجمهوريون الذين كانوا لسنوات ينتظرون بنهم أي فرصة لاستغلالها سوف يسرهم هذا الخبر الذي لدينا. من المؤكد أن الصراع الأهلي سينتج عن هذا وينشب بين الجميع.

كل هذا يمكن تجنبه بشكلٍ قاطع بدفع مليون جنيه. مبلغ صغير لضمان السلام واستقرار الوضع الراهن. لا شك أنكم ستحتاجون إلى وقت لمناقشة هذا الاختيار وترتيب طريقة الدفع. سنتواصل معكم مرة أخرى بعد ثماني وأربعين ساعة.

الأمير (ويليام) يرسل تحياته»

«كتابة منمقة». قالها (هولمز) شبه شارذ الذهن وعيناه تفكران دون انقطاع.

«الرسالة كانت مصحوبة بصورة للصبي».

«صورة حديثة التصوير؟».

أكد (مايكروفت): «مأخوذة بالأمس فحسب».

«كيف يمكنك أن تكون واثقاً من هذا؟».

« كان الطفل يحمل نسخة من صحيفة تايمز التي صدرت بالأمس ».

زم (هولمز) شفتيه وهو يجيب: « حركة ذكية. حسناً، على الأقل بتنا نعرف الآن ما يسعون إليه ».

قلت أنا هذه المرة: « مليون جنيه؟ هذا أمر مستحيل! ».
« هذا صحيح. لكن يمكنهم أن يكونوا جريئين بما أنهم يملكون كل الأوراق التي ترجح كفتهم ».

قال (هولمز): « السؤال المهم الآن هل بإمكانكم دفع ثمن صمتهم؟ ».

« بالطبع تستطيع الحكومة البريطانية ذلك. لكن المشكلة مع هذه النوعية من التهديدات والابتزاز هو أن المرء لا يعرف أبداً متى ستنتهي وتقف عند حدها. مليون جنيه ستسكتهم هذا الأسبوع، ولكن ماذا عن الأسبوع القادم؟ عليك أن تفعل شيئاً يا (شيرلوك) ».

« كيف وصلت هذه الرسالة؟ ».

« عن طريق البريد، وكانت موجهة إلى رئيس الوزراء بشكل شخصي وعلى وجه السرعة. إن هؤلاء المجرمين واثقون للغاية من أنفسهم، عليّ الاعتراف بهذا، لكن يجب أن يكون هناك ثغرة ما قد غفلوا عنها ».

قال (هولمز) بجدية: « ليتنا نتمكن من العثور على تلك الثغرة ».

الفصل الثاني والعشرون

لم يستطع الرجل طويل القامة أن يمنع نفسه من الابتسام عندما قص عليه (جاونت) مغامراته المختلفة مع (شيرلوك هولمز).

«هذا الرجل زلق مثل ثعبان البحر اللزج. يبدو أنه قادر على إيجاد سبيل للخروج من كل مشكلة أو مأزق ضيق». ضحك الرجل الطويل بصوت عالٍ هذه المرة وهو يكمل: «على الرغم من أنني ألعنه وأتمنى أن يهوي في الجحيم ذاته لكن يجب أن أعترف أنني معجب بإصراره ومهارته».

لم يملك (جاونت) ذات الروح المستمتعة وهو يقول بجديّة: «قد يبدو الأمر كوميدياً لشخص غيرنا، لكنه لا يزال يمثل تهديداً لخططنا».

وضع الرجل كفيه على كتفيّ (جاونت) وهو يقول: «ليس خطرًا جسيمًا لهذه الدرجة، يا (دوم). يبدو أن براعة السيد (هولمز) قد اضمحلت إلى حد ما. فعلى الرغم من كل جهوده الألمعية تلك، لكنه لم يقترب بعد من العثور علينا أكثر مما كان عليه في بداية القضية. قد يكون لديه وسيلة للهروب من

الأزمات، لكنه لا يزال يتخبط في الظلام بعيداً عن الحقيقة كما كان في أي وقت مضى، وأعتقد أن هذا الوضع لن يتغير.»
«أتمنى لو كانت لدي ثقتك بنفسك هذه.»

«أنا عاقل ومنطقي بما يكفي لأعرف أنه لا يوجد شخص معصوم من الخطأ، لكن منظمنا قوية وذات نفوذ، يديرها قرارات حذرة وحريصة. كما تعلم، فقد استغرق هذا المشروع عدة أشهر من التخطيط والترتيب. بالتأكيد لن نتعرض للهزيمة ويُضرب بكل جهودنا هذه عرض الحائط على يد رجل واحد، حتى لو كان ذلك الرجل هو (شيرلوك هولمز). لقد أثبت أنه مصدر إزعاج، لكن يجب أن نعتبر من الآن فصاعداً أنه لم يعد كذلك، طالما لم يقترب أكثر من الحقيقة. يجب أن نصب تركيزنا الآن على خطتنا، وليس ألامه. وهذا ليس رأيي أنا فحسب بل هي أوامر رئيسنا كذلك. هل تفهمني؟»

أوماً (جاونت) برأسه بتردد، مجيباً: «أفهم هذا.»
«ولذلك قد وضعنا المرحلة الأخيرة من خطتنا قيد التنفيذ، ورتبنا كل شيء يخصها منذ مساء الأمس.»

«حقاً؟» قالها (جاونت) بمزيج من الدهشة والفرح. كان يتوقع أن يكون هو بنفسه طرفاً في اتخاذ أي قرارات تخص التغييرات المفاجئة في الاستراتيجية. فبعد كل شيء هو أحد اللاعبين الرئيسيين في المنظمة، وظن أنهم سيستشيرونه بشأن مثل هذه القرارات المهمة. لكن يبدو أنه ليس كذلك.

شعر الرجل طويل القامة بمشاعر (جاونت) التي لم يصرح بها، فأكمل: «لم نتمكن حقًا من الانتظار أكثر من ذلك. لقد أخرجنا الأمور لفترة كافية بسبب (هولمز). ناهيك أننا فقدناك الآن كعميل مزدوج لدى سكوتلاند يارد، حيث كنا نحتاجك لمعرفة تحركاتهم ولتضليلهم. أما الآن فقد ضاعفت السلطات جهودها لتعقبنا، وقد انخرط عملاء الجيش بالفعل في البحث عنا هم أيضًا».

«ما هو الوضع الحالي؟».

«تلقي رئيس الوزراء اتصالاً صباح اليوم بمطلبنا. لقد منحناهم ثماني وأربعين ساعة للنظر في الأمر وجمع الأموال. في غضون هذا الوقت أنوي العودة إلى مقرنا الرئيسي بلندن».

«لماذا؟».

«لقد استدعوني إلى هناك، وعلى أي حال يجب أن أكون في متناول اليد في حالة تطور الموقف. من الضروري أن أكون في بؤرة الأحداث».

«ماذا عن الصبي؟»

«سأخذه معي. يريد M في متناول يديه من أجل جولتنا الأخيرة في تلك اللعبة».

«ماذا عني؟ أنا لا أستطيع العودة إلى المنزل».

تحسس الرجل الطويل ذقنه بحرص علامة على التفكير وهو يجيب: «أجل هذا صحيح. حسنًا، لا يمكننا المخاطرة بمرافقتك،

فأنت الآن أصبحت هاربًا من العدالة. لا يمكنك كذلك البقاء في هذا المنزل لأنني سأتخلص منه أثناء وجودي في لندن. لقد سرحت معظم الخدم العاملين هنا بالفعل. سوف تحتاج بالتأكيد أن تظل مختبئًا. كل ضابط شرطة في البلاد يبحث عنك الآن. أقترح عليك الاختباء في منزل (جريم) كإجراء مؤقت. لديهم غرفة مناسبة لهذا».

مط (جاونت) شفتيه وهو يقول بامتعاض: «حثة المجمع هؤلاء!».

ابتسم الرجل طويل القامة بتسامح وهو يكمل: «لبضعة أيام فقط. لا يمكن للمتسولين أن يكتب لهم مصير أفضل، ولكنك بعد تلك الأيام القليلة لن تضطر للعيش بين المعدمين من الآن فصاعدًا. مع مجموعة ملابس جديدة وأنيقة وثروة صغيرة ستكون قادرًا على تخطي تلك المحنة وبدء حياة جديدة بصفتك رجل أعمال ثريًا».

أحب (جاونت) الصورة التي ارتسمت في ذهنه إثر هذا الوصف الذي ذكره الرجل طويل القامة، فارتسمت الابتسامة على ملامحه دون أن يشعر.

«سبقى على اتصال بالطريقة المعتادة. لا شك أنه عندما تنتهي مهلة الثماني وأربعين ساعة ستتصاعد الأمور بسرعة. فقد اشتعل الفتيل بالفعل».

«أين M الآن؟»

«يراقب تحركاتنا جميعاً الآن بلا شك. تحدثت معه عبر الهاتف من مكنتبي أمس فأكد لي هذا. الآن إذا سمحت لي، يجب أن أعد ترتيبات الرحلة. ابقَ لبعض الوقت في البيت إذا كنت ترغب في هذا. تناول البراندي كيفما شئت، ثم ارحل لتتعرف على عائلة (جريم)».

في لندن، في عرين مخبأ تحت الأرض، كان العقل المدبر وراء تلك المؤامرة الخبيثة يدخن سيجاراً ويبتسم. يبدو أن كل شيء يسير بسلاسة من وجهة نظره، على الرغم من تدخل السيد (شيرلوك هولمز)، لكنه بدا كما لو أنه يفقد حنكته وقبضته على زمام الأمور. ضحك M ضحكة مكتومة جافة على هذه الأفكار التي تداعب خياله. كان من الجيد الجمع بين عمليتين في ضربة واحدة، والمتمثلة في استنزاف خزانة الحكومة البالغة مليون جنيه، وإظهار (شيرلوك هولمز) كمحقق فاشل. إذا كان بإمكان M رفع نفسه للنهوض عن الكرسي المتحرك، لرقص في انتصار. تلاشت الابتسامة عن ثغره عندما تذكر أن أيام رقصه - بل أيام مشيه واستخدامه لساقيه بوجه عام - قد وُلَّت. وكان يعرف لمن الفضل في هذا وعليه شكره، بطريقته الخاصة.

الفصل الثالث والعشرون

من مذكرات د. (واطسون)

كان (شيرلوك هولمز) صامتًا وهو جالس في عربة الأجرة في طريق عودتنا إلى شارع بيكر بعد اللقاء مع (مايكروفت). لم يزدنا هذا اللقاء إلا حيرة وبؤسًا. كان هذا ظاهرًا على ملامح كل منا، بذات الوضوح الذي استطعت به أن أرى وميض ضوء الشمس الذي يخترق الغيوم المظلمة المتدفقة فوق رؤوسنا. حدقت إلى وجه صديقي الذي كان مغطى جزئيًا بظلال العربة، لكنني استطعت أن أبصر أنه كان غارقًا في التفكير. حاجباه معقودان، وعيناه مغلقتان، وشفته مشدودتان بإحكام.. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الملامح لا تنم عن تأمل جاد فحسب، بل يمكنني الزعم أن هذا التعبير المتجهم والكئيب المتجلي على ملامح صديقي بسبب القلق كذلك.

كان المساء يقترب بينما كنا نصعد السلم إلى شقتنا. أشعلت ضوء مصابيح الغاز بينما كان (هولمز) يدلف إلى غرفة نومه،

وبعد بضع دقائق خرج محملاً بثلاثة أشياء كبيرة الحجم، وضعها على المنضدة في وسط غرفة الجلوس. دقت النظر بها ولاحظت أنها أنواع مختلفة من المعاجم.

أشعل غليونه وبدأ يدخنه دون أن ينبس ببنت شفة، راح يقلب الصفحات بانتظام. لم أستطع تحديد ما كان يبحث عنه في هذه الكتب، لكن لم يكن لدي شك في أنه سيعلمني في الوقت المناسب عندما ينتهي بحثه.

طلبت الشاي وبعض الشطائر من السيدة (هودسون)، لكن (هولمز) رفض أي مقبلات جانبية واكتفى بإعادة ملء غليونه بالتبغ، مما أدى إلى تكديس غرفتنا بدخان كثيف. بعدما تناولت شطائر اللحم المقدد واحتسيت الشاي، بدأت أشعر بالنعاس. دفء النار والأحداث العنيفة التي مررت بها في الأربع وعشرين ساعة الماضية دفعتني إلى النوم عنوة. كنت على وشك أن أغفو لكنني أفقت عندما سمعت صرخة شديدة الابتهاج.

أعادني (هولمز) من على حافة النوم إلى عالم اليقظة قبل أن أهوي إليها بثوانٍ. صفع (هولمز) راحة يده بقوة على الصفحة التي كان يدرسها في المعجم وهو يقول: «لقد وجدتها يا عزيزي، لقد وجدتها».

«ما هذا بحق السماء؟». قلتها وأنا أنهض من موقعي وأنتقل إلى الطاولة بجانبه.

قال (هولمز) بشيء من الإثارة: «انظر، انظر». كان يشير بسبابته إلى رسم توضيحي على الصفحة، رسمًا لبيت ريفي رائع يستقر بين أراضٍ واسعة. شعرت بوخز من الإثارة عندما حددت إليه بدوري.

«ما هذا؟ إنه البيت الذي في الصورة التي رأيناها في مكتب المفتش (جاونت) وبيته!».

أجاب صديقي: «بالفعل إنه هو». وبطريقة مقدم العروض المسرحية أخرج اللوحة من جيبه الداخلي ووضعها على الطاولة بجانب الكتاب. لم يكن هناك شك في أن كليهما كانا لنفس البيت وذات المنظور.

«أين يقع؟».

«إنها قاعة (جالورث)، بالقرب من (ريتشموند). مسكن راقٍ بُني في عهد (جورج) الرابع لدوق (دارتينغتون). يخبرني هذا المجلد أنه بعد وفاة الدوق في عام 1805 ظل البيت غير مملوك لمدة عشرين عامًا ثم اشترته عائلة (كواتس) مقابل أجر زهيد، وقد استحوذت عليه منذ ذلك الحين، وهو حاليًا موطن السير (جاسبر كواتس)».

«أنا أعرف هذا الاسم».

«بالفعل أنت تعرفه، إنه أحد وكلاء وزارة الداخلية».

«عضو في الحكومة!».

«أمر غير متوقع أليس كذلك؟ تذكر أيضًا تلك الرسائل التي اكتشفناها في درج مكتب (جاونت) المغلقة في سكوتلاند يارد».

«ماذا بشأنهم؟».

«الرسائل كانت مذيبة بتوقيع...».

«أجل بحرف (J) المشيرة إلى (جاسبر)».

«بالضبط».

«إذن ما علاقة (جاونت) بالسير (جاسبر كواتس)؟».

«سؤال مهم للغاية يا (واطسون)، وأنوي اكتشاف الإجابة كاملة. أحضر كلاً من مسدسك ومعطفك؛ لدينا رحلة طويلة تنتظرنا في الأفق».

«هل تنوي الذهاب إلى قاعة (جالورث) الليلة؟».

«نعم، سأرتب لاستئجار عربة (جون) مرة أخرى».

أومأت برأسي متذكراً العمل مع (نيفيل سانت كلير) قبل بضعة سنوات. «ولكن ألا يمكننا أن ننتظر حتى الصباح؟».

«لا يا (واطسون). فالوقت هو العنصر الجوهرى في الأمر».

«من الواضح أن هناك بعض الارتباطات بين السير (جاسبر كواتس) من (جالوورث هول) والمفتش (جاونت). هل لديك أي فكرة عما يمكن أن يكون؟».

بعد مرور حوالي ثلاثين دقيقة، كنا نتحرك في طريقنا إلى (ريتشموند)، الواقعة جنوب غرب المدينة في مقاطعة (ساري). حسب (هولمز) فإن رحلتنا إلى هناك ستستغرق حوالي اثني عشر ميلاً. كان هذا السؤال الأخير يجول بخاطري طوال الوقت بينما ننتقل في الشوارع، التي اتسعت تدريجياً كلما تقدمنا، حتى مررنا عبر جسر (درايزين) العريض، مع تدفق نهر الـ(تايمز) الهادئ ببطء من تحته. لقد قطعنا عدة أميال، وشرعنا في بلوغ أطراف حزام الفيلات الأنيقة والفخمة في الضواحي، عندها شعرت أن رفيقي قد شعر ببعض الراحة، بعد أن تركنا المدينة وراءنا وبتنا قريبين من غايتنا. سمح لي هذا بأن أتشجع وأطرح السؤال الذي كان على طرف لساني منذ أن اقترح هذه المغامرة الليلية.

«هناك العديد من الاحتمالات تجول برأسي، لكنني لا أمتلك معلومات كافية لأكون واثقاً في أن أيّاً من تلك الاحتمالات هو الأقرب للصحة. ومع ذلك فمن الملحوظ أن مالك منزل (جالوورث هول) هو عضو في حكومة صاحبة الجلالة. من الواضح أنه سيكون أكثر فائدة للمؤسسة الإجرامية التي نتعامل معها إذا كان لديها وكيل قريب من قلب الحكومة ذاتها. كان

لديهم رجل في سكوتلاند يارد منذ البداية، فلا يبدو احتمال أن يكون لهم رجل في الحكومة مستبعدًا أو صعبًا عليهم».

«أنت تقول إن السير (جاسبر كواتس) خائن هو الآخر».

«ليس بشكل حرفي، لكنني أقول إن ذلك ممكن ولا يجب أن نستبعده».

«ماذا تنوي أن تفعل إذن؟».

«أخشى أنه قد فات أوان الإجراءات الدقيقة والحذر قبل الإقدام على أي خطوة. ليس لدي خيار سوى أن أفصح رئيس تلك المنظمة وأكتشف موضع عرينه. يجب أن يتضح وبسرعة كبيرة ما إذا كان السير (جاسبر) بريئًا في هذا الأمر أم لا».

الترمنا بالصمت بينما كنا نتحرك على طول الطرق الريفية، عبر القرى المتناثرة هنا وهناك، حتى وصلنا إلى ضواحي بلدة (ريشموند) الصغيرة. أوقف (هولمز) الحصان، وأضاء مصباحًا من الغاز خافت الإضاءة. ثم سحب خريطة من جيب معطفه. فردها وأمسكنا بأطرافها معًا كي لا تعاود الالتفاف حول نفسها، بسبابته المتخفية وراء القفاز الذي يرتديه أشار إلى ما تبقى من الطريق صوب وجهتنا.

«سنمر عبر المدينة، ثم بعد ذلك بثلاثة أميال نبليغ مفترق الطرق، هل تراه معي على الخريطة؟ نأخذ انعطافًا إلى اليسار. هذا الطريق لا يتسع إلا لعربة واحدة ليصل إلى بوابات قاعة (جالوورث)».

واصلنا رحلتنا على ضوء المصباح المرشد، بينما (هولمز) يوجه العربة كما أوضح لي على الخريطة، وفي غضون خمس عشرة دقيقة اقتربنا من بوابات القاعة العظيمة المنشودة. كانت ليلة صافية مقمرة، دون غيوم تعكر صفوها، فتمكنا من رؤية ما وراء البوابات من موقعنا بالعربة. كانت الأجواء مظلمة بعض الشيء لكننا تمكنا من رؤية البيت بدقة. كان متلاًئلاً في ضوء القمر الشجي، رغم فخامته لكنه بدا بالفعل قديماً وباليًا. وبقدر ما أسعفتني عيناى لم يكن هناك أي ضوء نابع من أي نافذة. تمتت: «يبدو أن كل سكانه غارقون في النوم».

قال (هولمز): «إذا كان هذا هو الحال، فسيتعين علينا إيقاظهم جميعاً حتى آخر فرد بينهم». وحث الحصان على التقدم. توقفنا بالعربة أمام المنزل، ثم قفز (هولمز) على الأرض واقترب من الباب الأمامي، تاركاً لي مهمة تقييد الحصان حتى لا يفر لسبب أو لآخر. وأثناء تقييده، سحب (هولمز) المقبض الكبير ليطلق بقوة على الباب البلوطي الضخم، فتردد الصوت من حولنا في هواء الليل الساكن.

نظرت إلى ساعة الجيب خاصتي فوجدت أنها تخطت العاشرة بقليل، هذا التوقيت يعتبر مبكراً إلى حد ما لكي تنام الأسرة بالكامل، ولكن لا يبدو أن هناك أي علامات على الحياة أو الحركة بالداخل. واصل (هولمز) الطرق على الباب. بعد وقت

طويل مر وكأنه دهر سمعنا حركة على الجانب الآخر من الباب ثم فتح أحدهم القفل. فُتح الباب ببطء ليكشف عن رجل يرتدي ثياب الخدم ويحمل مصباحًا زيتيًا بيده، ظهره منحني بسبب تقدم العمر وتراكم العمل على عاتقه، وقد غزت التجاعيد ملامحه العجوز الشاحبة. قسمت وجهه توحى بمزيج بين التخوف والمفاجأة. بدا غير واثق من كيفية بدء الحديث، فوفر عليه (هولمز) العناء.

«أنا (شيرلوك هولمز)، وأنا هنا لأرى سيدك». قالها وهو يرفع عقيرة صوته ثم تقدم للأمام بقوة مقتحمًا البيت، مما تسبب في تراجع الخادم إلى الردهة في دهشة.

«أخشى أن السير (جاسبر) ليس موجودًا في الوقت الحالي. إنه في لندن ولن يعود قبل وقت طويل. لقد سرح جميع الخدم الآخرين. لا يوجد أحد آخر يقيم في المنزل غيري. أنا الساكن الوحيد في الوقت الحالي».

«هل أخذ الطفل معه؟».

عبس الخادم للحظات، وكان من الصعب تحديد مشاعره الحقيقية في الضوء الخافت الذي نقف فيه. هل أحس بالصدمة لأن (هولمز) يعلم بوجود طفل أو أن الرجل لا يعلم حقًا ما يتحدث (هولمز) عنه من الأساس؟

«أي طفل؟». أجاب بعد فترة من الصمت.

«الصبي الصغير الذي كان السير (جاسبر) يحتفظ به هنا». هز كبير الخدم رأسه علامة على الحيرة وهو يقول: «لا أعرف عن أي طفل تتحدث يا سيدي».

قال (هولمز): «فهمت». ثم استل مسدسه من ثيابه معطفه مكملاً: «يبدو أن علينا تفقّد المنزل بأنفسنا إذن. هيا بنا يا (واطسون)».

انترع (هولمز) شمعدان مضاءً بالنار من طاولة القاعة، وتجاوز الخادم العاجز عن فعل أي شيء متوجّهاً إلى السلم الذي يؤدي للطوابق العلوية. حدوت حدو (هولمز) الذي قال بنبرة هادئة: «إذا كان الصبي سجيناً هنا فإنه بلا شك في إحدى غرف النوم. حتى لو أخذته السير (جاسبر) معه إلى لندن، ستكون هناك أدلة على أنه كان هنا في وقت ما. سيؤكد هذا أن السير (جاسبر) أحد المجرمين الخاطفين».

بسرعة وخفة قدر الإمكان، دخلنا جميع غرف النوم في الطابق الأول لتفتيشها أو الاكتفاء بالقاء نظرة سريعة عليها. بدت معظم الغرف كما لو أنها لم تكن مشغولة بالسكان لبعض الوقت، باستثناء واحدة، من الواضح أنها كانت غرفة السير (جاسبر) شخصياً، لكنها لم تقدم أدلة واضحة لتساعدنا. صعدنا إلى الطابق العلوي من المنزل. كان هناك العديد من غرف الخدم - كلها فارغة بدورها - وغرفة نوم كبيرة في العلية. لقد أتى فحص هذه الغرفة تحديداً بشماره أخيراً.

صاح (هولمز): «لقد كان الصبي هنا». وهو يحمل مجموعة من الرسومات الطفولية التي كانت متناثرة على السرير. انتقل إلى خزانة الملابس بجانب الفراش، التي كان مستقرًا على أحد رفوفها الخارجية كأس فارغ. رفعه صديقي إلى أنفه وراح يتشممه ثم قال بعد أن تعرف على الرائحة: «مورفين! لقد خدروا الصبي، ربما استعدادًا لرحلته».

«إلى أين أخذوه؟»

هز (هولمز) كتفيه وقال: «بالتأكيد ليس لبيت السير (جاسبر) بالمدينة. هكذا سيعرضون أنفسهم للخطر».

«هل تعتقد أن الخادم قد يعرف؟»

«لا، من الواضح لي أنه ليس لديه علم بهذه القضية من الأساس. من رده على استفساراتي بالأسفل، يبدو أنه كان جاهلاً بوجود صبي صغير في المبنى بصدق دون مراوغة، وإلا لكان عليه تنظيف تلك الغرفة من الأدلة كي يحكم كذبه».

«إذن لقد علقنا مرة أخرى، ولا يمكننا التقدم أكثر في تحقيقنا».

«مع الأسف هذا صحيح، ولكن أعتقد أن بإمكاننا أن نكون أكثر تفاعلاً يا صديقي العزيز. من الواضح أن السير (جاسبر) شخصية رئيسية في المؤامرة وسيكون من الصعب تعقبه. لكنني أعتقد أن إجراء بحث شامل عنه في الممتلكات الخاصة بالسير (جاسبر) قبل أن نعود إلى لندن لن يضرنا».

بأسلوب (هولمز) الدقيق والشامل المميز، فحص غرفة السير (جاسبر)، كانت غرفته كبيرة ذات أثاث فخم باهظ الثمن. بدت لي كما لو أنها معرض تجاري للأثاث.

أكد الخادم الشخصي - الذي لا يزال مرتبكاً بسبب وجودنا وعبثنا في الأرجاء - أن هذه هي الغرفة التي يستخدمها السير (جاسبر) عند العمل في الشئون الحكومية. تجول (هولمز) في أرجاء الغرفة بحثاً عن أدلة مع وجود عدسة مكبرة في يده، لدرجة أنه كان يزحف على السجادة عندما يبدو له أنه قد لاحظ شيئاً مشيراً للاهتمام. كان منغمساً تماماً فيما يفعله ولم ينطق ولو بكلمة واحدة أثناء تفتيشه للحجرة.

انصب تركيزي الرئيسي على فحص ما على المكتب الأنيق الواقع بجوار النافذة. كانت الأدراج مقفلة كالعادة وكان على (هولمز) أن يفتحها بالقوة. وبالفعل فتحهم جميعاً، على الرغم من احتوائهم على العديد من الأوراق الخاصة إلا أنها لم تتعدَّ حيز الأعمال العقارية والمسائل الحكومية البسيطة، وكان هناك كذلك عدد قليل من فواتير الخياط وحساب تاجر النبيذ.

صاح (هولمز) وخيبة الأمل محفورة على وجهه: «لا شيء هنا يتعلق بالصبي أو زملاء السير (جاسبر) في عملية الاختطاف». «ربما احتفظ بكل ما يدل على هذا في بيته بالمدينة».

«أظن أنك على حق. يجب أن يكون ذلك البيت هو وجهتنا التالية، ولكن قبل أن نغادر، أود أن أتحدث مع صديقنا كبير الخدم».

كان الخادم منزعجًا للغاية لما سبناه من هرج ومرج في المنزل، ومرتبكا إلى حد ما. دنا (هولمز) مني وهمس: «يا له من مسكين. إنه يجهل حقيقة الأمر الخطير أكثر من جهلنا بها». وقف الرجل العجوز في وضعية انتباه مهذبة عندما اقتربنا، وكانت ملامحه العجوز مشوبة بالخوف.

سأل (هولمز) بنوع من الرفق: «ما اسمك؟».

«(بارو) يا سيدي».

«لدي فقط بعض الأسئلة لأطرحها عليك يا (بارو)، وبعد ذلك سنرحل من هنا».

رمش (بارو) تخوفًا من هذه الأسئلة.

«هل يأتي لسيدك العديد من الزوار؟».

«لا، ليس كثيرًا يا سيدي. إنه يستقبل القليل هنا. أما معظم ارتباطاته الاجتماعية تكون في لندن».

«وعلى الرغم من ذلك، فقد استقبل زائرًا مؤخرًا، حضر على كرسي متحرك».

لان وجه (بارو) وأومضت عيناه وقد أدرك مقصد (هولمز) وهو يجيب: «هذا صحيح بالفعل يا سيدي، السيد (مور)، أعتقد أن هذا هو اسم الرجل».

«(مور)! هل يمكنك أن تصفه لنا؟».

«أخشى أنني لا أستطيع فعل هذا بدقة. إنه رجل مُقعد، يرتدي نظارات داكنة ويحتفظ بقبعته على رأسه حتى داخل البيت، وبالطبع نظرًا لكونه مقيدًا بالكرسي المتحرك فقد كان يلف ساقيه بشال شتوي».

«ما تخمينك لعمر الرجل؟».

ضم (بارو) شفثيه بينما يفكر في إجابة سؤال (هولمز)، حتى قال: «أخشى مرة أخرى أنه من الصعب أن أكون دقيقًا. لم يكن صغيرًا؛ صوته ضعيف للغاية، وغريب إلى حد ما، ومخيف. ربما كان في أواخر الخمسينيات من عمره وربما مطلع الستينيات. أنا حقًا لا يمكنني أن أكون أكثر دقة عن هذا».

«هل هناك أي شيء آخر غير عادي في هذا الرجل يمكنك أن تخبرني به؟ هذا مهم للغاية بالنسبة لي».

شرد وجه كبير الخدم للحظة. استطعت أن ألحظ أنه كان حريصًا على تزويد (هولمز) بالمعلومات التي يريد، كي يخلص نفسه من هذا الاستجواب الملتوي.

«لا يوجد شيء حقًا يا سيدي و...». بتر جملته فجأة كما لو أنه تذكر شيئًا.

«وماذا؟». حثه (هولمز) على النطق وهو يقترب من وجهه مباشرة حتى لا يمكنه المراوغة أو إخفاء شيء عنه.

«حسناً، كان كرسية المتحرك غير عادي إلى حد ما».

«غير عادي؟ كيف هذا؟».

«كان ذاتي الدفع، به نوع من الأجهزة الحركية التي تسمح للسيد (مور) بالتحرك دون أي جهد منه. لم يكن مضطراً إلى دفع العجلات بكفيه كما هو الحال عادةً مع تلك الكراسي التقليدية».

قال (هولمز) بخيبة أمل واضحة في هذه المعلومات: «اممم، ألا يوجد شيء آخر في الرجل يمكنك تذكره؟».

«لا يا سيدي لم أختلط به كثيراً. كنت أرافقه فحسب من وإلى مكتب السير (جاسبر) هذا كل شيء دون زيادة أو نقصان».

«مكتب؟ إذن كان هناك لقاءات عمل رسمية، لم تكن زيارة اجتماعية ودية؟».

«أفترض ذلك. أخشى أن السير (جاسبر) لا يثق بي لإطلاعي على مثل هذه الأمور المتعلقة بحياته أو عمله».

قال (هولمز): «حسناً». ابتعد عن الخادم العجوز وهو يلتفت إليّ قائلاً: «أعتقد أن زيارتنا هنا قد انتهت يا (واطسون). حان الوقت لنعود إلى العاصمة». ثم قبض على ذراعي وجذبني نحو الباب لنغادر المكان في عجلة.

الفصل الرابع والعشرون

سأل السير (جاسبر كواتس): «هل الصبي محفوظ بأمان؟».
حرك البروفيسور كرسيه المتحرك من الظل إلى الضوء وهو
يجيب: «إنه ينام في الغرفة التي أعدتها له». «هذا جيد».

«بالفعل». ابتسم البروفيسور ابتسامة غريبة؛ شفتاه منحنيان
للأعلى بلطف، لكن عينيه ظلتا جامدتين وثابتتين وهو يقول:
«لقد أديت دورك في هذه القضية على أكمل وجه يا سير
(جاسبر). يجب تهنتك على تفانيك في العمل واهتمامك
بالتفاصيل». خرج صوته من حنجرته كهمس قاس، فأوماً السير
(جاسبر) برأسه علامة على تقبله لهذا الشكر.
تابع البروفيسور وهو لا يزال محتفظاً بذات الابتسامة العجيبة:
«ومع ذلك، يجب التأكيد على أنه اعتباراً من هذه اللحظة تنتهي
واجباتك ومساهماتك بعملنا».

ظهرت نظرة ارتباك خفيف على وجه السير (جاسبر). فكر
إن كان هذا نوعاً من المزاح الخفي؟ بالتأكيد كان كذلك أو
هكذا ظن في مخيلته، فابتسم مجاملاً لتلك المزحة المزعجة،
لكنها ليست سوى تمهيداً للمزاح الحقيقي.
ورغم تلك البسمات المتكلفة المتبادلة بين الرجلين، سحب
البروفيسور مسدساً من تحت الشال الذي يغطي ساقه، وهو

يقول: «هنالك دومًا حكمة أتبعها تقول إنه عندما يتوقف شيء ما - أو شخص ما - عن كونه ضروريًا لخطط المرء فمن الأفضل التخلص منه. هكذا يُنظف السطح كما يقول البحارة».

تجمدت أطراف السير (جاسبر)، وفتح فمه كما لو كان على وشك قول شيء ما، لكن التحول المفاجئ والدرامي للأحداث ألجمه لدرجة أن الكلمات قد تحشرجت في حلقه.

«أشكرك مرة أخرى على جهودك وتعاونك. لقد أديت واجبك على أكمل وجه، وبالفعل أنت لن تكون قادرًا على تأدية المزيد منه، والآن حان وقت الوداع».

صوب المسدس على السير (جاسبر) وأطلق النار. قبل أن يملك الرجل وقتًا للحركة، وقتًا للدفاع عن نفسه، وقتًا للالتفاف والركض، اخترقت الرصاصة قلبه في مقتل. ارتجف جسده وهو لا يصدق أنها النهاية، ثم خرج من بين شفثيه بعض الغرغرة المحتضرة. تشبثت يده بصدرة كما لو أنه يحاول تخفيف الألم في محاولة بائسة أخيرة منه، بينما نهر من الدم القاني يتدفق من بين أصابعه. حذق السير (كواتس) إلى قاتله، وعيناه مفتوحتان من هول الصدمة، ثم هوى إلى الأمام في صمت حتى ارتطم وجهه بالأرض.

وضع (موريارتي) مسدسه مرة أخرى أسفل الشال الشتوي المستقر فوق ساقيه، هذه المرة كانت ابتسامته صادقة وظهر الاستمتاع في عينيه.

فُتح باب الغرفة ودخل المفتش (دومينيك جاونت). نظر إلى الجثة وعلى وجهه قناع من اللامبالاة تجاه ما يراه الآن كما لو أنه أمر طبيعي.

قال البروفيسور: «هذا مجرد إنهاء لبعض الأعمال غير المنتهية».

«أرى هذا بالفعل، كما أنني سمعت صوته».

«أنا أعتد عليك في التخلص من الجثة بالطريقة المعتادة».

«هل كان هذا ضروريًا إذن؟».

«بالتأكيد. كان (كواتس) شخصًا بالغ الأهمية في خطتنا بالنسبة لي، لذا لا يمكنني أن أسمح له بالعيش. إن مكانته في المجتمع ومنصبه داخل الحكومة سيجعله دائمًا عرضة للخطر بعد أن أدى المطلوب منه، وبالتالي سيشكل تهديدًا علينا. كان من الضروري القضاء عليه بمجرد انتهاء دوره. لكنك تبدو حزينًا! هل تشفق على حاله؟».

«ليس تمامًا. كان ظريفًا وكذلك مسليًا بعض الشيء».

أوما (موريارتي) برأسه علامة على موافقته (جاونت) الرأي وهو يقول: «هكذا الأمر إذن. إن الصداقات الشخصية ليست لأمثالنا، فهي تعقد الأمور. كما أن السير (جاسبر كواتس) لم يكن يشبهنا يا عزيزي (جاونت)، فقد كان متعصبًا، رجل له دوافعه وصاحب مبادئ عليا وإن كانت مضللة أو خاطئة. كان يظن حقًا أننا سنؤدي إلى سقوط الحكومة. مضلل وساذج، ليس مثلي ومثلك، مجرد مجرمين بسطاء، ساعين لجني المال والثروة، جامعين لمكاسب غير مشروعة». ضحك البروفيسور بحرارة، فاهتز جسده النحيف في كرسيه بينما بدت الضحكات كما لو أنها نابغة عن منفاخ تالف.

«مجرد مجرمين؟». كرر (جاونت) كلمة البروفيسور الأخيرة وهو يتابع: «لا أعتقد ذلك. بالتأكيد ليس في حالتك، ألسنت (نابليون) الجريمة؟».

«في الواقع لقد كنت كذلك في الماضي، قبل أن يصاب جسدي بالشلل. سيعلمني ذلك ألا أذهب للسباحة في سويسرا مرة أخرى». ضحك مرة أخرى، لكن هذه المرة كان هناك مرارة شديدة في ضحكته الكئيبة. ثم تابع: «ومع ذلك بمجرد أن يصل مشروعنا الصغير هذا إلى خاتمة سعيدة، على الرغم من أنوف كل من سكوتلانديارد و(شيرلوك هولمز)، وإجبارهم على طأطأة رؤوسهم في الوحل من العار، سأشعر بالرغبة في نعتي بلقبي القديم مرة أخرى».

«سيكون ذلك قريبًا».

«بل أقرب مما تظن».

«ماذا تقصد؟».

«لا تسمح أبدًا للعدو بمعرفة ما تفعله بالضبط. يعتقدون أننا منحناهم ثمانين وأربعين ساعة للرد، لكننا ضللناهم، سنبغهم ظهرًا أننا بحاجة إلى قرار بحلول منتصف الليل. سأتصل برئيس الوزراء الآن بعد أن حصلنا على رقمه الخاص بفضل السير (جاسبر) الذي كان لا يقدر بثمن في سابق عهده. سيدفعهم هذا للقيام بتنفيذ أي شيء أريده، ولو حتى كان إدخال القط في قفص الطيور».

«بالفعل هذا ما يجب أن يحدث».

«الآن يا (جاونت)، تخلص من هذه الجثة، فقد بدأ منظرها

يزعجني».

الفصل الخامس والعشرون

من مذكرات د. (واطسون)

حين وصلت أنا و(هولمز) إلى المبنى، كانت النيران قد سيطرت عليه بالكامل. كان رجال الإطفاء يخوضون معركة خاسرة ضد ألسنة اللهب التي التهمت الهيكل الخارجي للمبنى ليتحول إلى منطقة محظورة تفرض النيران سيطرتها عليه. كان الفجر يلوح في الأفق ويبدو أن وهج الحريق كان يندمج مع الصبغة الوردية لسماء الصباح، فبدت كما لو أن السماء ذاتها قد اشتعلت بالنيران. كان هناك حشد كبير من المتفرجين يتجمعون حول الطوق الذي ثبته رجال الإطفاء لإبعاد المدنيين عن النيران. على الرغم من الأوامر الصارمة لرجال الأطفاء المتمثلة في: «ابقوا في الخلف حفاظاً على سلامتكم». لكن المتفرجين تقدموا إلى الأمام في عناد، معتبرين أنفسهم محظوظين برؤية هذا المشهد الذي لا يتكرر، ومفتونين بالجحيم المتأجج.

وقفنا أنا و(هولمز) في الخلفية نراقب تطور الأحداث، استسلم سقف البيت الريفي للنيران في نهاية المطاف، وانهار كالقذيفة على طابقي المبنى الآخرين من تحته، مما أدى إلى تصاعد سحب من الرماد والغبار إلى عنان السماء.

صرخت: «يا إلهي، هذا فظيع يا (هولمز). هل تعتقد أن السير (جاسبر) في داخل البيت هو والصبي؟».

«لا أعتقد ذلك. على الأرجح إن هذا الحريق قد اندلع عمدًا».

«لأي سبب؟».

«دور السير (جاسبر) في مؤامرة الاختطاف أصبح معروفًا بالنسبة لنا. ليس لديه مستقبل كشخصية عامة بعد أن نفضح خيانه. ربما أراد التخلص من ماضيه، أو...».

توقف (هولمز) عن استطراد الحديث، ثم كشفت ملامحه أن فكرة غريبة مفاجئة قد جالت بخاطره، فسألته حائًا إياه على أن يكمل: «أو ماذا؟».

«أو كان هذا بسبب أمر من رئيسه. قد يكون هنالك أسرار في هذا البيت يجب تدميرها. لم نعثر على أي شيء في قاعة (جالورث)».

حدقت للحظة إلى البيت المحترق، الذي صار مجرد بناية متداعية الهيكل في قلب الجحيم، ثم قلت: «إذن فهم يسبقوننا بخطوات عديدة مرةً أخرى».

اتكأ (هولمز) على كتفي، وكان جسده ثقيلاً من التعب وهو يقول: «أنت على صواب مرةً أخرى. مع الأسف نحن على هذه الحالة منذ وقت طويل، منذ أن بدأنا في تتبع هذه العصابة. لم أظفر بهم قط في مرمى بصري. حسناً، يبدو أني أنافس هذه المرة نداءً لي؛ (موريارتي) آخر».

«أعلم كيف كنت تبجل (موريارتي) باعتباره عبقرياً إجرامياً، لكنك تغلبت عليه في النهاية، وستنتصر على من يقف وراء هذه العصابة أيضاً، بعبقريتك وبعض من الحظ الحسن».

ضحك (هولمز) ضحكة مكتومة مريرة وهو يرد: «حسناً، يبدو أن الحظ لا يطرق بابي، وربما عقلي قد ضمير كذلك».

سمعنا صوتاً من شخص يقف خلفنا يقول: «يمكن أن يكون هذا بالفعل هو ما حدث».

التفتنا لنرى صاحب الصوت الذي اتضح أنه (مايكروفت هولمز)، الذي بدا وجهه كما لو أنه محتقن بالدماء بسبب انعكاس النار عليه، وملامحه توحى باستياء شديد.

«ما الذي تفعله هنا بحق السماء؟». وجدت نفسي أقول هذا السؤال قبل أن أفكر في صياغته.

قال (هولمز) مجيبًا بالنيابة عن أخيه: «السير (جاسبر) عضو في الحكومة ومن ثم فهو أحد أفراد قطيع (مايكروفت). في ظل الظروف المأساوية الحالية، بمجرد علم السلطات بهذا الحريق، فإنها قد أبلغت (مايكروفت)».

«هذا صحيح. أنا لا أستيقظ من نومي في منتصف الليل ثم أضطر للخروج في ساعات الظلام، لحضور هذا العرض الناري، بمثل هذه البساطة، إلا إذا كان الأمر ضرورة قصوى. إذن ما الذي تعرفه يا (شيرلوك)؟».

«السير (جاسبر) هو أحد أفراد عصابة الخاطفين».

«خائن؟».

أوماً (هولمز) برأسه وهو يكمل: «بالفعل. إما أنه أتى إلى هنا ودمر بيته بالمدينة بسبب ما يحمله من أدلة كثيرة، أو...».

«أو أن رئيسه قد أقصاه، أو ربما قدمه كقربان محترق». قالها (مايكروفت) وهو ينظر نحو النار.

سألته: «أنت لم تشك في السير (جاسبر) من قبل؟».

«على العكس، لقد كان رجلًا ودودًا للغاية. لو كان هذا سببًا كافيًا لإنذارني بوجود خطب ما، فإنه لم يُثر أي نوع من القلق. والسؤال المهم الآن هو أين الصبي؟ الوقت ينفد منا يا عزيزي (شيرلوك)».

نقر (هولمز) بعصاه أرضاً على الرصيف في علامة توحى بنفاد صبره، وهو يقول: «هذه الأوامر لا تجدي نفعاً معي يا (مايكروفت). من فضلك توقف عن نطقها».

«إذن أرجو منك إثبات أنك تفعل شيئاً ما يساعدنا على الوصول بهذه القضية إلى نتيجة مرضية».

«(هولمز) يبذل قصارى جهده». قلتها مقاطعاً وأنا غير قادر على مقاومة الدفاع عن موقف صديقي. نظر (مايكروفت) إليّ مبتسماً وهو يقول: «إذن ربما يكون قصارى جهده هذا ليس جيداً بما فيه الكفاية».

تنهد (هولمز) وهو يجيب: «نحن نضيع الوقت في هذا الهراء. لدي أمور أهم في مكان آخر». استدار صديقي وطلب مني الانضمام إليه وهو يسير بخطى سريعة مغادراً المكان.

قال (هولمز) عندما لحقت به: «أقدر تعليقاتك في الدفاع عني، لكنني قادر تماماً على خوض معاركي الشخصية، خاصة ضد أخي. تذكر أنني عرفته عمراً كاملاً من الحضانة إلى الرجولة. عندما لا تسير الأمور على ما يرام يسלט هجومه على الآخرين، ويلقي باللوم على عدم كفاءتهم، وخاصةً معي. كثير ما دفعني لمساعدته في تحقيق أهدافه الخاصة في شبابتنا، الشيء نفسه يتكرر اليوم بحذافيره. كانت ثورته الأخيرة بسبب الخوف والإحباط وليست مجرد انتقاد لي. أعمال الاختطاف تلك تستنزف ثقته بحق».

قلت بهدوء: «ألا تستنزفك أنت أيضًا؟».

ابتسم لي (هولمز) بلطف وهو يجيبني: «رباه يا (واطسون)، هذا السؤال ضربني في الصميم. بالتأكيد تستنزفني، يجب أن أعترف أنني لست مرتاحًا لما قد يحدث بالمستقبل، لكنني لم أفقد الأمل بعد».

«إذن، إلى أين الآن؟».

«العودة إلى شارع بيكر، من أجل الاغتسال والحلاقة ووجبة فطور لذيذة لإنعاش روحينا المتعبتين. هناك صباح مرهق أمامي على ما أعتقد، لكنني لن أطلب خدماتك هذه المرة، لذلك أقترح عليك أن تأخذ قسطًا من الراحة استعدادًا لمزيد من الجدية في المستقبل القريب».

سألته: «هل أنت واثق من أنني لا أستطيع تقديم أي مساعدة؟». لم أكن سعيدًا باحتمالية إقصائي من الأحداث خاصة في هذه المرحلة المظلمة والصعبة، وحرصًا مني على التواجد في جميع مراحل التحقيق.

«في هذه الحالة، أجل لا تستطيع تقديم العون. ولكن لا تخف، إذا نجحت فيما أنوي فعله، فسيُكشف عن كل شيء. تشجّع يا صديقي العزيز، أنت تعلم أنني أقدر تواجدك ومساعدتك، ولكن هناك أوقاتًا يكون من الأفضل أن أتصرف فيها بمفردتي».

أومات برأسي في تفهم. لا أستطع أن أنكر صحة كلامه، لكن هذه الحقيقة لا أحبها.

بعد ساعتين كنا جالسين لتناول الفطور. بينما ألتهم اللحم المقدد والبيض المقلي مع الخبز المحمص، كان (هولمز) يعبث ببعض الخبز المحمص في طبقه ويدخن بشراهة كالحريق الذي رأيناه يلتهم المنزل، حتى ملأ غرفة جلوسنا بغطاء رقيق لاذع من الدخان. ذهبت لأجلس أمام نار المدفأة مع فنجان من القهوة، حاولت الاطلاع على بعض المقالات في مجلة طبية على أمل يأس في تشتيت أفكاري بعض الشيء. ارتدى صديقي معطفه مرة أخرى وقال لي: «تمنّ لي حظًا حسنًا، أمل أن أعود بحلول وقت الغداء».

«أتمنى أن تكون بخير».

حياني بتحية قصيرة بقبعته ثم رحل.

جلست لبعض الوقت أحرق بشرود إلى الفراغ، بينما بردت قهوتي وانزلقت المجلة الطبية التي نسيت أمرها تمامًا من بين أناملتي إلى الأرض. كان ذهني مفعمًا بالأفكار والمخاوف والتأملات التي لا تعد ولا تحصى، وكلها تخص تحقيقاتنا بالتأكيد، والشرك المعقد الذي تورطنا فيه عن حسن نية، مع

هؤلاء الذين هم أعلى منا دهاءً ونفوذًا. بدا لي أنه على الرغم من كل جهودنا لم نقرب حقًا من العثور على الصبي المخطوف أو القبض على العصابة الكامنة وراء هذا المخطط الدنيء.

رحت أعيد تنسيق ما مررنا به من أحداث بترتيب زمني دقيق، مذكرًا نفسي بكل التواءة أو تغير مفاجئ في مجري الأحداث، في محاولة يائسة مني لمعرفة إذا كان بإمكانني اكتشاف دليل واحد ربما فاتني طوال تلك الفترة. لكن جهودي لم تثمر عن أي شيء. لم يكن هناك ضوء مفاجئ ينير ظلمتي ويبدد جهلي. كما لم أستطع أن أفهم ماهية المهمة التي انطلق (هولمز) لينفذها هذا الصباح، وهي مهمة (لا تتطلب خدماتي) كما قال بنفسه. على الرغم من تبريرات (هولمز) بأن عمله وحيدًا في بعض الحالات الخاصة يوفر علينا الكثير من الوقت ويعرضنا لخطورة أقل لكنني ما زلت أشعر بالضيق من إبعادي عن القضية في هذه المرحلة الحاسمة. فجأة شعرت بتعب شديد. دفعته معدتي الممتلئة بالطعام والنار الدافئة في المدخنة، إلى جانب عقلي المرهق، تدريجيًا نحو النوم. كدت أستسلم للأمر بعدما وجدت أنه ما من مانع في أن أنعم ببعض الراحة، لكن ضجة مرتفعة مصحوبة بصوت خطوات متسارعة على الدرج، جعلت اليقظة تدب في كياني. بعد لحظات انفتح باب الشقة ودلف منه (رونالد تيمبل) بنفسه إلى غرفة المعيشة. لم يكن حليق الذقن وكان في حالة رثة مشيرة

للسففة، حيث كانت ربطة عنقه منحرفة، وملابسه غير مهندمة،
وعيناه غائمتان من قلة النوم.

من خلفه كان بإمكانه رؤية السيدة (هودسون)، وقد احمر
وجهها وهي تلوح بيديها في الهواء باحتجاج، ثم قالت باعتذار:
«أخبرت هذا الرجل المحترم أن السيد (هولمز) ليس في المنزل،
لكنه لم ينصت إليّ».

«لا بأس يا سيدة (هودسون)، سأهتم أنا بأمر زائرنا الآن».
قلتها وأنا أنهض من مقعدي.

أومأت برأسها وهي تنظر بامتعاض إلى زائري المقتحم العنيد،
ثم أغلقت الباب من خلفها.

«أين هو بحق الشيطان؟». قالها السيد (تيمبل) بمجرد
أن أصبحنا وحدنا، وأكمل: «لماذا لم نسمع أي مستجدات في
القضية؟ ألا تعرفون الجحيم الذي نمر به يوميًا؟».

«هل انتهيت من نوبة غضبك يا سيد (تيمبل)؟ اجلس من
فضلك، وسأحضر لك بعض البراندي».

«لا أريد البراندي، بل أريد إجابات». نطقها الرجل بانفعال،
لكن إرهاقه تغلب عليه في تلك اللحظة، فانهار على كرسي من
الخيزران في إحدى زوايا غرفة المعيشة. صبيت له كأسًا صغيرًا
من البراندي، وعلى الرغم من اعتراضاته السابقة إلا أنه تجرعه
دفعة واحدة.

«ماذا يحدث بحق السماء؟». سأل في النهاية وقد تبددت كل نيران غضبه السابقة. كان لدي هنا رجل متعب ويائس، حريص على سماع أخبار عن ابنه، وليست أي أخبار فحسب بل السارة منها. فجأة شعرت بالذنب، لقد ركزنا أنا و(هولمز) على حل القضية المطروحة، وفي المقابل أهملنا عميلنا. بالفعل لم يكن هناك سوى القليل لإخباره به - لم يكن لدينا أي شيء إيجابي لنخبره به على أي حال - لكنني أدركت أنه كان ينبغي علينا بذل بعض الجهد للاتصال بعائلة (تيمبل)، لطمأنتهم بأننا نبذل كل طاقاتنا في السعي لتحقيق النجاح بالقضية. لا بد أنه قد استنتج - بسبب تجاهلنا التام له - أننا لا نحرز أي تقدم في القضية أو تركناها من الأساس وانشغلنا بغيرها. شعرت بالخجل من نفسي وأنا أنظر إلى هذا الرجل المحطم اليائس.

بطريقة متواضعة لا تحمل تبريرًا معتبرًا اعتذرت عن صمتنا وأكدت له أن هذا كان بسبب تركيز كل جهودنا على اتباع خيوط مختلفة بالقضية.

«وهل أحرزتم أي تقدم؟ هل اقتربتم من العثور على ابننا؟». سأل الرجل وفي صوته نغمة انكسار وعيناه متعبتان محتقنتان بالدماء من فرط مشاعره.

أجبتة: «نحن متفائلون، السيد (هولمز) يتتبع بعض المعلومات الآن في هذه اللحظة التي نتحدث فيها. إذا كان هناك شخص يمكنه العثور على ابنك فهو (هولمز) دون شك». رد بمرارة: «وماذا لو لم يستطع أحدهم هذا سواء (هولمز) أو غيره؟».

«لا تفقد الأمل يا سيد (تيمبل). من النادر حقًا أن يفشل (شيرلوك هولمز)».

«نادر، لكن ممكن، أليس كذلك؟».

تنهدت وأنا أدرك أن من الصعب للغاية طمأنة عميلنا المحبط. «لو كان بإمكانك رؤية زوجتي يا دكتور (واطسون)، هي لا تأكل ولا تنام. وجهها متشقق من الألم وتقضي معظم وقتها في البكاء. لا يستطيع أحد مواساتها، سواء أنا أو أختها».

أشفق قلبي على هذا الرجل المسكين. أنا على استعداد لفعل أي شيء في العالم لمساعدته، ليتني أستطيع إعادة ولده لحضنه اليوم قبل الغد، لكنني مع الأسف عاجز الحيلة.

نهضت وأنا أربت على كتفه، قائلاً: «أخشى أنها مسألة وقت، لكننا نتوقع تطورات في القريب العاجل. أعدك بأننا سنتواصل معك في غضون الأربع وعشرين ساعة القادمة لإطلاعك بمستجدات ترضيك حول القضية. أدعو الله أن نتمكن بعد ذلك من تقديم الأخبار السارة النهائية لك».

تطلع إليّ السيد (تيمبل) بقوة كما لو أن نظراته تخترق روحي، ثم وقف على قدميه بكتفين منحيتين وشق طريقه صوب الباب بطريقة خجلة من اقتحامه العنيف فيما سبق. غادر دون كلمة إضافية أو نظرة أخيرة إلى الوراء. شعرت بالحزن لأنني لم أتمكن من إعطائه أكثر من الوعود المستقبلية. أدركت - وليس للمرة الأولى - أنه عندما انخرطت أنا و(هولمز) في هذا التحقيق نسينا في ذروة الأحداث التي تمثل خطرًا على حياة كلينا أن لتلك الأحداث آثارًا مفاجئة على أولئك الذين هم على رأس القضية. تركني الرجل في حالة معنوية منخفضة للغاية، صبيت لنفسي كأس براندي وعدت لأجلس على مقعدي بجوار نار المدفأة، منتظرًا عودة (هولمز)، على أمل يائس أن يجلب معه أخبارًا إيجابية.

الفصل السادس والعشرون

على الرغم من أن (شيرلوك هولمز) يقدر ويحترم مساعدة (واطسون) أثناء التحقيق في قضية، ولكن هنالك بعض الأوقات التي يفضل فيها العمل بمفرده. كان لدى (واطسون) هبة عظيمة من الارتجال لا تقدر بثمن في التعامل مع الأزمات، ولكن كانت هناك مناسبات يشعر فيها (هولمز) بالحاجة إلى التصرف وحيداً. يمكنه العمل بسرعة أكبر، دون الحاجة إلى التحرك مع حليفه في كل حذب وصوب، والتصرف بشكل أكثر عملية، كما يمكنه أن يخطئ أو يفشل কিفما يشاء دون جمهور يراقبه. كانت مهمته في ذلك الصباح مبنية على أكثر الخيوط هشاشة ولم يكن لديه سوى أمل ضئيل في أن تأتي بثمارها. نتيجة لذلك أراد أن يسير على هذا الأمل الضئيل بخفة ودون عبء وجود رفيق.

كانت مهمته تتمثل في زيارة مختلف مصنعي الكراسي المتحركة في مدينة لندن بحثاً عن المؤسسة التي صنعت النموذج الميكانيكي الذي يتحرك ذاتياً، الذي وصفه خادم السير (جاسبر كواتس). كان (هولمز) مقتنعاً بأن صاحب هذا الكرسي المتحرك هو الشخصية الرئيسية في القضية. لقد وضع قائمة

بهذه الشركات من دليل (أديسون) للأعمال والحرف، ومن ثم بدأ الجولة الشاقة على الموردين والمصانع. في البداية لم تلاق أسألته سوى الجهل التام عما يبحث في جميع الأماكن التي زارها. ومع ذلك، قرب منتصف الصباح، اتصل بـ(مورتيمر لعربات المقعدين) في (تشيلسي)، شركة صغيرة لها متجر ملحق بالورشة. دخل (هولمز) المتجر واستقبله شاب متحمس بوجه مشرق، يرتدي ما يبدو أنه زي متعهد المكان، له عيانان موقدتان بالنشاط. استنتج (هولمز) أن هذه كانت الوظيفة الأولى للشاب وأنه لم يعمل قبلها لفترة طويلة. كان بنطاله لا يزال يتمتع بزاوية حادة من أثر المكواة، وكانت سترته لامعة مما يوحي بأن الشاب لم يرتدها كثيرًا فلم تكتسب الانطفاء المعتادة بعد.

يبدو أن الشاب حديث العهد على هذا العمل ولن يكون لديه المعلومات الكافية لتفيده في بحثه، فعندما شرح (هولمز) ما كان يبحث عنه خفت السطوع في سلوك الشاب.

قال وهو يهز رأسه علامة على النفي: «ليس لدينا شيء من هذا القبيل يا سيدي. (مورتيمر) هي شركة تقليدية. لقد صنعنا الكراسي المتحركة لأكثر من مئة عام وخلال ذلك الوقت حرصنا على توفير إنتاج خاص لهؤلاء الذين ينتمون إلى طبقة النبلاء والأرستقراطيين. لدينا مجموعة باهظة السعر نوعًا، ولكننا نقدم أيضًا التسهيلات للتصميمات المخصصة إذا رغبت في ذلك.»

لقد كان خطاباً يحفظه الشاب عن ظهر قلب. تساءل (هولمز) عن عدد المرات التي يكرر فيها هذه الكلمات الجافة على مدار اليوم. «لديكم خاصية التصميمات الخاصة، لكن ليس لديكم تقنية الكراسي المزودة بمحرك؟».

هز الشاب رأسه مجيباً: «أخشى أن السيد (مورتيمر) العجوز لا يتعامل مع مثل هذه التقنيات الغريبة. إن طلبها نادرٌ للغاية ويعتقد أنها ستكون موضة عابرة ولن يسمع أحدٌ عنها شيئاً فيما بعد». فجأة انحنى الشاب إلى الأمام وهو يدنو من أذن (هولمز)، ثم خفض صوته وهو يكمل: «في رأيي يا سيدي، إن السيد (مورتيمر) مخطئ، أعتقد أن كراسي التحرك الذاتي هي المستقبل بعينه. حيث يمنح الكرسي المزود بمحرك مزيداً من الراحة للمُقعّد مما يدفعه للاستغناء عن الكراسي التقليدية المرهقة. ستصبح هذه الصناعة رائجة ومشهورة للغاية في الوقت المناسب، أنا مقتنع بهذا».

أوماً (هولمز) برأسه في حماس موافقاً على كلام الشاب، وهو يسأل: «إذا كنت أرغب في الحصول على إحدى هذه التقنيات الغريبة اليوم، فإلى أين تنصحني بالذهاب؟».

زم الشاب شفّتيه في تردد. استطاع (هولمز) أن يلاحظ أن الشاب كان مدركاً تماماً أنه لا توجد عملية بيع محتملة لورشته،

ولكن هل سيكون مستعدًا لنقل المعلومات التي من شأنها أن تقود زبونه إلى مورد آخر منافس؟

قال بعد صمت طال، وهو يحافظ على نبرة صوته المنخفضة الهامسة: «حسنًا يا سيدي، في الوقت الحالي لا يوجد مصنعون كبار ينتجون مثل هذه النوعية من الكراسي، لكنني أعرف شخصًا، مخترعًا من نوع ما، قد صنع القليل لعملاء معينين. إنه شاب غريب الأطوار ولكنه ذكي. كنت أجد أن يأتي ويعمل هنا، لكنه لن يفعل ذلك أبدًا، ولن يوافق السيد (مورتيمر) على هذا بأي حال».

«لكنه الشخص المناسب ليصنع لي واحدًا من هذه الكراسي المزودة بمحركات، أليس كذلك؟».

«مقابل رسوم خاصة، ليس لدي شك في مقدرته».

«من هذا الشخص؟».

تلفت الشاب حوله بعصبية قبل أن ينتزع قطعة من الورق من على المنضدة ويخط عليها شيئًا.

«سأكون مصرًا يا سيدي على ألا تذكر كيف حصلت على هذا الاسم والعنوان. إذا اكتشف السيد (مورتيمر) الأمر سأفقد وظيفتي على الأرجح».

ابتسم (هولمز) بلطف، ثم قال وهو يمد يده لأخذ الورقة: «سرك في أمان معي». ناوله الشاب الورقة والتي كانت تحمل عبارة: «(رالف هاربوتل)، 5 شارع (أنجيل كورت)». قال (هولمز) وهو يلامس حافة قبعته في تحية: «شكرًا لك». ثم غادر المكان، وفي غضون خمس دقائق كان يستقل عربة أجرة في طريقه إلى شارع (أنجيل كورت).

كان ذلك بعد الظهر بقليل عندما وجد (شيرلوك هولمز) نفسه يستقل عربة أجرة أخرى عائداً إلى شارع بيكر. كان وجهه شاحباً ومصدوماً، ورغم كل جهوده لتمالك أعصابه لم يستطع منع يديه من الارتعاش. لا ينكر أن مهمة البحث الصباحية قد أتت بشمارها بكل تأكيد، لكنها كشفت أيضاً معلومات أفرزته حتى النخاع. نادراً ما يتفاجأ (هولمز) بالأحداث التي يمر بها، مهما بلغت من العنف أو كانت تجربة غير سارة، سواء بهذه القضية أو غيرها.

كان الوضع عصياً على التصديق، ومع ذلك كان يعرف في أعماق قلبه أن ما عرفه وما استنتجه يجب أن يكون هو الحقيقة الخالصة، بل الحقيقة الرهيبة.

«لقد وصلنا يا سيدي». صاح سائق عربة الأجرة، حيث اخترقت تلك العبارة السحابة السميكة للأفكار العاصفة بعقل المحقق.

غادر (هولمز) عربة الأجرة في حالة شرود، وبعد أن دفع حسابها وقف أمام باب عقار 221ب شارع بيكر لبضع لحظات قبل أن يدلف إليه. بينما كان يشق طريقه إلى غرفة الجلوس بمنزله، كان أحد الأشياء التي ساعدته على تمالك أعصابه هو أنه سيكون قادرًا على التفكير بصورة أفضل وبصوت عالٍ حين يشارك أخباره مع (واطسون).

الفصل السابع والعشرون

من مذكرات د. (واطسون)

كان (شيرلوك هولمز) الذي دلف من باب الشقة إلى غرفة الجلوس، بعد ظهر ذلك اليوم بوقت قصير يختلف عن صديقي المحقق ذي الوجه الحاد الذي كنت أنتظره. حتى بعد ليلة كاملة من دون نوم، فقد غادر ذلك الصباح متلهفًا ويقظًا كما لو أنه نام دهورًا، وملامحه مشدودة بالحماس. الرجل الذي ظهر أمامي الآن كان شاحبًا وبدا مرهقًا للغاية، كما لو أن هموم الكون قد تراكمت على عاتقه مرة واحدة. كان من الواضح أن شيئًا فظيئًا قد حدث في هذه الجولة من دوني، وتوقع قلبي الأسوأ. خلع صديقي معطفه، ثم هوى على الكرسي المقابل لي دون أن ينبس ببنت شفة.

صحت: «رباه، ماذا حدث لك بحق السماء؟ تبدو فظيئًا». ظهرت ابتسامة باهتة على ثغر (هولمز) وهو يجيب: «لقد أصبت ببعض الصدمات. هذا كل شيء».

«هذه الصدمات ليست بشأن الصبي، أليس كذلك؟ إنهم لم...». لم أستطع تحمل نطق باقي الكلمات.

«لا، لا. لا شيء من هذا القبيل.»

«حمدًا لله. حسنًا، ماذا هناك؟.»

نهض (هولمز) قاصدًا رف المدفأة، تناول بعض التبغ العتيق ودسه في غليونه، قبل أن يرد: «أعتقد أنه من الأفضل أن أخبرك بكل شيء من البداية.»

«سيكون رائعًا.. هيا أخبرني.»

أشعل غليونه بأحد أعواد الكبريت ثم بدأ في الحديث: «كانت مهمتي هذا الصباح هي تعقب مورد الكرسي المتحرك الذي أبلغنا خادم السير (جاسبر) بمواصفاته. من خلال صانع تلك النوعية من الكراسي كنت أتمنى الوصول منه إلى المالك نفسه الذي نبحت عنه، والذي كنت أشك في أنه العقل المدبر وراء هذا الاختطاف بأكمله. والآن أعرف على وجه اليقين أنه كذلك بالفعل.»

انحنيت إلى الأمام في مقعدي بدهشة وإثارة وأنا أسأل: «أحقًا ما تقوله؟.»

«أجل حقًا». أجاب بحزن قاتم وهو يجذب أنفاسًا عميقة من غليونه، مرسلًا سحابة داكنة من الدخان في الأرجاء، ثم أكمل: «في البداية بدا لي أنني لن أحقق أي تقدم من استفساراتي»

تلك على الإطلاق. الكراسي المتحركة ذات المحركات صناعة نادرة على ما يبدو، وينظر إليها معظم المصنّعين بعين الريبة أو الازدراء. ومع ذلك علمت من عامل شاب في أحد المصانع التي زرتها أن رجلاً يُدعى (رالف هاربتل) اخترع مثل هذا النموذج كما وُصف لنا. لذلك قمت بزيارة (هاربتل) لأرى ما يمكنني اكتشافه عن رفيق السير (كواتس) الغامض.

تقع ورشة (هاربتل) بفناء صغير في (تشيلسي)، إنه يشبه متجرًا مهمشًا وليس مكانًا يعج بالزبائن، ولكن عند دخولي للورشة لاحظت أشكالًا مختلفة من الأجهزة الميكانيكية والمحركات بمختلف أنواعها وما إلى ذلك، في كافة أرجاء المكان. (هاربتل) هو شخص ممتلئ الجسم، يمكن وصفه بسهولة استنادًا إلى إحدى رسومات الفنان (فيز) للسيد (بيكويك) من رواية (مذكرات بيكويك) للكاتب (تشارلز ديكنز)، حيث كان قصيرًا برأس كبير على شكل بيضة، أصلع في أعلى رأسه ولكنه محاط بكتلة من الشعر مصبوغ بلون القش البري، الذي يبدو أنه ينمو بشكل أفقي من جانبي رأسه ولا يميل للأسفل. كان يرتدي سترة خضراء مخملية ضخمة وبنطالًا أسود وأبيض، يحدق إلى العالم من خلال نظارة صغيرة ذات إطار ذهبي. انعكس أسلوبه الغريب في اختيار الملابس على أفعاله وأنماط حديثه مع العامة. كان يتحرك مثل لعبة ميكانيكية ويتحدث بسرعة بعبارات قصيرة مع فترات توقف طويلة بينها.

أخبرته عن سبب زيارتي لمتجره الصغير، وبدا سعيداً لأنني سمعت عن اختراعه، الذي أطلق عليه اسم (الكرسي ذاتي الدفع). سألته عن عدد الكراسي التي صنعها، فأتاني رده بأنه صنع ثلاثة فحسب، بما في ذلك النموذج الأولي الذي احتفظ به لعرضه على الزبائن.

«إذن لم يشترِ اختراعك سوى عميلين، أليس كذلك؟». سألته فأوماً بالإيجاب، ثم تابعت استجوابه: «وكيف سمع هذان العميلان عن منتجك؟».

قهقه وهو يجيب: «لدي سمعة تنتشر بسهولة بين المهتمين بالأجهزة غير العادية. يبحث الناس عني لمختلف أنواع الاختراعات. لقد حاولت إثارة اهتمام عدد من مصنعي الكراسي المتحركة بتصميمي، لكن يبدو أنهم جميعاً يجمدون فكرهم حول التصاميم التقليدية المتحجرة، دون أدنى اهتمام بالتطور». سألته: «هل لي أن أسأل عن اسمي الشخصين اللذين اشتريا الكرسي المتحرك الميكانيكي الخاص بك؟».

فابتسم (هاربوتل) بخدين ممثلين وقال: «يمكنك أن تسأل بالطبع. فنحن نحيا في مجتمع ليبرالي». شعرت بالمماثلة في إجابته فسألته عما إذا كان سيزودني بالاسمين أم لا.

سألني بدوره لماذا لدي فضول حول هذا الأمر، ففسرت طلبتي وأنا أقول: «من المهم للغاية تتبع مالك أحد تلك الكراسي

ال مميزة. لدي معلومات مهمة وفي غاية الحساسية عليّ أن أقدمها له بنفسى. أخشى أنني لا أستطيع أن أكشف لك عما هو أكثر من ذلك، دون أن أحنث بوعدي وعدته لرجل يحتضر».

يبدو أن (هاربوتل) قد اقتنع بحيلتي، حينما رأيت حاجبيه يرتفعان فوق حافة نظارته واتسعت عيناه بسرور مكبوت، قائلاً: «يا لها من حالة دراماتيكية، بل هي رومانسية جميلة. حسناً يا سيدي، العميلان اللذان اشتريا جهازى هما السيدة (إميليا فورسيث) ورجل نبيل أعرفه باسم السيد (مور) فقط دون علم بباقي اسمه».

فأجبت: «آها، الشخص الذي أحتاج إلى التواصل معه هو رجل وليس امرأة، وبالتالي فالسيد (مور) هو من أبحث عنه». سألته عن عنوان الرجل لكن (هاربوتل) هز رأسه علامة على النفي وهو يجيب: «أخشى أنني لا أعرف عنوانه. لقد كان رجلاً غامضاً للغاية، وكل تعاملاته كانت معى مباشرة، هنا فى ورشتى. كان يأتي ويذهب مثل الشبح يا سيدي، بل كان يظهر ويختفي فى الورشة دون سابق إنذار. كان حقاً رجلاً غريباً، لكنى لم أهتم، فقد دفع ثمناً جيداً مقابل الكرسي على أى حال».

سألت (هاربوتل) إذا كان بإمكانه وصف الرجل لى على الأقل. عبست ملامح (هاربوتل) فى دلالة على محاولته للتذكر وهو يجيب: «أستطيع ولكن ليس بشكل دقيق. ليس به العديد

من المواصفات المميزة التي تستحق التذكر. كان يرتدي نظارة داكنة وقبعة كبيرة تظلل وجهه على سبيل المثال. كان يتحدث بطريقة غريبة كما لو أنه يختنق. أتذكر أنه اعتذر عن طريقته في الكلام، مبررًا أنها كانت نتيجة لحادث مروع، نفس الحادث الذي كان مسؤولاً عن فقدانه للتحكم في ساقيه».

سألته: «كم كان عمره؟»

فأجابني (هاربوتل): «من الصعب الجزم بإجابة صريحة. كان وجهه - أو الجزء الذي كان مرئيًا على الأقل - شاحبًا وعجوزًا، مما يشي برجل في الستينيات من عمره، لكن أسلوبه في الحديث لم يكن نشيطًا فحسب، بل حيويًا أيضًا، وكان يركز في كل شيء من حوله. كان هناك شيء غريب للغاية حياله. فطوال الوقت الذي كان متواجدًا فيه في متجري كان رأسه يتحرك من جانب إلى آخر مثلما تعبث الرياح بالنبات وتحركها كيفما تشاء».

وبمجرد أن قال هذا يا (واطسون)، شعرت بقشعريرة باردة تضرب بعمودي الفقري. فعقبت: «مثل الزواحف؟».

أجاب (هاربوتل): «بالفعل يا سيدي. أجل، أجل. هذا التشبيه مناسب أكثر. أقرب للزواحف إلى حد كبير».

ثم قلد حركة عنق الرجل وأنا أحدق إليه مرعوبًا».

انحنى (هولمز) إلى الأمام في كرسيه، وملامحه متخبطة المشاعر وهو يسألني: «والآن ما الذي يعنيه هذا يا (واطسون)؟».

قلت: «يا إلهي، إنه (موريارتي)».

«أجل، هو (موريارتي)». كررها بصوت حاد مبحوح.

«لكن... هذا مستحيل».

هز صديقي رأسه وهو يجيب: «إنه ليس مستحيلًا، وعندما

نستبعد المستحيل...».

«هذا صعب التصديق».

«حسنًا، إنه كذلك بالتأكيد. ما زلت أواجه صعوبة في فهم

الموقف وقبوله بشكل تام، لكن كل الأدلة تشير إلى حقيقة أن

البروفيسور (جيمس موريارتي) على قيد الحياة، وأنه نجا بعد

سقوطه من شلالات (ريتشينباخ)».

«كيف يمكنه البقاء على قيد الحياة؟».

«إنه رجل مذهل لا يستهان به».

«لكن لا يوجد شخصٌ لا يموت، أو لا يمكن تدميره».

«ومن الواضح أنه من الممكن تدميره على عكس ما تظن.

قد يكون دماغه نشطًا كما كان دومًا، لكنه ليس في أفضل حالاته

الجسدية، فهو الآن مستسلم للحياة على كرسي متحرك. لا بد أنه

قد عانى من أذى جسدي كبير بسبب الصخور عند القاع، بعد

تلك السقطة الرهيبة».

«والآن قد عاد ليطاردنا».

ضحك (هولمز) ضحكة مكتومة مريرة وهو يجيب: «بل ما يفعله هذا أقرب للسخرية منا عن طريق أكثر الخطط دهاء وأهمية طوال حياته المهنية الإجرامية. كنت أعلم أن هناك عقلاً لامعاً وراء هذه العملية برمتها، لقد بات مخادعاً وماكرًا بقدر ما كان دومًا قاسيًا وعمليًا. لم يخطر ببالي مطلقًا أنه (موريارتي) من جديد.»

«لماذا عليك أن تفكر في هذا الأمر من الأساس؟ العالم كله يظنه ميتًا.»

«لكن كان يجب أن أنظر إلى ما هو أبعد من ظنون العالم. كانت العلامات واضحة على وجوده طوال الوقت، وأنا من كنت أعمى كحشرة. تحمل قضية الاختطاف هذه جميع السمات المميزة للطريقة التي يعمل بها (موريارتي)، حتى طريقة القضاء على أتباعه مثل السير (جاسبر كواتس) عندما لم يعد ذا منفعة له. قد يكون قعيدًا في كرسي متحرك، لكن (موريارتي) لا يزال قوة شيطانية لا يستهان بها.»

لبعض الدقائق جلسنا في حالة من الصمت المطبق. كنت مثل (هولمز) مندهشًا تمامًا من الأخبار التي تفيد بأن البروفيسور لا يزال على قيد الحياة، وينفذ خطته اللعينة مرة أخرى. كان (هولمز) قد أطلق عليه لقب نابليون الجريمة، وهو رجل بارع مثل (هولمز) في المسائل المتعلقة بالملاحظة الدقيقة في النشاط الإجرامي، إلا أن البروفيسور اختار السير في الطريق الفاسد غير القانوني.

سألته بعد صمت طال: «ماذا سنفعل الآن؟».

«سنعثر عليه وهذه المرة سننهى مسيرته الإجرامية تلك إلى الأبد. لن أتمكن من النوم ببساطة على سريرى طالما يتنفس هذا الشرير نفس الهواء مثلي. ذات مرة قلت إنه لو بيدي ضمان موت البروفيسور فسأضحى بحياتي عن طيب خاطر من أجل السعي لتحقيق هذا الهدف، ويسعدني أن أكرر هذا التعهد للمرة الثانية.»

«ليس من الضروري أن يكون مصير أحدكما كالآخر.»

«أنت على حق يا (واطسون) بالطبع، لذا دعنا نأمل أن يكون التخلص منه أسهل هذه المرة.»

«كيف يمكننا تعقبه ووضع حد لهذا التهديد الذي يستغله ضد الحكومة البريطانية والعائلة الملكية؟»

«يجب أن نجد عرينه أولاً.»

«وكيف هذا؟»

«هذه مشكلة تحتاج إلى ثلاث جولات من تدخين الغليون يا عزيزي (واطسون). من فضلك أعطني بعض الوقت للتدخين والتفكير. لدي بعض الظنون قد تأتي بحلول أكيدة، إذا تمكنت فحسب من دفع عقلي - الذي لا يزال مصاباً بالصدمة - إلى التفكير، ثم نعاود مناقشتنا عنها بعد ساعة، وبهذه الأثناء أكون بصحبة تبغ قوي.»

الفصل الثامن والعشرون

في نفس الوقت الذي كان فيه (شيرلوك هولمز) يستلقي على كرسيه المريح، وهو ينفث دخان تبغ فارسي من بين شفثيه ورأسه مغطى بسحب من الدخان الرمادي الداكن، كان (مايكروفت هولمز) جالسًا في مكتب رئيس الوزراء جنبًا إلى جنب مع وزير الداخلية، مستمعًا لآخر التطورات في قضية اختطاف طفل عائلة (تيمبل).

«يبدو أيها السيدان أن أعداءنا قد غيروا القواعد». قالها رئيس الوزراء بجدية تدل على أهمية الحديث، وهو يميل إلى الأمام على مكتبه، بينما كانت ملامحه منهكة ومرهقة.

«وأخشى أن أعترف أنهم هم المهيمنون على الأحداث لسوء الحظ، أو يمسون بزمام الأمور بعبارات أبسط. لقد اختصروا المهلة التي منحوها لنا، فقد أُبلغت بأنهم يريدون أموالهم بحلول منتصف هذه الليلة».

لم يقل الرجلان الآخران شيئًا، واكتفيا بتعبيراتها الكثيرة التي لو تحدثت لمئات مجلدات من السخط وقلة الحيلة.

ثم تابع رئيس الوزراء: «تلقيت مكالمة هاتفية ظهر هذا اليوم، تمدني بتعليمات صارمة بشأن ما يجب القيام به. علينا أن نأخذ مليون جنيه نقدًا في عربة تقليدية لا تحمل أي طابع خاص إلى موقع معين على طريق (فارنبورو). يجب أن يقود العربة رجل واحد فقط دون أي مرافقة أخرى. بعدها أوضح المتحدث أن الأموال ستنقل بعد ذلك إلى عدة وسائل نقل مختلفة، ستنتشر إلى موانئ متنوعة لمغادرة البلاد. وشدد على ألا يُبذل أي محاولة للقبض على وسائل النقل تلك وإلا فسيتم إبلاغ وكالات الأنباء في جميع أنحاء العالم بنسب الصبي وحقه في المطالبة بعرش إنجلترا». قال وزير الداخلية: «ليس لدينا ضمانات بأنهم لن ينفذوا تهديدهم هذا، حتى بعد أخذ المال».

أوماً رئيس الوزراء برأسه مجيباً: «أعرف هذا، وأخشى أننا أمام خيارين أحلاهما مر. لا يمكنني أن أتجاهل مطالبهم بضمير مرتاح، بينما في نفس الوقت أدرك جيداً أننا قد نكون مغفلين إن انصعنا لمطالبهم. قد يكون في نيتهم أخذ المال وفضح السر على أي حال. وعلى الرغم من كل هذا لا أرى بديلاً سوى المخاطرة. إلا إذا كان لديكما أي أفكار أفضل من فكرتي. قيل لي كذلك إنهم سيسلمون الطفل لنا، بعد أربع وعشرين ساعة من تسليمهم المال دون ضمانات، فكما ذكرت سابقاً، إنهم يمسكون بزمام الأمور».

قال وزير الداخلية: «سيتعين علينا الاتصال بالبنك وترتيب المبلغ».

أوما رئيس الوزراء برأسه قليلاً بانهزام ثم وجه نظره إلى (مايكروفت): «أفترض أنك لم تسمع أي جديد من أخيك؟».

«لا، أخشى أنه ما من مستجدات».

«هنالك أيضاً صمت عميق من سكوتلاند يارد وأجهزة استخباراتنا. لقد وضعونا أمام وجه المدفع بحق».

«سأتصل بـ(شيرلوك) بمجرد انتهاء هذا الاجتماع. أخشى أنه يميل إلى الاحتفاظ بالمعلومات الجديدة لنفسه حتى آخر لحظة. من الممكن أن يكون قد أحرز بعض التقدم في تحقيقاته دون أن...».

قاطعته وزير الداخلية: «أليس من الأفضل إعلامنا بأي تطور؟».

«هذه هي طريقته في العمل».

زمجر وزير الداخلية بغضب وهو يقول معترضاً: «ما هذا الهراء السخيف؟».

أجاب (مايكروفت) بهدوء: «لا أظنه كذلك ما دام سيحقق نجاحاً في قضيتنا».

«لا يبدو لي أنه يحقق أي نجاح في معضلتنا هذه».

قاطع رئيس الوزراء هذه المشاجرة الكلامية وهو يقول: «أيها السيدان، أيها السيدان، هذا ليس الوقت المناسب للخلاف بيننا أو لإلقاء اللوم على غيرنا. أنا واثق من أن (شيرلوك هولمز) والآخرين الذين يعملون على حل تلك القضية يبذلون قصارى جهدهم. لكن يبدو أنه لم يعد لدينا متسع من الوقت لانتظار إحرازهم أي تقدم. اسمع يا (مايكروفت)، أريدك أن تتولى مهمة تنظيم نقل المال. يجب أن تكون وسيلة النقل والسائق الخاص بها جديرين بالثقة، وجاهزين بحلول هذا المساء. ولا تنس أن تتصل بأخيك لعل وعسى يكون لديه ما يسر».

«بالطبع يا رئيس الوزراء».

«حسنًا، يجب أن أذهب إلى القصر لإبلاغ جلالة الملكة بالوضع الحالي وأنت يا وزير الداخلية...».

قال مقاطعًا بسخرية تشي بأنه قد عرف مهمته: «سأزور محافظ البنك وأطلععه على الأخبار السارة».

الفصل التاسع والعشرون

من مذكرات د. (واطسون)

كان المشهد من الخارج يطل على سجن (ريدنج جول). إنها بالفعل مؤسسة ذات طابع مقبض للقلب، لكنها مقبضة أكثر بكثير في الداخل. عند المرور عبر أبواب البلوط العظيمة للسجن يشعر المرء على الفور ببرودة المكان المربكة والصمت المخيف الكئيب الذي يتخلل أروقة المبنى بأكمله. على الرغم من اكتظاظه بالسجناء إلا أنه لم يُسمح لأي منهم بالتحدث إلا لفترة وجيزة خلال فترة التمرين، التي تكون مرة واحدة في اليوم. إنهم ليسوا مسجونين فحسب بل ومجبرين على الصمت كذلك. توجهت مع (هولمز) إلى مكتب مأمور السجن بصحبة حارس يرتدي زيًا موحدًا، كانت معاملته معنا فظة ومليئة بسوء السلوك كما لو أنه يظننا من باقي معتقلي السجن. دلفنا إلى غرفة مفروشة بشكل جيد مع حطب مشتعل في المدفأة. كانت تلك الحجرة هي المكان الدافئ الوحيد في المبنى بأكمله. نهض المأمور

(صموئيل ماكفرتي) من خلف مكتبه ليرحب بنا، وهو رجل ذكي وحسن المظهر في أواخر الأربعينيات من عمره.

قال وهو يصافح صديقي بحرارة: «مرحبًا بك يا سيد (هولمز) إنه لشرف كبير مقابلتك شخصيًا. بالطبع أنا مطلع على مجهوداتك الرائعة في مجال كشف الجريمة، وأنت د. (واطسون) بلا شك، رفيق المحقق الذي يكتب القضايا وينشرها».

أومأت برأسي، مؤكدًا بسخرية أنني بالفعل: «رفيق المحقق الذي يكتب القضايا وينشرها».

«تفضلًا بالجلوس وأخبراني بالغرض من زيارتكما».

فعلنا كما اقترح، ثم قلت: «من الجيد أنك سمحت لنا بمقابلتك في هذه الفترة القصيرة أيها المأمور، فمهمتنا وسبب زيارتنا لك لهما أهمية قصوى كما أوضحت في رسالتي».

أكد (هولمز) على كلامي وهو يقول: «إنها بالفعل مسألة تتعلق بالأمن القومي وأخشى أنني لا أستطيع الإفصاح عن أي تفاصيل».

قال (ماكفرتي) بنوع من المفاجأة من أسلوب الحديث الخطير: «يا إلهي! من نبرتكما يبدو الأمر مأساويًا للغاية، ولكن إذا لم تكونا قادرين على إخباري بسبب زيارتكما فكيف يمكنني مساعدتكما حقًا؟».

«أريد إجراء مقابلة مع أحد سجنائك».

«حسناً، ومن قد يكون هذا السجين؟».

«العقيد (سباستيان موران)».

جلس الأمور على كرسية بدهشة، وهو يرد: «حقاً! اعتقدت أنك انتهيت من هذا الرجل. ألم يحاول قتلك العام الماضي؟».

«لقد حاول ذلك بالفعل، وكان لي دور فعال في إلقاء القبض عليه، وأدليت بشهادتي في محاكمتي التي أدت لسجنه».

«فلماذا تريد التحدث إليه الآن بحق السماء؟»

«كما أوضحت يجب أن تظل هذه المسألة سرية. أعتقد أن (موران) لديه معارف أو معلومات قد تكون ذات أهمية قصوى بالنسبة لي في تحقيقي الحالي. يمكنني أن أضيف أن رغبتى هذه بدعم شخصي من رئيس الوزراء، وأنا صادق معك في هذا الأمر. إذن هل بإمكانك أن ترتب لي مقابلة مع (موران)؟».

حذق الأمور إلى (هولمز) لبضع لحظات وعلى وجهه قناع جامد جعل من الصعب معرفة ما يفكر فيه.

«بالطبع أنا أصدقك يا سيد (هولمز)، وأنا أتفهم أنك لن تكون هنا في مكنتي ما لم يكن الأمر ذا أهمية كبيرة. سأحاول مساعدتك، ولكن أولاً وقبل كل شيء يجب أن أحذرك من أنك قد تواجه صعوبة كبيرة في الحصول على أي دليل من (موران)».

«ها! ولم هذا؟».

« منذ أن أتى (موران) إلى هنا تدهورت حالته العقلية بسرعة. إنه تطور طبيعي مشترك بين أولئك الذين عاشوا حياة مميزة أو مرفهة قبل أن يُسجنوا. إن التناقض بين حياتهم القديمة المليئة بالراحة والحرية ونظام السجن القاسي أكبر من أن يتحملوه، فتشعر قدراتهم العقلية في الانهيار. إنه بمثابة نوع من الهروب من الواقع القائم لأي حياة غيرها حتى لو كان الجنون ذاته. هذا بالطبع على نقيض هؤلاء المجرمين الذين يقضون حياتهم على التنقل بين السجن وخارجه». ابتسم بسخرية وهو يتابع: «هذا المكان هو بمثابة منزل ثانٍ لهم. لكن بالنسبة لـ (موران) وأمثاله إنه نوع من الجحيم الذي لم يتوقعوه قط».

قال (هولمز) غير مبالي بتلك الخطبة العريضة: «أنا أفهم كل هذا، لكن عليّ أن أحاول».

انحنى الأمور إلى الأمام في مقعده ليضغط على زر مثبت فوق مكتبه، وفي غضون ثوانٍ دخل ذلك اللفظ الذي رافقنا إلى الغرفة.

«اسمع يا (بومونت)، ف لترتب نقل السجنين 142 إلى غرفة الزيارة الآمنة. هذان السيدان هنا لرؤيته».

أوماً (بومونت) بتحية عسكرية صارمة قبل أن يغادر.
«إن الغرفة الآمنة هي قاعدة في السجن يا سيد (هولمز)، أحد حراسنا يجب أن يكون حاضرًا عندما يستقبل السجناء

زوارًا. وهذا من أجل حمايتهم في حال أن أقدم السجين على أي حركة عنيفة».

«أفهم هذا».

«وعلى الرغم من هذا، ففي حالة (موران) لا أعتقد أنك في أي نوع من الخطر. أي حقد يَكُنْه لك في قلبه قد تبدد منذ فترة طويلة. ولكن على المرء أن يكون حذرًا أسلم من أن يصير نادمًا».

في غضون خمس دقائق، اصطحبنا (بومونت) مرة أخرى عبر سلسلة من الممرات المظلمة. فتذكرت حين أوضح لي (هولمز) في شارع بيكر أنه يعتقد أن البروفيسور (موريارتي) سيعود إلى مقره السري الذي كان يستخدمه منذ سنوات عديدة، قبل حادثة شلالات (ريتشيناخ)، حيث كان يسيطر على منظمته القوية السابقة، ثم أكمل موضحًا:

«لم يكتشف أحد مخبأه على الرغم من إفشال مخططات عصابته القديمة والقبض عليهم جميعًا، وبالطبع فقدت الشرطة اهتمامها بتحديد مكان وكره بعد موته - أو حينما اعتقدوا أنه ميت إن صح التعبير - ستكون قاعدة مثالية لعملياته الجديدة في مخطط الاختطاف الحالي».

العقيد (سباستيان موران)، حارس (موريارتي) الشخصي، هو الرجل الوحيد الذي من المحتمل أن يعرف موقع المخبأ. إذا

تمكنا من إخراج هذه المعلومات منه، فسنكون أقرب إلى إنهاء هذه القضية بنجاح وبشكلٍ قاطعٍ».

بالطبع قال (هولمز) هذه الكلمات قبل أن نعرف بشأن تدهور (موران) العقلي. هيمن الإحباط على كياني مرة أخرى عندما دخلنا الغرفة الآمنة. كانت حجرة صماء بلا نوافذ، ليس بها سوى كرسي واحد فقط، يشغله رجل يرتدي زي السجن الموحد، بالإضافة إلى غطاء من القماش يغلف وجهه بالكامل لإخفاء ملامحه. كان كل السجناء يرتدون مثله حتى لا يتمكنوا من رؤية وجوه النزلاء الآخرين. كان تدبيراً آخر للحد من إنسانيتهم. بدا لي هذا الإجراء إهانة قاسية وغير ضرورية للرجال الذين - على الرغم من جرائمهم التي قد تكون شنيعة للبعض - يعانون بالفعل من ظروف السجن القاسية.

أغلق (بومونت) الباب بعنف ثم أحكم قفله بالمفتاح، فتردد دوي الارتطام وصوت تكات المفتاح في كالون الباب بصخب في الغرفة، لكن السجناء لم يتحرك بل لم يتفاعل على الإطلاق مع الصوت.

وقفت أنا و(هولمز) أمام جسده المترaxي على الكرسي، ثم سألت صديقي: «هل يمكنه إزالة غطاء رأسه؟».

أوماً (بومونت) برأسه وهو يقول بصرامة: «السجين 142، انزع الغمامة».

بطء وبطريقة ميكانيكية متشنجة أطاع الرجل التعليمات. الوجه الذي ظهر لنا بالكاد يشبه الرجل الذي أتذكره من المحاكمة. لقد ولت أيام النظرات المتعجرفة والشرر المشتعل في هاتين العينين الزرقاوين الثابقتين اللتين كانتا مفعمتين بالتحدي. أما الآن فقد صارتا خاضعتين وباهتتين، كأنه تلميذ خجول يخشى أن تتلاقى عيناه مع أحد بسبب بطء حركة بؤبؤي عينيه. كان جسده بالكامل يوحي أنه في موقف خضوع وهزيمة. قال (هولمز) بهدوء: «أيها العقيد (موران)». لم يتلقَّ أي رد فعل، ولا حتى حركة بسيطة من جفنيّ عينيه.

قال (بومونت): «لم يتعامل معه أحد بهذه الطريقة أو يناديه بهذا الاسم منذ قدومه إلى هنا. أليس كذلك أيها السجين 142؟».

وفي هذه اللحظة فحسب استدار رأس الكولونيل ببطء صوب المتحدث. فأكمل (بومونت) بابتسامة متعجرفة: «أرأيت؟». أصر (هولمز) في عناد وهو يقول: «أيها العقيد (سباستيان موران)». واضعاً يده على كتف السجين ليجذب انتباهه أكثر. لكن وجه الرجل لم يبدِ أي اهتمام أو تعرف على هذا الاسم الذي يُنادى به.

«العقيد (سباستيان موران) بالجيش الهندي السابق،
ورئيس أركان البروفيسور (موريارتي)، البروفيسور (جيمس
موريارتي)».

ومضت عينا (موران) عند تكرار اسم (موريارتي) وبلل
شفتيه بلسانه.

«أنت تتذكر البروفيسور (موريارتي)، أليس كذلك يا
(موران)؟». انحنى (هولمز) لأسفل، فصارت عيناه في نفس
مستوى عينيّ السجين وهو يتابع: «وتتذكرني أنا أيضاً، (شيرلوك
هولمز). أنا (شيرلوك هولمز) الرجل الذي حاولت إطلاق النار
عليه من المنزل الفارغ. تتذكر هذا، أليس كذلك؟».

أظهر وجه (موران) ببطء بعض الحركة، ارتعشت العضلات
المحيطة بعينه قليلاً، وارتجفت شفتاه، ثم ببطء نطق الكلمات،
أو كررها إن صح التعبير:

«(شيرلوك هولمز)». قالها بصوت بالكاد يسمعه هو ذاته.
فقال (هولمز) بلهفة: «نعم هذا أنا، وأنت تتذكر البروفيسور
أيضاً، رئيسك».

كهمس حاد هربت كلمة «(موريارتي)» من فم (موران).
«أجل بالفعل، (موريارتي)، نحن نريد العثور عليه ونحتاج
لمساعدته. البروفيسور (موريارتي) في حاجة إلى مساعدتنا».

تجعد جبين (موران) ثم قال بصوت أكثر وضوحًا الآن بعض الشيء: «مساعدة؟».

«أجل، هذا صحيح، البروفيسور يحتاج إلى مساعدتنا».

هز (موران) رأسه في حيرة، فتابع (هولمز): «نحن بحاجة للوصول إليه، لتحذيره من الخطر».

فجأة، انفتحت عينا (موران) على اتساعهما وتيبس جسده بالكامل وهو يقول كما لو أنه تذكر شيئًا: «مات. البروفيسور قد مات». وصوته مليء بالحزن والرثاء.

«لا، لا، لم يمت، بل نجا. لم يغرق في شلالات (ريتشينباخ)، بل هرب، هو على قيد الحياة الآن».

استمع (موران) إلى كلمات (هولمز) وقد عقد حاجبيه من الدهشة وبعد لحظات من الصمت كما لو أنه يحاول استيعاب كلمات صديقي، تشبث بكم معطفه وهو يردد: «على قيد الحياة؟ البروفيسور...؟».

«أجل، إنه حي وعلينا الوصول إليه. إنه في خطر الآن ونحن بحاجة إلى تحذيره».

«حي...». فغرفاه وتجمع لعابه في زاوية فمه وهو يكررها بلا روح.

«أجل هذا صحيح». أكد (هولمز) على الأمر من جديد، وهو يوميء برأسه بقوة ويهز ذراعي (موران) برفق مكملًا: «يجب

أن نصل إليه لحمايته. تريد حماية رئيسك، أليس كذلك؟ حماية البروفيسور؟».

«هو حي؟ البروفيسور؟». قالها وعيناه تترقرقان بالدموع هذه المرة.

«هذا صحيح أيها العقيد (موران)».

«العقيد (موران)؟». ارتجفت ملامحه وهو يرفع حاجبيه بفرع كما لو أنه يتذكر شيئاً ثم تابع: «أجل، أنا العقيد (سباستيان موران)». قالها أخيراً واستعاد وجهه العجوز المعذب بعضاً من الحيوية فجأة، وارتسمت الابتسامة ببطء على ثغره.

كنت واثقاً أن (موران) شريكاً أسود القلب، تأمر لاغتيال صديقي (شيرلوك هولمز) ولم تكن تلك سوى واحدة من أفعاله الخبيثة على مدار حياته، لكن لم يسعني إلا الشعور بالأسف تجاهه الآن، هو ليس إلا أنقاضاً محطمة لرجل بالكاد يتذكر من كان في السابق.

كان (هولمز) يمحو بعض الضباب الذي أربك ذاكرة الرجل بتحفيظها بعض الشيء، لكنني أعتقد أن أي ذاكرة قد يتمكن (هولمز) من إعادتها للرجل ستكون ضعيفة وقصيرة. ولكن هذا أفضل من لا شيء على أي حال، فهو سيقضي بقية أيامه في هذا المكان الرهيب في زنزانة عديمة الملامح غير قادر على التواصل مع أي شخص حوله، فلا بأس أن يخرج من جهله هذا لساعة واحدة على الأقل.

«أيها العقيد (موران)، علينا نقل الأخبار إلى البروفيسور ونحتاج إلى مساعدتك، مساعدتك لإنقاذه من الأذى».

«مساعدة البروفيسور؟ بالطبع».

«أين يقع وكر البروفيسور؟ أين يختبئ؟».

هوى رأس (موران) على صدره مرة أخرى وأغلق عينيه في محاولة لاستجماع الذكريات برأسه، وهي عملية في غاية الصعوبة في حالته هذه.

«أين مكانه السري؟ أين في لندن؟». قاله (هولمز) حاثًا إياه على التذكر.

أطلق (موران) تأوّهًا غريبًا وهز رأسه مجيبًا: «لا أعرف. لا أستطيع... لا أستطيع التذكر».

صرخ (هولمز) فاقداً صبره: «يجب عليك أن تتذكر. فكر أين كنت تذهب لرؤية البروفيسور؟ أين التقيت به؟ تصور المكان بعقلك، تخيله».

أغلق (موران) عينيه في محاولة لإطاعة تعليمات (هولمز). كان ثلاثتنا واقفين ونحن نشاهد هذا المخلوق البائس، وهو ينطق بأنين متخبط غير مفهوم، يحاول يائسًا استرجاع مشاهد من ماضيه. بعد بضع دقائق، تراجع إلى الخلف على الكرسي، وعيناه تنفتحان ببطء، ثم حذق إلى العدم بهدوء!

قال (بومونت) موضحًا: «هذا لن يجدي نفعًا. لقد غاب عقل السجين بعيدًا، وهو الآن غير قادر على مساعدتك». بدا سعيدًا تقريبًا وهو ينطق تلك الكلمات.

تجاهله (هولمز) وربت برفق على كتف (موران) وهو يسأل: «حسنًا، لقد حاولت التذكر أليس كذلك؟».

ومضت عينا الرجل المتعبتان حين وجه له صديقي الحديث ثم قال بهدوء: «كنت مُطلًّا على النهر، بالقرب من الجسر الكبير».

سألت متعجبًا: «هل تقصد جسر البرج؟».

نطق (موران) وهو يحرك اثنين من أنامله: «أسدان، أسدان ذهبيان».

سأله (هولمز) بلطف: «أين هما؟ أين هذان الأسدان؟». «بالأعلى، الأسود بالأعلى، قبل أن تنزل للأسفل، للأسفل حيث البروفيسور».

سألته وأنا أنحني إلى الأمام كصديقي: «أين هذا بالضبط؟». «بجوار النهر، بالقرب من الجسر الكبير». كررها (موران) ثم ابتسم وأضاف: «تحت الأسدين الذهبيين تجد البروفيسور. أنا العقيد (سباستيان موران)». ضحك وأدار رأسه بعيدًا عنا.

«ما هو العنوان؟». سأله (هولمز) في عجلة، لكن لم يتلقَّ أي رد. كان الضوء الذي ومض بشكل غير مسبوق بعيني (موران) قد انقشع وعاد إلى طبيعته كآلة مذهولة.

عقد صديقي شفثيه ثم ألقى نظرة سريعة عليّ وهو يقول: «أعتقد أننا قد عصرنا البرتقالة حتى جفت».

«قلت لك إنك لن تخرج بشيء منه». قالها (بومونت) بسخرية وهو يضع غطاء (موران) على رأسه، لتختفي ملامحه مرة أخرى.

صرح (هولمز): «على العكس، لقد حصلنا على أكثر مما كنت أتمنى».

ضحك (بومونت) مجيبًا: «حسنًا، إذا كنت قادرًا على فهم أي معلومة مفيدة من ذلك الهراء اللعين الذي نطق به 142، فسأعترف أنك أفضل مني».

لم يرد (هولمز)، لكنه أومأ لـ (بومونت) بابتسامة قصيرة وهو يرفع حاجبيه.

«هل تعتقد حقًا أنه يمكنك الاستفادة من التتمات التي خرجت من فم (موران)؟». سأله بجدية بينما عربية الأجرة تتحرك مبتعدة عن سجن (ريدينغ غاول) باتجاه المحطة.

أجاب (هولمز): «يبدو أنك لا تؤمن ولو بقدر ضئيل من قدراتي مثل ذلك الحارس الوحشي. الأمر يشبه النظر إلى الحياة من خلال مرآة مشوهة، ستجد الموجودات غير واضحة وغير متناسقة الشكل، ولا شيء يبدو مناسبًا، ولكن إذا أملت رأسك أو رتبت أفكارك بطريقة معينة تصبح الأمور واضحة وقابلة للتمييز. لدينا موقع عام للمخبأ، أسفل النهر، بالقرب من جسر البرج وبعض المعالم المميزة بالمكان كأسدين ذهبيين. هذا ليس بالكثير، أنا أعترف بهذا، لكنه قد يقودنا لشيء ما مع بعض البحث والصبر».

قلت: «حسنًا، إذا كان بإمكان أي شخص أن يحقق شيئًا من تلك المعلومات المتقطعة فهو...».

قاطعني (هولمز) مازحًا: «أخجلتني يا (واطسون)».

T t.me/tea_sugar

الفصل الرابعون

قالت بشيء من الخوف: «أعتقد أنه مصاب بالحمى». «تعتقدين؟». قالها البروفيسور في حدة، مكملًا: «أنتِ كنتِ ممرضة على ما أظن، ألا يجب أن تعرفي ما به دون شك؟». «كنت مربية فحسب. لم أحصل على تدريب طبي، لكن من الواضح أنه يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة ويشعر ببعض الإرهاق».

حرك (موريارتي) كرسيه المتحرك بالقرب من السرير وتطلع إلى الصبي الصغير. كان وجهه المحمر يتلألأ بفعل قطرات العرق التي تتصبب عليه. لاحظ أن تنفس الطفل كان منتظمًا ولكنه ضعيف للغاية. لا شك أن حالته تلك ليست سوى رد فعل للإرهاق الذي تعرض له في الأيام القليلة الماضية. ليت هذا الشقي يتمكن من الصمود لفترة أطول فحسب، لكن يبدو أنه في حاجة ماسة إلى علاج طبي متخصص. هذا أمر معقد، فهو لا يستطيع أن يترك الصبي يلقي حتفه بتلك البساطة قبل أن يحصل على الفدية، لا يزال يحتاج إليه. على الرغم من تخطيط البروفيسور الدقيق لكل شيء تقريبًا، لكن الحالة الصحية للصبي

هي الشيء الوحيد تقريبًا الذي لا يستطيع السيطرة عليه وإخضاعه لأوامره. إنه صبي مزعج بحق.

«حاولي إيقاظ الصبي وأعطيه بعض المقويات ومن الممكن أن تعدي له حساء. قد يساعد هذا على تحسين حالته قليلاً حتى أرتب له لقاءً مع طبيب.»

دون كلمة أخرى استدار (موريارتي) بكرسيه المتحرك وتحرك صوب الباب مغادرًا الحجرة، ثم قطع ممرًا ضيقًا إلى غرفة كبيرة مفتوحة؛ مكتبه الخاص، قلب مقره تحت الأرض. كانت النيران مشتعلة بشكل متوهج في المدفأة ومصابيح الغاز تضيء الغرفة بضوء كهروماني لطيف. كان المفتش (دومينيك جاونت) جالسًا على أريكة بجانب المدفأة، وكأس من البراندي في إحدى يديه، ومذكرة في اليد الأخرى.

قال (موريارتي) بسخرية، وهو يشق طريقه نحو (جاونت):
«اعذرني على مقاطعة فترة استراحتك واسترخائك، ولكن لدي مأمورية من أجلك.»

جفل (جاونت) قليلاً حين سمع كلمة (مأمورية) تتردد بأذنه، كما لو أن (موريارتي) يتعمد أن يضعه بشكل غير مباشر في دور كلب حراسة صغير، بدلاً من شريك مهم في هذا المشروع. في الواقع بعد مقتل (جاسبر كواتس) أضحى (جاونت) هو الشريك

الوحيد الحي، ولهذا أحس أنه من المفترض أن يُنظر إليه باحترام أكبر.

أكمل (موريارتي): «لدينا مشكلة صغيرة؛ ضيفنا الصغير قد قرر أن يمرض في هذا المنعطف الحاسم للأحداث». «ما هو مرضه؟».

هز (موريارتي) كتفيه وقال: «هذا خارج نطاق خبرتي وبالتالي نحن بحاجة إلى خدمات طبيب لتشخيص المشكلة وعلاجها». «طبيب؟».

«أجل، ذلك الشخص المؤهل للتعامل مع الخدمات الطبية». قالها (موريارتي) ليس سخريّةً من (جاونت) فحسب بل استهزاءً بعقله بطيء الاستيعاب. فكلما كان هنالك أمر يهدد بإحباط خطة البروفيسور بأي شكل من الأشكال حتى لو كان أمرًا تافهًا يصير صبره مع البشر الآخرين من حوله ضئيلًا للغاية فينهال عليهم بالسخرية بكل قسوة دون مراعاة لآداب الحديث. «هل تفكر في طبيب معين؟».

«لا يوجد أحد على قيد الحياة قدم لي خدمات طبية من قبل. يجب أن نختار شخصًا جديدًا، وننتقي طبيبًا عشوائيًا. بالطبع لن أسمح له بالمغادرة بمجرد تواجده في هذا المبنى. سأترك الأمر لك بعدها. لكن تأكد فحسب من إحضار شخص لديه خبرة مع الأطفال وتعال به إلى هنا في غضون ساعة. وتأكد من اختفائك عن الأنظار وعدم وجود أحد يتتبعك».

ابتسم (جاونت) حين جالت فكرة ما برأسه، سرعان ما جهر بها: «سيكون من المفارقات المدهشة أن تلجأ إلى الدكتور (واطسون) لمعاونتك في علاج الطفل».

لم يرد (موريارتي) الابتسامة وهو يرد باقتضاب: «نحّ هذه الفكرة من عقلك على الفور يا سيد (جاونت). المسألة حساسة وشائكة بما يكفي في وقتنا الراهن، ولا تتحمل أي محاولة لتعقيدها من خلال إشراك (واطسون) بالأمر».

هز (جاونت) كتفيه وهو يرد: «كانت مجرد فكرة فحسب».

«بل هي فكرة سيئة كذلك. إحضار (واطسون) إلى هنا سيجعل (شيرلوك هولمز) أقرب إلى أعناقنا حتمًا. لا تقلل من شأن ذلك الرجل يا سيد (جاونت)، فد(هولمز) عبقرى ومن الأفضل إبقاء مسافة كبيرة بيننا. أنا من بين كل البشر أعرف جيدًا أن...».

هوى بقبضته على مسند كرسيه المتحرك في انزعاج وهو يكمل: «أن (هولمز) يحوم بالفعل على عتبة دارنا، ولا أريد أن أقدم له المزيد من الأدلة حتى يقتحمه، من خلال القبض على (واطسون) مرة أخرى. تذكر الفوضى التي حدثت في المرة السابقة».

اختفت ابتسامة (جاونت) وهو يرد: «أنفهم وجهة نظرك».

«حسنًا، ليس لدينا وقت لنضيعه. أنت تعرف ما عليك القيام به».

«أجل أيها البروفيسور». قالها (جاونت) بعد أن أدرك أنه يُطرد من المكان، فأنهى شرابه في جرعة واحدة وغادر الغرفة. ابتسم (موريارتي) لنفسه. كان معجبًا بـ(جاونت)، لكن الشاب لم يكن على دراية كاملة بأساليب البروفيسور في التفكير ولم يعلم بعد دوره الحقيقي الذي سيلعبه في مكيدة (موريارتي). يبالغ (جاونت) في تقديره لشخصه وأهميته، لكنه سيتعلم. أجل، سيتعلم عدم التعظيم من شأن نفسه لأن هذا لن يجلب له سوى سوء الحظ والشؤم على رأسه.

كانت الابتسامة لا تزال مرتسمة على ملامحه العجوز، ثم انتقل (موريارتي) إلى مكتبه وصب لنفسه كأسًا من البراندي. شربه ببطء، مما سمح للسائل بالتدحرج برفق على لسانه قبل أن يحرق مؤخرة حلقة. هكذا يحب الحياة، متعة دافئة ممزوجة بقليل من الألم.

قالت السيدة (هودسون) وهي تقف في ردهة عقار 221ب بشارع بيكر محدقة إلى جسد (مايكروفت هولمز) الضخم: «أخشى أن أخاك ليس بالمنزل. لقد غادر منذ بعض الوقت مع الدكتور (واطسون)».

سألها بهدوء: «وأعتقد أنه لم يعطيك أي تلميح إلى أين يتجه أو متى سيعود، أليس كذلك؟».

هزت السيدة (هودسون) رأسها وابتسمت مجيبة: «رباه، لا، لم يفعل ذلك مطلقاً من قبل. ولمَ قد يفعل هذا على أي حال؟ لقد اعتدت على طريقته تلك على مر السنين. لكنك بالطبع تعرف ذلك، فأنت شقيقه».

«أها، نعم، أنا على دراية بهذا. إنني أدرك تمامًا مدى عدم القدرة على التنبؤ بتحركاته وصعوبة التواصل معه. شكرا يا سيدتي. إذا عاد - بمعجزة ما - هل يمكنك أن تطلبي منه الاتصال بي بشكل عاجل؟».

«بالطبع».

حيا (مايكروفت) السيدة الموقرة بانحناءة من رأسه قبل أن يغادر. عندما صعد إلى عربته التي كانت تنتظره دعا الله أن يكون (شيرلوك) يعمل في هذه الأثناء على القضية ويحرز تقدماً فيها. كان يعلم جيداً في صميم قلبه أنه على الرغم من كل الإمكانات والتساهيل المتاحة لمنصبه المرموق إلا أن شقيقه هو الأمل الوحيد في منع حدوث كارثة وطنية.

«لقد أنهى الدكتور (موراي) الجراحة لهذا اليوم. هل تريدني أن أحجز لك موعدًا ليوم غد؟». قالتها السيدة التي تلف شعرها على هيئة كعكة صغيرة، وترتدي نظارة ذات إطار فضي، بنبرة رتيبة بلا روح.

ابتسم (جاونت) ابتسامة مقتضبة وهو يجيب: «لا، أنا بحاجة لرؤيته الآن. هذه حالة طارئة». سار متخطيًا مكتبها وفتح باب غرفة موضوع عليه كلمة (الجراحة) قبل أن يدلف إليها.

كان الدكتور (جراهام موراي) يكتب بعض الملاحظات عن المرضى الذين رآهم في ذلك اليوم عندما اقتحم هذا الشخص الغريب خلوته وأغلق الباب وراءه.

تمتم (موراي) وهو ينهض فزعًا من كرسيه: «ما هذا بحق الشيطان؟».

أجاب الرجل: «أريدك أن تأتي معي الآن لرعاية طفل مريض».

«من أنت؟».

«هذا ليس مهمًا. يجب أن تأتي معي».

«أخشى أن الجراحة مغلقة اليوم. أنا لست متفرغًا ك...».

بزمجرة غاضبة تقدم (جاونت) إلى الأمام ودفع (موراي) ليهوي على كرسيه وهو يصيح: «ستفعل ما أقول».

اتسعت عينا الطبيب بدهشة قبل أن يكتسي وجهه بالغضب بدوره وهو يقول: «هل يجب عليَّ حقًا تنفيذها؟ لا أعتقد هذا. إذا لم تغادر غرفة الجراحة الآن فسوف أتصل بالشرطة». أخرج (جاونت) مسدسًا من جيبه مقاطعًا: «لن يكون هذا تصرفًا حكيمًا».

عند رؤية السلاح الناري شحب وجه الدكتور (موراي) في خوف وهو يقول: «هل أنت مجنون؟».

«اجمع أغراضك التي تحتاجها. سنغادر الآن. هناك طفل مريض يحتاج إلى رعايتك. أنت طبيب، أليس كذلك؟ أليس من واجبك خدمة المرضى؟».

أجابه (موراي) وبصره معلق على المسدس، آخذًا حذره من أي حركة مفاجئة: «أنا أفعل ذلك بالفعل، ولكن ليس تحت الإكراه».

«ليس هنالك إكراه، ما دمت تفعل ما أمرت به. كل ما أطلبه منك هو أن تأتي معي وترحم طفلًا من معاناته. نحن لا نطلب الكثير، أليس كذلك؟».

الفصل الواحد والثلاثون

من مذكرات د. (واطسون)

كان المساء يقترب بسرعة عندما وصلنا إلى الجانب الشمالي من النهر. بدا (هولمز) واثقاً من أن ضالتنا كانت على هذا الامتداد المحدد للنهر بجوار جسر البرج. كنا قد سافرنا من (ريدينغ) بالقطار وفي محطة (بادينغتون) استأجرنا سيارة أجرة لتقلنا إلى تلك المنطقة القريبة من الجسر.

قلت بعدما خرجنا من كابينة العربة: «سيكون الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش».

«هذا صحيح يا (واطسون) ولكن لتحقيق الإنجازات يجب عليك بذل بعض الجهد أولاً».

أجبهته بتردد: «في بعض القضايا كقضيتنا هذه لا يهتمون بالتعب الذي بذلناه لتحقيق هذا الإنجاز، بقدر ما ينظرون إلى نتائجه».

«حسناً، إننا غارقان في كومة قش كبيرة إلى حد ما، عليّ أن أعترف بهذا». أشار إلى رأسه بإصبعه الأيسر وهو يكمل: «أنت تدرك جيداً أنني أحفظ السمات الجغرافية وأسماء الشوارع في لندن عن ظهر قلب. لا يمكن لأي محقق مهما بلغت جدارته أن يعمل بكفاءة في هذه المدينة دون أن يكون لديه معرفة دقيقة بمبانيها وشوارعها وطرقها الفرعية».

كنت أعلم أن كلمات (هولمز) صحيحة. حيث كثيراً من الأوقات التي سافرت فيه أنا و(هولمز) في عربة أجرة كان ينسجم كثيراً مع التخطيط العمراني للمدينة، لدرجة أنه قادرٌ على إخباري بأي شارع بعينه كنا نقطعه في تلك الثانية دون النظر من النافذة حتى.

«لقد علمت أن هناك مساحات شاسعة من المستودعات المهجورة بالقرب من طريق (سانت كاثرين)، على بعد مسافة قصيرة من الجسر باتجاه شارع (وابنج). إنها نوع من المخازن التي لا يعلم أحد عنها شيئاً، والتي قد يصنع فيها جرد عملاق عشه. أعتقد أنه مكان مناسب لبدأ منه بحثنا حتى يجد جديد».

أومأت برأسي بدون تعليق. كنت لا أزال أتخيل تلك الإبرة الباهتة التي استقرت في كومة قش لا يمكن اختراقها، ونحن ملزمان بالتنقيب عنها.

شقنا طريقنا إلى النهر، ثم إلى البوابة الحديدية حيث يستقر جسر البرج. إنه مبنى رائع بحق، نصب تذكاري للمهندسة البريطانية والتخطيط الإنشائي. كنت هنا قبل عام ضمن الحشد المهيّب لمشاهدة أمير (ويلز) وهو يفتحه رسمياً. لا يزال حجمه الضخم مشيراً للإعجاب، يلوح في الأفق فوقنا في الظلام في مواجهة سماء الشفق.

قلت بعد أن توقفت عن التحديق إلى هيكل الجسر: «إنه رائع، أليس كذلك يا (هولمز)؟». أجاب بنفاذ صبر: «أجل، أجل، لكن ليس لدينا وقت لأخذ جولة سياحية بالمكان. هيا بنا».

تحركنا بمحاذاة الجسر لفترة، ثم انعطفنا يساراً في شارع جانبي إلى المنطقة النائية التي تقع شمال النهر. عاد إلى ذهني تصوري حول الإبرة في كومة القش مرة ثالثة، لكنها سرعان ما تبددت حين حظينا بضربة حظ رائعة. في الطرف البعيد من أحد الشوارع لاحظنا وجود عربة أجرة من طراز (هانصوم) وخرج منها رجلان. في هذه الأثناء سحبنى (هولمز) إلى أحد مداخل العمارات بجوارنا.

صاح بحماس: «كم هذا رائعاً! انظر من لدينا هنا». أقيت نظرة على الشخصيتين، وسرعان ما شعرت بالإثارة نفسها التي أظهرها رفيقي. على الرغم من الظلمة المخيمة على

الطريق تمكنت من التعرف على أحد الرجلين، لم يكن سوى صديقنا القديم المفتش (دومينيك جاونت). أما الرجل الآخر لم أكن أعرفه، لكنه كان يحمل حقيبة طبية مميزة.

تبادلنا أنا و(هولمز) النظر بفرحة. يبدو أن الحظ بدأ يبتسم لنا أخيرًا.

صرف (جاونت) عربة الأجرة ثم قبض على ذراع رفيقه بقوة. راح الرجلان يبتعدان عنا باتجاه زاوية الشارع. فصاح (هولمز) قائلاً: «أسرع، يجب ألا نفقد أثرهما». وانطلق إلى حيث اختفيا.

رحنا نركض في الشارع وراءهما ثم توقفنا عند الزاوية بينما كان (هولمز) يتلفت حوله بحذر. اكتسى وجهه باليأس وهو يقول: «لقد اختفيا».

اقتحمنا الطريق الخالي بفرع بحثًا عنهما، لم يكونا في أي مكان يمكن رؤيتهما فيه. كان الشارع خاليًا باستثناء شحاذ ضريبر وكلبه يشق طريقه في سلام. كان الأمر كما لو أن الرجلين تبخرا في الهواء.

ضحك (هولمز) ضحكة مكتومة صغيرة، وهو يقول: «حسنًا، لا يمكنهما الابتعاد كثيرًا، أليس كذلك؟ بالتأكيد يمكننا إيجادهما مرة أخرى».

لم أكن مقتنعًا بكلام رفيقي وأنا أحقق إلى صفوف المباني الصامته والمستودعات المهجورة وكل واجهة فارغة متداعية من حولنا لا تقدم أي أدلة على ما بداخلها. قد يستغرق منا البحث في هذه العقارات المتنوعة ساعات أو ربما أيام.

بدأ (هولمز) السير في الشارع مفتشًا بدقة كل مبنى لكل جزء من الرصيف الموجود أسفل أقدامنا. رحلت أتبع حركته لكنه سرعان ما توقف فجأة وتيبس جسده بالكامل، ومرة أخرى ضحك ضحكة مكتومة غريبة وهو يقول: «انظر يا (واطسون)، كم هذا رائع!». رفع عصاه مشيرًا بها صوب مدخل قريب. فوق الباب المتهالك المغطى بالسخام لأحد المباني، كانت هنالك تماثيل منحوتة على هيئة أسدين، تحتها تستقر لافتة صغيرة منقوش عليها بخط باهت: «(ليونين تشامبرز)».

«تذكر ما قاله (موران) أثناء هذيانه عن الأسدين الذهبيين. إنها مصادفة سعيدة أكثر من اللازم. لا شك أن هذا هو المدخل إلى عرين (موريارتي)».

أومأت برأسي بحماس موافقًا على كلامه. لم أشك في أن صديقي سينجح في مهمتنا.

دون تردد، اقترب (هولمز) من الباب وحاول فتحه من مقبضه. اتضح إنه كان مقفلًا، فقال: «هذا القفل لا يعتبر عائقًا يستحق الذكر». قبل أن يخرج فتاحة الأقفال الصغير من جيب

معطفه الداخلي. نظرت إلى أعلى وحولي في كل أرجاء الشارع وأنا أتفحصه. بينما كان (هولمز) يشرع في معالجة القفل. لم يكن هناك أحد في الأرجاء، وكان الليل بالفعل يوفر عباءة معتمة كافية لإخفاء أنشطتنا.

في غضون بضع دقائق، نجح (هولمز) في مهمته. أدار المقبض وفتح الباب الذي استجاب له بكل سلاسة. التفت إليّ وهو يقول: «هذا هو المكان الذي سنفترق فيه يا (واطسون)». «ماذا!». صحت متحيراً تماماً من هذا القول غير المتوقع. «يجب أن أتعامل مع (موريارتي) بمفردي».

«لكنه ليس بمفرده. برفقته (جاونت) والرجل الآخر الذي رأيناه، معه وربما أكثر».

«كل هذا لا يعنيني. هذا هو التحدي الذي سأواجهه بنفسى وليس تحديك. لديك واجبات أخرى ضرورية لنجاح مهمتنا». «حقاً؟». قلتها بسخط إلى حد ما.

«من الواضح أن هذا مخبأ (موريارتي)، وربما هو المكان الذي يحتفظ فيه بالصبي. يجب أن تصل هذه المعلومات إلى كل من (مايكروفت) وسكوتلاند يارد. الأمر متروك لك لإبلاغهما بهذا، بينما أواجه أنا أسدنا الخبيث في عرينه».

قلت: «لماذا لا يذهب كلانا لنبلغ عن الأمر في سكوتلاند يارد؟ لقد حددت مخبأ (موريارتي)، سيكون من الأكثر أماناً اقتحام المكان بعون مجموعة من رجال الشرطة المسلحين».

«أكثر أماناً لمن؟ بالتأكيد ليس الصبي. يجب التعامل مع هذا الموقف بدقة. لقد حان وقت المعركة وجهًا لوجه، أنا و(موربارتي) مرة أخرى. يجب أن أنهي هذا الأمر».

كنت أعلم في صميم فؤادي أن صديقي على حق، لكنني شعرت بخيبة أمل شديدة لأنني طردت وأرسلت إلى مهمة ثانوية، بدلاً من أن أتواجد في ذروة صراع القضية. كنت مترددًا في السماح لـ(شيرلوك هولمز) بدخول ذلك المستودع القديم المتداعي بمفرده، وأعلم أنه سيتجاهل أي حجة تخطر ببالي. استطعت أن أرى الإصرار البارد القاسي في عيني رفيقي الفولاذيتين الرماديتين، مما معني من إبداء أي اعتراض على رغباته. قلت بهدوء: «حسنًا كما تريد».

«أحسن» فتح الباب مرة أخرى وكاد أن يدخل، لكنني استوقفته وأنا أضع يدي على كتفه وأقول: «بحق السماء، خذ حذرك».

أجاب: «بالطبع سأفعل». ثم اقتحم الظلام قبل أن يصدر صرير غريب إثر إغلاق الباب من خلفه.

لم أضيع الوقت وتوجهت إلى الطريق الرئيسي بخطى سريعة. كنت أعلم أن الوقت جوهريًا في هذا الموقف. لم أكن سعيدًا بفكرة أن (هولمز) وحده في عرين (موربارتي) لذا كلما أسرعت في الإتيان بالمساعدة كان ذلك أفضل.

كان الظلام أشد وطأة في هذه اللحظة والشارع مضاء بمصابيح الغاز فقط. عندما مررت بإحدى الحارات ظهر شخص ما من بين الظلال. راح قلبي يقرع بعنف كالطبول، لكنني لم أخفف من وتيرة سرعتي. جاء هذا الشخص أمامي وهو يسد طريقي، وجدت أنه المتسول الأعمى الذي رأيته سابقًا. مد يده كما لو أنه يقدم كوب التسول الخاص به منتظرًا مني الإحسان، لكن الكوب لم يكن بين أنامله هذه المرة، بل كان يحمل مسدسًا.

قال بصوت خشن لكنه يحمل ثقافة راقية: «توقف حيث أنت يا دكتور (واطسون). افعَل بالضبط ما أطلبه منك وإلا سأضطر لقتلك. هذه هي الأوامر التي لدي، وصدقني أنا دائمًا أطيع أوامري».

الفصل الثاني والاربعون

عندما أُغلق الباب الكبير خلف (شيرلوك هولمز) بطريقة تقشعر لها الأبدان غرق في الظلام القريب من حافة الباب. كان هنالك وميض خافت من الضوء في الطرف البعيد من الممر، لكنه لم يوفر سوى القليل من الإضاءة كي يبصر كف يده على الأكثر. رائحة الرطوبة والتعفن النفاذة هاجمت أنفه، بلغ مسامعه صوت مشاجرات الفئران المختلصة للطعام وهي تندفع ببساطة في هذا الظلام الذي اعتادوا عليه. لعن غبائه لعدم إحضاره مصباح زيتي ليساعده على التعامل مع تلك الظلمة، واستسلم على أمل أن تعاد عيناه على الظلام سريعاً ليدرك الموجودات من حوله. تدريجياً خفت عتمة الظلال واستطاع تكوين صورة مبدئية عن محيطه. ببطء، مستخدماً عصاه لتقوده كما يفعل الأعمى للتأكد من عدم وجود أي معوقات أمامه، دنا من الضوء في الطرف البعيد من الرواق، ينقر بطرف عصاه السفلي برفق على الأرض لتجنب أي عقبة في طريقه. كان هنالك العديد من سلال الخوص الفارغة، وهي تمثل أنقاض الأيام التي كان فيها هذا المستودع تجاريًا. عندما دفع إحدى هذه السلال جانبًا بعصاه

وثب مخلوق على يده. شهق بحدة من المفاجأة، لكنه حرص على عدم إصدار أي صوت آخر. لا بد أنه فأر أو أي قارض بائس غيره، لا يعتبر مشكلة حقيقية.

عندما دنا من وهج الضوء الخافت أدرك أنه مصباح زيت منفرد معلق فوق باب آخر. يبدو أن هذا المصباح حديث نسبيًا، وكان من الواضح أنه قد أضيف في الآونة الأخيرة لأنه لا يتماشى مع قدم وتغير المكان من حوله. راح (هولمز) يدقق كذلك في الجدار ذاته الذي يحد الباب من جميع الأطراف، من الواضح أن سيدها الجديد قد أجرى بعض التعديلات البسيطة التي لا تتناسب مع طبيعة الحي الفقيرة.

دس عصاه تحت إبطه ثم سحب مسدسه قبل أن يسحب مقبض الباب. هذه المرة تمكن من فتح الباب بسهولة دون الحاجة إلى معالجة القفل، فوجد نفسه في غرفة صغيرة مضاءة. عثر في الداخل على قفص معدني غريب الهيئة، فاستنتج (هولمز) أنه مصعد ميكانيكي. لا بد أنه الوسيلة التي ينقل من خلالها الزوار إلى قلب هذه المنشأة، التي تمثل وكر البروفيسور ذاته. قال لنفسه إن هذه ليست مجرد إضافة معقدة ليتباهى الرجل بثرائه أو لعشقه للإلكترونيات الحديثة، بل هي غاية ضرورية، فبالأكيد لن يتمكن (موريارتي) - الذي يجلس على كرسي متحرك -

من استخدام السلالم، لهذا هو في حاجة ماسة لما يسهل عليه الانتقال للعالم الخارجي.

بيطاء فتح (هولمز) البوابة المعدنية ونظر إلى أسفل الهاوية المطلة عليها، لاحظ أن أرضية المصعد مستقرة في الطابق السفلي. من الواضح أن المفتش (جاونت) ورفيقه قد استخدماه منذ دقائق. تطلع (هولمز) إلى الأضواء المتلألئة في الأسفل حيث يستقر المصعد وأدرك أن انخفاضه عن المستوى الذي يقف عليه كان ما يقارب عشرين قدمًا.

أعاد مسدسه إلى جيب بنطاله مرة أخرى وتخلص من عصاه جانبًا، ثم انحنى بجذعه إلى هاوية المصعد، ثم قبض على السلك السميك الذي يحرك أرضية المصعد. كان السلك باردًا ومغطى بالزيت. ظل على هذا الوضع ثانية يأمل فيها أن تكون قبضته قوية بما يكفي. ثم سمح لجسده بالتأرجح للخارج بعيدًا عن الطابق الذي يقف فيه، وسرعان ما تشبث بساقيه حول السلك. سمح له كل من وزنه وطلاء السلك بالزيت بالانزلاق ببطء وبهدوء للأسفل. في غضون أقل من دقيقة، هبط (هولمز) برفق على سطح المصعد. استقر على أرض صلبة أخيرًا فانتظر بضع ثوانٍ ليلتقط أنفاسه قبل أن يتخلص من معطفه الذي تلطخ بالزيت والشحم. على الضوء الخافت أطلق العنان لأنامله لاستكشاف الجزء العلوي من المصعد حتى عثر على ما كان يبحث عنه، النافذة

الدمجة في الجزء العلوي من هيكل المصعد، الذي يسمح للمهندسين بالوصول إلى أعمال الصيانة أعلاه، ولكن يبدو أنه سيكون له استخدام مختلف اليوم.

رفع القطعة المعدنية المستطيلة وأزاحها إلى أحد الجوانب، كانت الفتحة التي خلفتها النافذة المعدنية كبيرة بما يكفي ليمر منها (هولمز) جسده. وبالفعل هبط بهدوء إلى قلب المصعد، وسرعان ما تلفت حوله ليدرك محيطه. وراء بوابة المصعد المعدنية لاحظ دهليزاً مضاًءً بوميض ساطع بنهايته باب يؤدي - دون أدنى شك - إلى الجزء الرئيسي من هذا الوكر السري.

هنالك أوقات في حياة (شيرلوك هولمز) المهنية يعلم فيها أنه يتعين عليه الاستغناء عن الحذر من أجل المضي قدماً في القضية، معترفاً أن المخاطر في النهاية جزء لا يتجزأ من مغامراته، وإذا لم يكن مستعداً لتقبل تلك المخاطر والمجازفة فإنه لن يظفر بالنجاح حتماً. لكنه بالطبع كان مدركاً كذلك لحقيقة أنه عند المخاطرة يعرض المرء ذاته لخطر كبير ويخاطر بفشل كل شيء. إنه هنا الآن في قلب عرين عدوه اللدود القديم، مخلوق كان يعتقد منذ فترة طويلة أنه لقي حتفه، لكنه نهض من رماد قبره المزعوم ليهدد أمن البلاد. كان عليه أن يقوي رباطة جأشه ويدلف إلى ما وراء هذا الباب.

أمسك بمسدسه بقوة، ورفع الإبرة الخلفية عن عجلة الرصاصات استعدادًا لإطلاق النيران في أي ثانية.

كانت الغرفة التي وجد (شيرلوك هولمز) نفسه فيها مضاءة بشدة وغنية بالأثاث، لدرجة أنه اعتقد أنها تحاكي غرفة المعيشة المجهزة جيدًا في قصر لندن. كانت الجدران مغطاة بألواح خشبية ومزينة برسومات ولوحات. كان هناك ثريا معلقة بشكل غير ملائم مع القوائم الخشبية، والعديد من الكراسي والأرائك المريحة ومكتب كبير مزخرف. هنالك نيران مشتعلة في مدفأة حجرية كبيرة في أحد أطراف الغرفة.

للهولة الأولى بدت الغرفة فارغة، ولجزء من الثانية أرخى (هولمز) دفاعاته، ولكن بعد ذلك امتلأ الهواء من حوله بضوضاء طنين غريبة، وكما لو أن هنالك شيئاً ما يتجسد من أحد الظلال المعتمة في زاوية الغرفة التي لا تصلها الضوء. ظهر البروفيسور (موريارتي) واضحًا للأعين، يندفع إلى الأمام بواسطة كرسيه المتحرك الآلي، إلى مسافة ستة أقدام من (شيرلوك هولمز).

قال بصوت غريب: «ها نحن ذا، نلتقي مرة أخرى يا سيد (هولمز)».

«الغريب أن هذا اللقاء لم يكن مفاجأة لأي منا».
«ربما لا، على الرغم من أنني افترضت حتى وقت قريب أن المرة الوحيدة التي كان من المحتمل أن يتقاطع طريقانا فيها

ستكون في الآخرة. ولكن قبل أن يحين هذا الأوان قرر كلانا أن نعجل باللقاء». ضحك (موريارتي) متابعًا: «مفهوم ممتع». قال (هولمز) وهو يقترب خطوة من البروفيسور، رافعًا مسدسه ليصوبه نحو قلبه: «لقد جئت من أجل الطفل».

ضحك (موريارتي) مرة أخرى وهو يقول: «ماذا حدث للبطل المندفع المليء بالميلودراماتيكية يا (هولمز)؟». ثم سحب البروفيسور الشال الملقى على ركبتيه ببطء ليكشف عن بندقية (شوت جان). وجهها صوب (هولمز): «هذا السلاح له قوة هائلة، وإذا قمت بسحب الزناد، فإن الصدمة ستدفعك بلا شك إلى الحائط، مما سيرتك فجوة كبيرة في الحجاب الحاجز بصدرك، بينما سيكون لمسدسك الصغير تأثير ضئيل على رجل يرتدي درعًا مضادًا للرصاص على أي حال. وهو تصميم خاص للغاية من ابتكاري على أساس مبدأ (زيغلين) في تصنيع السترات المضادة للرصاص. حقًا يجب أن يكون لديك واحد مثله، خاصة في مجال عملك. أنت لن تعرف أبدًا متى قد يصوب أحدهم رصاصة نحوك إلا بعد فوات الأوان، أليس كذلك؟». تلاشت الابتسامة عن وجه (موريارتي) وهو يرفع البندقية بجدية. «درع الصدر المضاد للرصاص لا يحمي جميع المناطق المعرضة للخطر». قالها (هولمز) بحذر، دون أن تتراجع يدها عن التصويب نحو خصمه.

«حقًا، فلنكن متحضرين بشأن هذا يا (هولمز). أنت تعلم كما أنا أعلم، أنك لن تخرج من هنا حيًا. لا تتفاجأ إن أخبرتك أنني توقعت تمامًا أنك ستهبط إلى وكري بتلك الطريقة، طافيًا على مياة البحر مثل قطعة مهملة من الخشب، يكون دومًا مصيرها الاستقرار على الشاطئ. توقعت هذا بسبب فضولك المعتاد وتألقك الملحوظ. وعلى هذا المنوال كنت مستعدًا لمثل هذا الاحتمال وسمحت لك أن تشق طريقك إلى هنا دون عوائق. أرجوك لا تقل إنك اعتقدت للحظة أن هذا المكان لا يخضع للحراسة على مدار الأربع وعشرين ساعة من قبل موظفين موثوق بهم. في ظل ظروف أخرى كان من السهل إقصاؤك بمجرد دخولك المبنى، لكنني كنت... كيف أقول هذا... أتحرق شوقًا للقائك مرة أخرى، وللمرة الأخيرة. لا تعلم كيف تهيمن على أفكاري بشكل دائم، ولم لا؟ فأنت الرجل الذي سرق مني صحتي وقدرتي على المشي قبل كل شيء».

«لكنك الشخص الذي كان يطاردني حينها إذا كنت تتذكر يا بروفيسور. لقد تعقبتي طوال الطريق عبر أوروبا إلى شلالات (ريتشيناخ)، وكان للقدر قراره في أن أعيش أنا بينما أنت...».

«القدر شيء غير ملموس. أحتاج إلى شيء - أو شخص - أكثر واقعية لألومه».

«إذن ما تسعى إليه هو الانتقام؟».

أطلق (موريارتي) ضحكة مسرحية وهو يجيب: «أجل، بالفعل، إنه انتقام. تضمنت خططي دائمًا هذا العنصر. كنت واثقًا من أن خطتي الجريئة - آمل أن تسمح لي بوصفها بهذا - ستجذبك حتمًا إلى مكائدي. إذا لم يُقدِّم السيد (تيمبل) على طلب المساعدة منك، فسيقدم أخوك حتمًا على دفعك للاشتراك في القضية».

«أشعر بالإطراء لأنني نلت كل هذه الأهمية في خطتك».

«كيف لا تكون مهمًا؟ فلسنوات كنت كالعلقم في فمي، تزعج عملياتي، وتحبط مشاريعي، ولكن منذ شلالات (ريتشيناخ)... منذ (ريتشيناخ)...». للحظة فقدت عينا البروفيسور بريقهما وحدتهما، بينما كانت يده اليسرى تداعب حافة عجلة الكرسي الآلي، وهو يجز على فكيه حائًا نفسه على استكمال الحديث. ثم في لحظة، استعاد (موريارتي) رباطة جأشه وحنكته البلاغية مرة أخرى.

«منذ (ريتشيناخ) بات تدميرك هو أكثر ما أتمناه، فوجهت معظم طاقاتي لتحقيق هذه الغاية. في مشروع الحالي كان من دواعي سروري أن أصيب عدة أهداف بسهم واحد، كإثارة غضب الحكومة البريطانية والنظام الملكي، وبالنهاية تجميع ثروة هائلة وإجراء دردشة أخيرة مع صديقي القديم (شيرلوك هولمز) قبل إنهاء حياته بيدي».

اهتزت قبضتا (موريارتي) بعض الشيء مع الانفعال عندما رفع البندقية لأعلى قليلاً. بدا أنه صار على وشك سحب الزناد، ولكن تشتت تركيزه حين سمع صوت صفير غريب ينبعث من هاتف على مكتبه.

بحركة حذرة، دفع (موريارتي) كرسيه المتحرك للخلف حتى وصل إلى المكتب، مع الحفاظ على السلاح مصوباً على (هولمز). رفع سماعة الهاتف من موضعها وأنصت للطرف الآخر. سرعان ما اتسع فمه كاشفاً عن ابتسامة ماكرة.

«ممتاز. أنزله إلى هنا». ظلت ابتسامته حاضرة بعد أن أنهى عبارته وأغلق الخط.

اقترب (هولمز) من المكتب، وهو لا يزال يوجه مسدسه نحو موريارتي بدوره، سائلاً: «ماذا تنوي أن تفعل بالطفل؟».

«ماذا سأفعل به؟ ماذا تعتقد؟ الصبي هو حمايتي. سيبقى معي في الوقت الحالي. يسعدني أن أقرأ له نعيك في الصحف. آملاً أن تنصفك الصحافة في تكريمك، لكن للأسف، أنت تعرف مدى إنكارهم لأمثالك».

«أين هو الآن؟».

أوماً رأس (موريارتي) قليلاً. لقد كانت مجرد حركة متناهية الصغر قبل أن يتمالك نفسه، لكنها كانت أكثر من كافية لـ(هولمز) ليلاحظها. كان رد فعل (موريارتي) التلقائي قد أعلم

(هولمز) بالفعل أن الصبي موجودًا في مكان ما خلف خزانة الكتب الكبيرة المواجهة للحائط. لا شك أنها تخفي مدخلًا سرّيًا إلى جزء آخر من وكر (موريارتي). لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله (هولمز) بعد أن عرف ذلك، لكنه اعتبرها معلومة مفيدة على أي حال قد يحتاجها.

قال (موريارتي) وهو يأخذ كأسين من الصينية الفضية على مكتبه ويضعهما في منتصف الفراغ بينه وبين (هولمز): «إن مكان وجود الصبي ليس مهمًا بالنسبة لك الآن. اتهمني بالعاطفة الجياشة يا (شيرلوك هولمز) لكن لدي رغبة مستعرة في تناول مشروب أخير معك. لقد أدرك كل منا مدى الانقسام الكبير الذي يفصل بين شخصيتينا منذ زمن بعيد، ومع ذلك نتشارك في نوع غريب من الروابط. كلانا سيدان في مهنتنا، أنت وأنا نتمتع بالدقة والمهارة وسعة الحيلة. هذه هي الصفات التي تكاد تجعلنا أخوين».

قال (هولمز) بنبرة مسترخية خالية من التحدي أو التوتر الذي يلتهب داخل كيانه: «إن هذا خيالي بعض الشيء بالنسبة لعالم رياضيات مثلك». كان يعلم أنه يجب عليه أن يستمر في ثرثرته مع (موريارتي). وكلما شئت انتباهه وماطله بهذه الطريقة زادت فرصة وصول قوات سكوتلاند يارد التي من المفترض أن (واطسون) قد اتصل بها في تلك الأثناء. لم يكن لديه أي مخاوف على سلامته الشخصية، طالما أنقذوا الصبي وقبضوا

على (موريارتي) فلا يوجد شيء آخر مهم. ثم تابع بعد صمت طال: «لا يوجد شيء يربطنا، بل نحن أبعد ما نكون عن هذا. نحن قطبان متباعدان في الفكر والأخلاق والرؤية. إن حياتك لا تتعدى مكانة أي مجرم يستغل قلة حيلة الضعفاء والصالحين، مستخدمًا الفاسدين والأوغاد كأتباع لتنفيذ خططك الشائنة لتحقيق مكاسب شخصية ولزيادة إحساسك بالقوة على حساب الأبرياء والمظلومين».

«أحسنت يا (هولمز). يا لك من رجل بليغ الوصف».

«العقل الإجرامي الذي تملكه في رأسك، لديه فكرة مشوهة عن العالم والمفاهيم. انتصاراتك لا توصف بشيء غير أنها حقيرة ومنحطة. ليس هناك مجد فيما تفعله. في الواقع يا بروفيسور (موريارتي)، لا شيء يجعلك مختلفًا عن النشال الذي يستعرض قوته المزعومة على سيدة عجوز ويخطف حقيبتها من أجل بضعة جنيهات قلائل. عندما يكتبون تاريخ العالم سيعتبرونك مجرد دودة ليس لها أي تأثير».

تلاشت الابتسامة اللامبالية التي ارتسمت على شفتي (موريارتي) لوقت كبير، وتيبس جسده. كان واضحًا لـ (هولمز) أن كلماته - كما كان ينوي - قد أصابت بيت القصيد وأغضبت البروفيسور. لبضع لحظات بدا ضائعًا بسبب عبارات (هولمز)، ولم يكن واثقًا من كيفية الرد على انتقادات المحقق. كاد أن

يفتح فمه ليقول شيئاً ما، ولكنه تراجع عن نيته حين عاد رنين الهاتف المستقر على مكتبه يهز المكان مرة أخرى. أمسك (موريارتي) سماعة الهاتف وراح يصغي للمتصل ثم عادت الابتسامة لمحياه.

قال: «ممتاز. أحضره».

بعد ثوانٍ فُتح الباب الذي دخل من خلاله (هولمز) وظهر رجلان، أحدهما كان المتسول الذي مر به (هولمز) في طريقهم إلى (ليونين تشامبرز)، والآخر كان (واطسون)!

الفصل الثالث والعشرون

في غرفة قريبة، كان الدكتور (جراهام موراي) متكئاً على السرير الراقد فيه (ويليام تيمبل). كان الطبيب يهز رأسه بأسف وهو يقول: «لا يوجد شيء يمكنني فعله لمساعدة الصبي. إنه بحاجة إلى رعاية طبية في المستشفى، فقد تجاوزت حالته قوة عقاقيري ووصفاتي».

قال (جاونت) الذي كان يقف بعيداً، باستياء: «أنت طبيب، فلتعالجه».

واجه (موراي) خصمه بلا خوف وهو يقول: «يمكنك أن تصرخ في وجهي كما تشاء وتلوح بهذا السلاح في وجهي، لكن ذلك لن يساعد في علاج الطفل. أنا طبيب بالفعل كما ذكرت، وعلى هذا المبدأ، هل تعتقد أنني سوف أراجع عن قسم (أبقراط) وأمتنع عن مساعدة شخص مريض إذا كان هذا في حدود سلطتي أو إمكانياتي؟ هذا الصبي يعاني من الحمى وهو يدخل في غيبوبة بينما نتحدث. إنه بحاجة إلى علاج متخصص وأنابيب أكسجين. أنا مجرد ممارس عام للمهنة ولست متخصصاً».

ارتعدت عينا (جاونت) بقلق وتبدد غضبه في ثوانٍ. استطاع
(موراي) أن يلاحظ أن الرجل كان مرتبكاً وغير واثق مما يجب
فعله. ربما حان الوقت الآن ليصبح (جاونت) هو صاحب القرار
في تلك المسألة.

الفصل الرابع والاربعون

من مذكرات د. (واطسون)

بمسدس ينكز ظهري بقوة قادني المتسول إلى المبنى الذي دخله (هولمز) قبل أقل من خمس عشرة دقيقة. دخلنا من أحد الأبواب الجانبية المخفية، كان المدخل يتوسط عدة عوارض خشبية متساقطة، مرتبة ببراعة لتبدو للعيان كأنقاض خربة ليس أكثر. حين دلفنا للمكان، أشعل سجاني مصباح زيت ليكشف الضوء عن خزانة صغيرة على الحائط، يخرج منها هاتف محلي، مشابه لتلك الهواتف المستخدمة على متن السفن. هذه النوعية من الهواتف تكون قصيرة المدى، تكفي لتغطية مبنى واحد فحسب ليتواصل رواده ببعضهم بعضاً دون غيرهم. تحدث إلى شخص ما في الطرف الآخر، وأعلن بسعادة عن اختطافي.

تطلع الرجل إليّ وهو يبتسم ابتسامة عريضة ثم قال: «الرئيس يريد أن يراك. ستستمع بذلك». لم تبدُ نبرته مريحة لي خاصة في موقفي هذا، ثم راح يحثني على الحركة وهو يكرني بمسدسه مرة أخرى.

انتقلنا من تلك الغرفة الضيقة إلى الردهة الرئيسية للمبنى، واقتادني عبر الظلام نحو الطرف البعيد من الرواق، وبعد أن دلفنا من باب آخر وجدت نفسي في بهو ضيق ولكني اندهشت حين وقع نظري على وسيلة الرفع تلك. ضغط آسري على أحد الأزرار المثبتة على الحائط، بدأ صوت طنين خافت يتردد في الأرجاء لبعض اللحظات، حتى ظهرت حافة المصعد الأرضية في نهاية المطاف.

قال المتسول وهو يسحب باب المصعد المعدني: «إنه جميل، أليس كذلك؟ ادخل يا دكتور».

وبعد أن استقر كلانا بداخله، اهتز المكان مع بعض الحركة، ثم بدأ المصعد في النزول.

«أعتقد أن هذه ستكون رحلتك الأخيرة. آمل أن تكون قد استمتعت به». قالها المتسول بابتسامة عريضة قاصداً المصعد، الذي بمجرد أن سكنت حركته، قال: «تحرك عبر الباب».

دلفنا بعد ذلك إلى غرفة كبيرة ومجهزة بأثاث فاخر بشكل مدهش. لم أتوقع أن أبصر هذا الرقي في تلك المنطقة، كان الأمر أشبه برؤية واحة خصبة وسط رمال الصحراء القاحلة. شعرت بدفء مريح بمجرد أن اقتربت من الغرفة وذلك بسبب النيران المشتعلة بالمدفأة الضخمة، لكن ما لفت انتباهي على الفور وجذب كل تركيزي هو مشهد الشخصين اللذين يواجهان

بعضهما على طرفي مكتب كبير. كان أحدهما على كرسي متحرك يلوح ببندقية كبيرة. والآخر، الذي كان يقف بالقرب من الباب، كان (شيرلوك هولمز).

أشار إليّ الرجل الجالس على الكرسي المتحرك وهو يقول بابتسامة: «ها أنت ذا. تعال يا د. (واطسون). ها نحن ذا نلتقي في نهاية المطاف. اسمح لي أن أقدم نفسي».

أجبت ببرود مقاطعًا حماسه: «أنا أعرف من تكون». بينما كنت أحاول إخفاء الصدمة التي شعرت بها، عندما رأيت أخيرًا شبح المجرم العبقرى أمامي، لقد خفق قلبي في صدري بقوة من خطورة الموقف.

«يمكنني أن أقول نفس الشيء عنك. لكن دعنا لا نهدر الوقت في المزيد من الكلام التقليدي. اقترب وتناول مشروبًا معي ومع رفيقك السابق (هولمز)».

تقدمت إلى الأمام، ونظرت إلى (هولمز) الذي رفع حاجبيه كما لو أنه يحاول توجيه سؤال لي. كنت أعرف ما كان يفكر فيه، وما الذي يريد أن يعرفه، والذي يكمن في هل تمكنت من استدعاء المساعدة؟ أو مات برأسي خلسة علامة على النفي، فرأيت صديقي يمسح شفتيه علامة على خيبة الأمل.

«تعال يا (هولمز)، كن خدومًا وصب شرابًا لشريكك».

تردد (هولمز) فرغ (موريارتي) بندقيته جزءً بسيطاً كم لو أنه يذكره بأنها لا تزال في يده، وقال: «أنا أصر». حمل صوته نبرة تهديد واضحة. ببطء وبتردد فعل (هولمز) ما طلب منه.

قال (موريارتي): «هذا أفضل وأنت مطيع». ثم حوّل انتباهه إلى المتسول الذي كان يحوم بالقرب من الباب وتابع: «اذهب أنت يا (كروثر)، عد إلى موقعك. وأحسنت صنعاً هذا اليوم». ابتسم المتسول ثم قال قبل أن يغادر: «شكراً لك سيدي». «الآن ثلاثتنا فقط. كم هذا مسللاً!».

سألته: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

«تناول شرابك أولاً يا (واطسون). ماذا أنوي أن أفعل؟ حسناً، أعتقد أنك تعرف الإجابة على هذا السؤال. كما كنت أشرح لـ (هولمز) قبل وصولك، فإن النجاح التام لخطتي سيتوج بتدمير صديقك هنا. ماذا أطلقت عليه ذات مرة في قصصك التي نشرتها؟ (أفضل وأحكم رجل عرفته على الإطلاق)، أليس كذلك؟ وبالطبع ستنضم إليه في تلك الهاوية التي لا يعود منها أي مسافر، لذلك أخشى أنك لن تكون موجوداً لتكتب نعيًا مبالغاً فيه هذه المرة، كما فعلت من قبل، أو حتى تسجل كلماته الأخيرة». ثم التفت إلى (هولمز) مكماًلاً: «على ذكر الأمر، هل لديك أي كلمات أخيرة يا سيد (هولمز)، قبل أن أضغط على الزناد؟».

«الأفعال تتحدث بصوت أعلى من الكلمات». وبحركة خاطفة، أطلق (هولمز) رصاصة من مسدسه صوب ساقى (موريارتي)، بينما ألقى في نفس الوقت بيده الأخرى، شرابه في وجه عدونا.

صرخ البروفيسور من الألم، لقد تشتت تركيزه للحظات لكنه وبرغم الألم ما زال محكمًا قبضته على سلاحه، وبعزيمة فولاذية أطلق النار على (هولمز)، لكن ما حدث منح صديقي وقت كافيًا ليثب بعيدًا عن البندقية وتخطئه الرصاصات، حول (موريارتي) انتباهه إليّ وأطلق النار في اتجاهي، لكن ردود أفعاله كانت أبطأ من ردود أفعالي، حيث ألقىت بنفسى على الأرض، وبالتالي اختفيت عن أنظار (موريارتي) خلف المكتب ولم تستطع فوهة بندقية رصدي.

اندفع (هولمز) إلى الأمام وانتزع البندقية بقوة من بين قبضة (موريارتي) ثم قال: «لا وقت لإعادة تسليم سلاحك الآن يا بروفيسور». ثم قذف بالبندقية إلى الطرف الآخر من الغرفة وأكمل: «(واطسون) الذي يحب الأحداث المتوقعة، سيكتب بلا شك في روايته الجديدة عن ذلك الحادث الذي أدى إلى انقلاب الآية وتلك التطورات في مواقف القوى».

فرك (موريارتي) ساقه المصابة كما لو أنه يحاول تخفيف الألم عنها، لكنه حافظ على رباطة جأشه.

ثم فجأة سمعنا صوت رصاصة وصراخ مكتوم من مكان آخر في المبنى. توجهت نظرة (موريارتي) صوب خزانة كتب على الحائط البعيد. اندفع (هولمز) نحو الخزانة دون تفكير، وفي غضون ثوانٍ رأيت أنه كان قادرًا على سحب المكتبة بأكملها للخلف مثل الباب الكبير.

«أبقِ عينيك على صديقنا هنا يا (واطسون)، حتى أكتشف ما حدث بنفسك». صرخ بها (هولمز) وهو يختفي داخل ممر خزانة الكتب ذي الإضاءة الخافتة.

استدرت لمواجهة البروفيسور في الوقت المناسب لأراه يستخرج مسدسًا صغيرًا من جيب معطفه الداخلي وهو يقول: «حكمة قديمة لي؛ (لا تعتمد أبدًا على سلاح واحد)، ولكن لا يوجد وقت للدردشة الآن يا (واطسون)». ثم صوب مسدسه نحوي وأطلق النار.

الفصل الخامس والاربعون

شق هولمز طريقه عبر ممر ضيق يحتوي على ثلاثة أبواب. جرب الأول فاتضح أنه يطل على غرفة نوم كبيرة فارغة، بها فراش معدني ضخم مرتب وملاءته مهندمة. افترض أن هذه يجب أن تكون غرفة نوم (موريارتي) الخاصة، فتركها وتوجه إلى الغرفتين الأخريين. سمع دوي طلقتين أخريين صادرتين من الغرفة التي تركها منذ دقائق وكان بها كل من (واطسون) و(موريارتي). في جزء من الثانية، استحضر عقله عدة سيناريوهات محتملة على وقع تلك الطلقتين النارييتين. ارتجف جسده في تردد مفكرًا، هل يعود إلى الغرفة ويتحرى الأمر قاتلاً كل تلك الظنون؟ أم يواصل بحثه عن الصبي؟ نادرًا ما يواجه المحقق مثل هذه المعضلة. قد يحتاج (واطسون) إلى مساعدته، أو الأسوأ من ذلك أن يكون الأوان قد فات بالفعل.

لكن القدر قد أخذ القرار بالنيابة عنه، لأن باب الغرفة الثانية انفتح فجأة وظهر (دومينيك جاونت) من خلفه، كان وجهه رطبًا من فرط العرق وعيناه جامحتان وزائغتان. ترنح في الممر قبل أن يطلق صرخة فزعة عند رؤية (هولمز) أمامه مباشرة في هذا

الوكر السري. على الفور اتجهت يد المفتش ناحية مسدسه، فقفز (هولمز) بسرعة جنونية إلى الأمام ليلكم ذقن (جاونت) قبل حتى أن يلمس مقبض سلاحه.

ترنح الرجل إلى الوراء، لكنه تمكن من الحفاظ على توازنه دون أن يسقط. بدا أن الضربة الأخيرة ساعدت على تركيز عقله وحشد طاقاته أكثر، فأطلق صرخة هجوم وهو ينقض على (هولمز) ليدفعه ناحية الحائط ثم اشتبك الرجلان. كان كل منهما قريبًا من التفوق على الآخر بطريقة ودوافع مختلفة. كان (جاونت) ثائرًا كالبركان وعقله مشحون بالغضب وخيبة الأمل، فزاد غضبه من قوته، مما منحه للحظات أفضلية على (هولمز) في القتال. في حين أن هذا الأخير كان أكثر هدوءًا ومنهجية، ويفتقر إلى العاطفة المجنونة التي يتمتع بها خصمه.

وبينما كانا ملتحمين، هوى الرجلان على الأرض وكل منهما يحاول التثبيت بقبضة الآخر محاولاً تقييد حركته. تمكن (جاونت) من انتزاع يديه عنوة من هذا التشابك، ثم قبض على (هولمز) من حلقه وبدأ في خنقه. بحنكة رفع (هولمز) ذراعيه، وكسر القفل الذي صنعه (جاونت) حول عنقه، وبعد ذلك بجهد كبير تمكن من إزاحة خصمه جانبًا. منحه هذا القدرة على الاعتدال واقفًا على قدميه مرة أخرى. استدار (جاونت)

نحو خصمه وهو لا يزال جالسًا على الأرض لاهثًا بشدة، ووجهه يتلألأ من العرق.

حذق الرجلان إلى بعضهما لبضع ثوانٍ كما لو أنهما تمثالان لا يصدر عنهما أي حركة، يحاول كل منهما توقع حركة غريمه التالية. ثم اندفع (جاونت) واثبًا إلى الأمام، وهو يمد يده إلى مسدسه الذي هوى منه أرضًا في بداية النزاع، والذي بات الآن على بعد أمتار قليلة منه. بفرحة خطف سلاحه ثم نهض على قدميه وهو يترنح. ومثل البرق، مده (هولمز) يده وأمسك بمعصم (جاونت) القابض على المسدس قبل أن يتمكن من تصويبه نحوه. مرة أخرى تصارع الرجلان مع بعضهما. دفع (هولمز) (جاونت) إلى الحائط وانقض عليه بدوره، محاولًا تخليص المسدس من قبضته عن طريق ضرب ذراع (جاونت) بقوة كبيرة في الحائط الخشبية. فجز (جاونت) على أسنانه، وأطلق هديرًا وحشيًا عميقًا كحيوان مفترس، ثم دفع خصمه بقوة وتمكن من انتزاع ذراعه من قبضة (هولمز) العنيدة.

وفجأة انفجرت الرصاصة.

تجمد الرجلان مرة أخرى لبضع ثوانٍ في الممر القاتم يحاول كل منهما فهم ما حدث. وبعد ذلك، اتسعت عينا (جاونت) بإدراك مرتعب. ارتجفت شفتاه للحظة كما لو كان على وشك أن يقول شيئًا ما لكن لسانه لا يسعفه، فلم تخرج منه أي كلمات. شعر (هولمز) أن جسده (جاونت) استرخى بالكامل وفقد أعصابه.

بلطف تحرر من قبضة (جاونت) ورجع خطوة أو اثنتين إلى الورا، فانزلق جسد خصمه على الأرض. ظلت عيناه مفتوحتين للحظة، تحدقان إلى (هولمز) كما لو أنهما تخرقان روحه، وبيطء شديد أغلقهما إلى الأبد.

وقف (هولمز) للحظات، يحاول فيها تنظيم أنفاسه واستعادة رباطة جأشه. لم يشعر بأي انتصار. لم يكن قتل غيره أمراً يفخر به. كان يفضل أن يقدم الرجل إلى العدالة. على القضاء أن يحكم عليه وليس هو، فتلك ليست وظيفته، إنه محقق ومحلل للجرائم، وليس جلاذاً.

مسح جبينه محاولاً أن يرمي بهذه الأفكار خلف ظهره، حتى تنتهي هذه القضية على الأقل. استعاد رباطة جأشه وهو يدلف إلى الغرفة التي خرج منها (جاونت) قبل النزال، وبمجرد دخوله أصيب بالمزيد من الغثيان إثر المشهد الذي وقعت عيناه عليه، كانت هناك جثة أخرى على أرضية الحجرة، إنه ذات الرجل الذي لمحه (هولمز) مع (جاونت) عند دخول المبنى، من الواضح أنه كان طبيباً من نوع ما، حيث كانت هنالك سماعة طبية حول رقبته وحقيبة إسعافات على سطح السرير مؤكدة هذا الظن. ركع على ركبتيه وراح يتحسس نبض الرجل للتأكد من وفاته، ليكتشف أنه مات دون رجعة.

عندما دنا من العجثة أكثر لاحظ الثقب الدامي بصدر الرجل قرب قلبه. لا شك أنه ضحية لـ (دومينيك جاونت). بعد إعادة نظر بالوضع الحالي شعر (هولمز) بأن بعض الذنب يخف عن عاتقه، لكونه مسؤولاً عن مقتل هذا الشرطي الفاسد وتخليص العالم من شروره.

نهض ببطء، ولاحظ الجسد الكائن تحت أغطية مجمدة على السرير. هرع إلى الأمام وسحب البطانية للخلف ليكشف عن وجه صبي صغير تحتها، يظهر على ملامحه آثار إصابته بالحمى، هذا الغلام اليافع البريء كان السبب دون قصد في كل هذا الموت والعنف. إنه (ويليام تيمبل) الوريث المحتمل للعرش. سحب (هولمز) البطانيات محاولاً إيقاظ الصبي الصغير، لكنه كان ساكناً دون أن يبدي أي رد فعل.

تمتم (شيرلوك هولمز) وهو يحدق إلى جسد الصبي الهامد: «يا إلهي! لقد فات الأوان بالفعل، لقد مات الصبي».

الفصل السادس والاربعون

من مذكرات د. (واطسون)

بعد أن أخرج البروفيسور (موريارتي) مسدسًا صغيرًا من جيب سترته، انحنى إلى الأمام في كرسيه المتحرك، وأطلق رصاصتين في اتجاهي. بشكل غريزي وكرد فعل طبيعي هويت بجسدي على الأرض في محاولة يائسة مني لتجنب الرصاصات. تمكنت من تحاشيها بالفعل في اللحظة الأخيرة، لكنني عندما استلقيت بشكل أرعن على الأرض، اصطدم جانب رأسي بحافة طاولة رخامية صغيرة مرتكزة بوسط الغرفة. شعرت بعدها بألم عنيف يطعن جمجمتي، بل الأدهى أنه راح يسحب وعيي إلى ظلام دامس ويغلف أذني بالصمت رغم أنني واثق أن هنالك ضوضاء لا بأس بها تضج من حولي.

فقدت الوعي بالفعل لفترة قصيرة للغاية رغم مقاومتي، ثم اعتدلت واقفًا على قدمي مترنحًا من فرط الدوار. أجبرت عيني تدريجيًا على التركيز في الموجودات من حولي، لقد كانت نفس الحجرة التي غفوت بها، لكنها فارغة. لقد اختفى البروفيسور!

لا شك أنه افترض حين هويت على الأرض وبقيت ساكنًا دون حراك أنه قد نجح في محاولته لقتلي وتركني لشأني دون الاهتمام بتفقدني. الآن اهتمامي الأول والأخير يكمن في العثور عليه. ثم سمعت أزيز المصعد من جديد. هززت رأسي بشدة لتصفيتها وإعادة عملها كما كانت، ثم هرعت نحو الدهليز حيث كان المصعد موجودًا. وبينما كنت أفعل ذلك، سمعت دوي رصاصة أخرى. جاء من اتجاه الباب السري الذي اختفى خلفه (هولمز).

ترددت للحظة في اتخاذ قرارٍي التالي، عاد عقلي ببطء إلى طبيعته بعد أن صفعت رأسي حائثًا إياه على التفكير. فكرت في أن (موريارتي) بلا شك سينجح في هروبه بواسطة المصعد، فلا أثر لأي سلم يتجه للطابق العلوي في المكان، وليس أمامي سوى انتظار هبوط المصعد لأستقله أنا، هذا سيمنح البروفيسور الكثير من الوقت ليختفي، بجانب أن الرصاصة النارية التي سمعتها للتو قد تشير إلى أن (هولمز) واقع في مشكلة وبحاجة إلى مساعدتي. بسرعة جنونية، غيرت مساري وشققت طريقي صوب المدخل السري خلف خزانة الكتب المتحركة. بالممر الضيق الذي وجدت نفسي فيه عثرت على جثة (دومينيك جاونت). ركعت على ركبتَي جواره وحاولت أن أستشعر نبضه لكن دون جدوى؛ لقد مات الرجل. لاحظت بقعة حمراء قانية تزداد اتساعًا عبر صدره، توضح سبب الوفاة. كان (جاونت) مستلقيًا أرضًا بعرض الممر وعيناه مغلقتان، بدا هادئًا ومسالمًا ربما لأول مرة في حياته. من الغريب أنه بغض النظر عن الدروب التي نتبعها في

الحياة، وكل الأخلاق التي نلتزم بها، وما هي الآلهة التي نعبد،
فإن الموت لا يفرق بيننا ويجعلنا جميعًا متشابهين بالنهاية.
تخطيته وواصلت التقدم في الممر حيث لاحظت أحد
الأبواب مفتوحة. اشرب أعني لداخل الغرفة في وضعية حذرة
مما هو بالداخل، لكنني سرعان ما أرخيت دفاعاتي حين أبصرت
(هولمز)، متكئًا على جسد ما على السرير.
صحت بصوت مبحوح من الانفعال: «حمدًا لله على
سلامتك».

التفت نحوي وعلى ثغره ابتسامة شاححة وهو يجيبني: «وأنت
أيضًا، يا صديقي العزيز. نحن على قيد الحياة. لسوء الحظ لا
يمكنني قول نفس الشيء عن هذا الفتى المسكين».
تقدمت خطوة إلى الأمام ورأيت أن من كان على الفراش هو
صبي، وليس أي صبي؛ إنه الطفل الذي كنا نبحث عنه منذ بداية
هذه القضية المظلمة. لقد وجدناه أخيرًا.
أكمل (هولمز) بهدوء وهو يمس جبين الصبي بيده: «أخشى
أنا وصلنا بعد فوات الأوان».

«لا!». شهقت في رعب وانحنيت على الطفل. كانت ملامحه
ساكنة ووجهه رطب من العرق. رفعت إحدى ذراعيه الباردتين
وشعرت بنبض. قلت مرة أخرى: «لا»، لكن هذه المرة كان
لكلمتي معنى وأسلوب مختلفان. لم يكن تعجبًا ينم عن اليأس
كسابقه، بل تعجبًا مشحونًا بالأمل. كان (هولمز) مخطئًا. النبض
خافت كرفرفة جناح فراشة هشة، لكنه موجود على الأقل.

صحت: «هذا الصبي لم يمت، ما زالت هناك حياة في عروقه. إن قلبه خافت وضعيف ولكن منتظم بعض الشيء. الصبي يقاتل من أجل البقاء.»

اتسعت عينا (هولمز) بدهشة وهو يسألني: «هل أنت واثق؟». استشعرت رفرقة الفراشة مرة أخرى ثم قلت بثقة: «أنا واثق. نحن بحاجة إلى نقل هذا الصبي إلى أقرب مستشفى على الفور لإبقائه على قيد الحياة، فنحن بحاجة إلى علاج متخصص.»

«يجب أن يعيش.»

أومأت برأسي موافقه الرأي، ثم بدأت ألفت الصبي الضعيف في بطانيته، فقال (هولمز) بصوت مليء بالخوف: «ماذا عن (موريارتي)؟»

«أخشى أنه هرب.»

قال (هولمز) بمزيج من الإحباط والغضب: «لديه حظ كالشياطين. على الأقل ما زلنا نعرف خطته.»

لبضع لحظات، أطرق (هولمز) برأسه وأغلق عينيه، كما لو أنه يحث نفسه على التفكير، ثم قال بعد أن استعاد حماسه بعينين يقظتين: «حسنًا، أنا أكلفك بمهمة نقل هذا الصبي المسكين إلى المستشفى.»

«بكل تأكيد ولكن...»

«في تلك الأثناء، سأبلغ السلطات بما حدث. يجب على (مايكروفت) أن يكون قادرًا على تحريك مجريات اللعبة لصالحه. يمكننا منع دفع الفدية على أقل تقدير، فالمباراة لم تنتهِ بعد.»

الفصل السابع والاربعون

من مذكرات د. (واطسون)

في غضون نصف ساعة من مغادرتي المقر السري لـ (موريارتي) كنت أجلس على أحد الكراسي في ممر بمستشفى (بارت) أنتظر بقلق تقريرًا عن حالة (ويليام تيمبل). أخذته إلى هذا المستشفى بالذات لأنه كان المستشفى الذي تدربت وعملت به فترة الجامعة، فكنت على دراية بنظامه المتفاني في التعامل مع المرضى، وكنت معروفًا هناك باسم «الصديق العزيز» كما يطلق عليّ (هولمز) دومًا.

خمنت أنني سأتمكن من الحصول على الاهتمام الفوري للطفل، واتضح أن هذا ما حدث بالفعل، فبمجرد عبوري لعتبة المستشفى، سُحب الصبي من بين ذراعيّ لتقديم الرعاية الطبية الكاملة له. كما أكد لي طبيب بدين يدعى (ماكسويل) - لم أكن أعرفه من قبل - أنه سيبدل قصارى جهده لإنقاذ الصبي.

كنت أعلم أنه لا يوجد خدمة طبية لتقديمها أفضل من تلك، لكن هذا لم يهدئ أعصابي بعد، بسبب معرفتي بمدى خطورة حالته. فبينما كنا نتحرك بعربة الأجرة من على ناصية وكر البروفيسور، كان الصبي جامدًا بين ذراعيّ ولم يظهر ذلك الوجه الرطب الحزين أي علامات حقيقية على بقائه معنا في عالم الأحياء. كان ذلك النبض الضعيف فقط هو الذي يعطي مؤشرًا على أن الطفل لا يزال متشبثًا بالحياة، ولكن في أعماق قلبي توقعت الأسوأ.

ما زاد من إحساسي بالضيق هو حقيقة أنني أصبحت الآن مهمشًا عاجزًا عن استكمال هذه اللعبة المظلمة والمعقدة التي شاركت فيها مع (هولمز) منذ البداية. لقد بذلت كل ما في وسعي للمساعدة في إنقاذ حياة الطفل، والآن أصبح هذا الأمر متروكًا لأيادٍ أخرى أكثر خبرة وحنكة مني في الطب، ولم أعد قادرًا على تقديم المساعدة لـ(هولمز) في مجهوداته الأخيرة بالقضية.

تساءلت في قرارة نفسي عن مكان تواجده في تلك اللحظة، وأين كان (موريارتي) يا ترى؟ كلها أسئلة ليس لها إجابة مرضية، في حين أن كل ما يمكنني فعله هو الجلوس على كرسي صلب في ممر المستشفى وحيدًا، محاولًا تناسي الأمر. بالنسبة لرجل محب للحركة - كما كنت أعتبر نفسي دومًا بفخر - كان هذا الموقف في نظري يعتبر عقوبة، من أقسى أنواع التعذيب.

في مثل هذه الأوقات، يتحایل عليّ الوقت ويبدو بالنسبة لي كما لو أنه يتباطأ في وتيرة الحلزون. حاولت تجنب فحص ساعتني بشكل متكرر لكنني فشلت. حتى أن عقارب الساعة بدت كما لو أنها بالكاد تتحرك على الإطلاق، كأنما تلك الآلة الملعونة قد توقفت عن العمل، ومع ذلك فقد مرت ساعات منذ وصولي إلى المستشفى. بين الحين والآخر كنت أقف من جلستي وأتجول في الممر لأخفف من الملل والإحباط. كان هناك موكب مستمر من الممرضين والممرضات والأطباء يمرون بي ذهابًا وإيابًا، وبالكاد يلقون نظرة سريعة عليّ.

وبعد ذلك، لاحظت أخيرًا جسد دكتور (ماكسويل) الضخم يظهر في أقصى نهاية الممر، بشكل أقرب للسراب؛ كانت هيئته غير واضحة في البداية، كما لو كنت أراه من خلال زجاج مصنفر. ربما كان هذا الوهم البصري بسبب إرهاقي وقلقي. ثم بدأ جسده يتضح تدريجيًا بينما يقترب مني أكثر. هوى قلبي بين قدمي عندما رأيت التعبير الكئيب على وجهه، وبلورات العرق تتصبب على جبينه، ثم جلس بجانبني وهو يتنهد بشدة!

الفصل الثامن والاربعون

كانت شاحنة نقل ضخمة تحمل شعار (منتجات طومسون للحوم المعلبة) متوقفة على جانب الطريق بالقرب من حقل زراعي، وفقاً للتعليمات. كان السائق هو (آرثر موكسون) رقيب في شرطة العاصمة متنكراً بملابس العمال الرديئة. بدأ متوتراً لأنه موشك على المرحلة التالية، التي ستصير حسب اعتقاده المرحلة الأكثر دراماتيكية في رحلته. كل ما تم التخطيط له لهذه المجازفة كان يخيفه على أي حال. رغم أن دوره كرجل توصيل عادي غير مميز حتى الساعة الحادية عشرة من الليل لم يكن بهذه الصعوبة.

انزلقت يد (موكسون) بشكل غريزي داخل سترته، وتشابكت أصابعه حول مقبض مسدسه، ليطمأن على وجوده بغمده. منحه ملمس المعدن البارد إحساساً بالأمان والراحة. لم يستخدم هذا السلاح قط أثناء خدمته في العاصمة، لكنه كان واثقاً أنه سيحتاج إليه الليلة. بذل مجهوداً كبيراً لتهدئة أعصابه بينما ينتظر بصبر ما سيحدث. عندما حدق إلى الظلام أمامه تمكن تدريجياً من ملاحظة هيئة ثلاث عربات تتوقف في الزاوية البعيدة من

الحقل، ثم يخرج من كل منها عدة رجال، ربما كانوا ثمانية رجال إجمالاً أو أكثر، المهم أنهم يتجهون نحوه. ثلاثة منهم يحملون مصابيح زيتية، بينما يحمل الآخرون بنادق ومسدسات. قال (موكسون) وهو يمدد ظهره إلى الخلف في مقعده: «إنهم في طريقهم». ردًا على ذلك، بلغ مسامعه ضوضاء خافتة من الصندوق في مؤخرة السيارة.

وصلت مجموعة الرجال إلى حيث تستقر العربة، ثم تقدم أحد أفراد تلك العصابة إلى الأمام، مصوبًا بندقيته إلى (موكسون) وهو يقول في حدة: «انزل. نعدك ألا تتعرض للأذى إذا أحسنت التصرف. كل ما يهمنا هو محتويات صندوق شاحنتك. وبمجرد الحصول عليه، سنسمح لك بالرحيل دون ضرر».

فعل (موكسون) ما طُلب منه بروية وترجل عن السيارة إلى العشب الرطب بالحقل، ثم اقترب من قائد المجموعة بثقة كبيرة حتى أن هذا الأخير فوجئ بوقاحة السائق، وتراجع خطوة إلى الوراء.

لاحظ (موكسون) علامة القلق الخاطفة على وجه الرجل، فابتسم وهو يقول مقتربًا أكثر: «يجب أن أنصحك لمصلحتك الخاصة، من الأفضل أن تلقي أسلحتك جانبًا. بهذه الطريقة لن يتأذى أحد».

ضحك زعيم المجموعة وهو يجيب: «حسنًا، يبدو أنك مغرور، أليس كذلك؟ هل ستقبض علينا وأنت بمفردك وأعزل أم ماذا؟».

قال (موكسون): «ليس تمامًا». موجهًا نظره إلى العربة التي خرج منها عشرات الضباط بينادقهم المحملة بالرصاص، في حركة هادئة وسريعة ووقفوا في حالة تأهب للقتال.

«ما الذي يحدث هنا؟». صرخ بهم قائد المجموعة وصوته يحمل نبرة ذعر.

قال (موكسون): «إنها هزيمتك، هذا كل ما في الأمر. لقد انتهت اللعبة أيها السادة. أنتم جميعًا رهن الاعتقال. لا تحاولوا الهرب. إذا قام أي منكم بحركة مفاجئة سنطلق عليه النار. الآن، ارموا أسلحتكم».

تقدم الضباط للأمام وفوهات بنادقهم مصوبة ناحية العصاة. فقال أحد الرجال: «اللعنة!». وهو يرخي أصابعه عن مسدسه ليسقط على الأرض.

رن جرس الهاتف بصوت حاد، فكسر صمتًا مطبقًا لم يزد الوضع إلا توترًا. انتزع (مايكروفت) سماعة الهاتف بلهفة. استرخت ملامحه القلقة، التي أوضحها المصباح المستقر على

الطاولة، وأشرقت عيناه وهو يستمع إلى الصوت في الطرف الآخر من المكالمة. صاح بفرح: «ممتاز! ممتاز!». تنهد بارتياح بعد أن أغلق الخط ثم قال لمن يجلس على الناحية الأخرى من مكتبه: «انتهى الأمر يا (شيرلوك). لقد انتهى حقًا. أمسكنا برجال (موربارتي)، أو حفنة منهم على الأقل. لا شك أن بعض الأتباع الصغار سوف ينسحبون ويختفون عن الأنظار، لكن الشيء المهم الآن هو أن الخطر قد انتهى. حمدا لله أنك عثرت على الطفل في الوقت المناسب. بالتأكيد نحن لم نكن لتتجرأ على الإقدام على مثل تلك الخطوة إذا كان الصبي لا يزال تحت براثن البروفيسور».

«أنت تتحدث عن الطفل كما لو كان شيئًا أو جمادًا ما. إنه بيدق هش في هذه اللعبة الغادرة وقد عانى كثيرًا من تلك المحنة. بينما يمكنك أنت وأصدقائك في الحكومة الاحتفال بالشمبانيا، دون الاهتمام إن كان (ويليام تيمبل) حيًا أم ميتًا».

«بالطبع نحن نهتم يا (شيرلوك). سامحني إذا كنت أوحيت لك بانطباع غير هذا، لكن الأولوية في مثل تلك المواقف تختلف حسب وجهة نظر المشاركين فيها. كان عليّ أن أراجع لأتمعن بالصورة الكاملة للأحداث. وتلك الصورة أكدت لي أن حياة الطفل - رغم كونها ثمينة دون أي إنكار - لا تقارن باستقرار الملكية وأمن الأمة. لو فشلنا لنسبب فوضى عارمة،

ستهوي بالبلاد إلى حالة اضطراب. لكن بفضلك، تجنبنا كل هذا وأحبطنا المؤامرة».

أشعل (شيرلوك هولمز) سيجارة قبل أن يرد: «بالفعل لقد أحببتم المؤامرة. لديكم الآن عصابة من المجرمين في الحجز، لكن ليس البروفيسور، وهو لا يقارن أبداً بهؤلاء المجرمين المهمشين».

أوماً (مايكروفت) برأسه وظهر على ثغره ابتسامة متعاطفة مجهدة للحظة وجيزة، ثم قال: «أجل، أخشى أنك محق بشأن (موريارتي)، لكنك على الأقل دمرت خطته وأزلت التهديد عن الملكية البريطانية والحكومة. في رأيي، كل شيء على ما يرام حتى الآن».

أجاب (هولمز) بضجر: «ليس بالنسبة لي». ثم أطفأ سيجارته في كوب قهوته.

في مقصورة من الدرجة الأولى على متن العبارة الليلية المتجهة إلى بلدة (دييب) الفرنسية، كان البروفيسور (جيمس موريارتي) يدخل سيجارة ويشعر بعدم الرضا بدوره. كل تخطيطه وتنظيمه الدقيق صار في النهاية هباءً بلا فائدة. لم يظفر بالمكافأة المالية، والأسوأ من ذلك أن الشيطان (شيرلوك هولمز) قد انتصر عليه

مرة أخرى. زفر بحرار وغضب ثم تمتم قائلاً: «يومًا ما، يومًا ما
سيدفع هذا الرجل الثمن، ولن أتوقف حتى يحدث هذا». ثم
أطفأ سيجارته بعنف.

الفصل التاسع والاربعون

من مذكرات د. (واطسون)

كان الفجر يشرق فوق المدينة بينما كنت أشق طريقي على طول شارع بيكر. كنت مرهقًا ومتعبًا بشكل مبالغ فيه، كما لو أنني تعاطيت مخدرًا ما. صعدت الدرجات السبعة عشرة المؤدية إلى منزلي أنا ورفيقي ببطء، حتى دلفت إلى غرفة جلوسنا أخيرًا. سررت برؤية (شيرلوك هولمز) جالسًا حول مائدة الإفطار وبيده فنجان من القهوة.

قال وهو ينهض عن كرسيه ويتقدم نحوي: «(واطسون)، صديقي العزيز، أنا سعيد للغاية برؤيتك». للحظة ظننت أنه سيحتضني، ولكنه ساعدني على خلع معطف الخروج، واصطحبني إلى كرسي بجوار الطاولة، ثم صب لي فنجانًا آخر من القهوة وهو يسأل: «كيف حال الصبي؟».

قلت: «سيعيش».

«هذه أخبار رائعة».

«كان قاب قوسين أو أدنى من الموت. كدنا أن نفقدته بالفعل، لكن زميل مهنة لامعًا في مستشفى (بارت) نجح في إنعاشه».

ضحك (هولمز) مكملاً: «(بارت) إذن؟ اعتقدت كذلك أنك ستأخذ الصبي إلى هناك؛ المكان الذي تخرجت فيه. هل سيتعافى الفتى بشكل كامل؟».

أومأت مجيباً: «أثق في هذا، لا تقلق. وماذا عن (موريارتي) والفدية؟».

«سأخبرك ونحن نتناول الإفطار. أرى أنك في حاجة ماسة إلى بعض الطعام لاستعادة نشاطك، سأنادي السيدة (هودسون)، وعندما تنهي طعامك سنتوجه إلى مستشفى (بارت) ونزور مريضنا هناك».

وصلنا إلى المستشفى في منتصف الصباح تقريباً. اصطحبته إلى الغرفة التي رأيت فيها (ويليام) آخر مرة، لكنني وجدتها فارغة هذه المرة والسرير خالٍ من الأغطية!

صحت في حيرة إلى حد ما: «لقد نُقل من هنا! أتساءل إلى أين؟».

«أخشى أنك لن تعرف هذا أبداً». جاء الصوت من المدخل فاستدردنا لنرى أمامنا (مايكروفت هولمز) بشخصيته المهيبة الأنيقة.

سأل هولمز بفضفاضة: «ماذا فعلت بـ (ويليام تيمبل)؟». أجاب بطريقة مريبة: «لا، لا يا أخي العزيز، لا تتوقع مني أن أجيبك عن هذا».

سألت أنا بغضب واضح دون محاولة لمداراته: «ما الذي يحدث هنا بحق السماء؟».

«لقد نُقل (ويليام تيمبل) إلى مكان آمن، حيث سيُعتنى به بشكل مناسب».

«ماذا تقصد بقولك (بشكل مناسب)؟».

أجاب (هولمز): «إنه يعني في الخفاء بعيدًا عن الأنظار».

أوماً (مايكروفت) مؤكدًا على كلام أخيه وقال: «بالفعل، الولد لا يزال يشكل تهديدًا حيا على النظام الملكي. قد يكون هنالك مجرمون آخرون لديهم ذات أفكار البروفيسور (موريارتي)، لذا علينا أن نحمي أنفسنا منهم».

صحت: «هذا غير آدمي».

«هذا أفضل من الندم لاحقًا. يجب إبعاده عن كل أنواع الأخطار من أجل سلامته الشخصية ومصالحنا على حد سواء».

«هل سيعيش حياة الرهبان أم المعتقلين؟».

ظهرت نصف ابتسامة على ثغر (مايكروفت) ثم هز رأسه وهو يرد: «ليس تمامًا، لكنه سيخضع للمراقبة الدائمة. أنا واثق من أنك تفهم قصدي يا (شيرلوك)».

«أفهمه، لكن هذا لا يعني أنني موافق على الأمر. ماذا عن والديه المسكينين، السيد والسيدة (تيمبل)؟ ألن يريا ابنهما مرة أخرى؟».

«أخشى أن هذا لن يحدث. يجب أن تتذكر أنه لم يكن ابنهما من الأساس. لا أنكر إن هذه مشكلة، لكنني واثق من أن الوقت سيشفى جراحهما ويدفعهما للنسيان».

«تلاعب بارع بالألفاظ يا أخي».

تملكني الغضب والفرع حتى أن الكلمات تحشرجت بحلقي، فهممت بمغادرة الغرفة. كنت حينها في أمس الحاجة إلى بعض الهواء النقي. عندما وقفت على عتبة المستشفى، انضم إلى صحبتي (هولمز) بعد دقائق قليلة. وضع يده على كتفي مواسيًا وهو يقول: «أعرف ما تشعر به يا صديقي العزيز. أوافقك الرأي في أنه أمر قاس، لكن ربما يكون أفضل خيار أمامنا».

«الأفضل لمن؟».

«لست واثقًا. الوقت وحده هو الذي سيكشف الإجابة على هذا اللغز. لقد كانت قضية مزعجة للغاية بالفعل. في الختام، (مايكروفت) سعيد، والحكومة راضية، ولكن بالنسبة لبقيتنا...».

لم يتبقَّ سوى القليل لنقله. للأسف، لم يتعاف السيد والسيدة (تيمبل) قط من فقدان طفلهما الغالي. على الرغم من أنه لم يكن من لحمهما ودمهما، ولكنهما أحباه أكثر من لو كان ابنهما بالدم حقًا. كان الألم الذي تحملاه نتيجة انتزاعه بشكل غير آدمي من حياتهما عظيمًا. شعرت السيدة (تيمبل) على وجه الخصوص بالفقد وتدهورت صحتها بسرعة. يبدو أنه لم يعد لديها ولو حتى القليل من الطاقة أو الحماس لمساعدتها على التعافي. في غضون ثلاث سنوات من الأحداث التي سردتها للتو ماتت السيدة (تيمبل). وبحزن عميق هجر السيد (تيمبل) لندن دون أن أعلم إلى أين ذهب.

غرق (هولمز) بدوره في اكتاب لعدة أشهر بعد هذه القضية. لم يتحدث معي عن مشاعره حول الأمر أو حول أي شيء آخر - ونادرًا ما تحدث من قبل - لكنني استطعت أن ألاحظ أن الظروف المؤسفة التي أحاطت بالطفل والمصير القاسي الذي عانت منه أسرة (تيمبل) أثرت عليه بشكل كبير. ومع ذلك أنا واثق أيضًا من أن السبب الأكبر في شعوره بالإحباط يكمن في معرفته بأن البروفيسور (موريارتي) لا يزال على قيد الحياة وحرًا طليقًا. لسنوات ظل صديقي واثقًا من اعتقاده أنه قد خلص العالم من هذا العقل الإجرامي الشرير، أما الآن فعليه أن يتقبل الحقيقة الرهيبة، بأن الأمر لم يكن كذلك ولم ينته بعد. لقد اعتبر ذلك فشلًا له، بل فشلًا مصحوبًا بتهديد وتحدٍ. لا يمكنه أن يعرف متى سيعود شبح البروفيسور (جيمس موريارتي) ليطارده مرة أخرى، لكنه حتمًا سيعود.

T t.me/tea_sugar

الصحافة

شِيرلوك هولمز

بعد زيارة يقوم بها السيد (رونالد تيمبل) لمنزل (شيرلوك هولمز) ودكتور (واطسون)، يكلّفهما بالبحث عن طفله المخطوف. لم يتصل المختطف لطلب الفدية، ولكن في الوقت ذاته هناك خطرًا عظيمًا يهدد المجتمع الفيكتوري عن بكرة أبيه. يتضح أنها لم تكن عملية خطفٍ عادية على الإطلاق، وسرعان ما ستكون حياة أبطالنا على المحك. ما ميراث الصبي الحقيقي؟ وما علاقته بجرائم القتل التي وقعت في (وايت تشابل) قبل عقدٍ من الزمان.

ديفيد ستيوارت ديفز هو أحد الكتاب البريطانيين الرواد في الأدب الشارلوكي، حيث عمل كمحرر في جريدة المحقق شارلوك هولمز، وكتب العديد من روايات هولمز، والمسرحية الشهيرة شارلوك هولمز: الفصل الأخير.

T t.me/tea_sugar

